الكل قادر على القتل
إنجي هديب
آخر كوباية قهوة
رواية
طبعة جديدة

إنجي هديب

آخر كوباية قهوة

الكل قادر على القتل

رواية

alkarmabooks.com

facebook.com/alkarmabooks

twitter.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٤

© إنجي هديب ٢٠٢١، ٢٠٢٤

الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلفة، أو مستخدَمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

هديب، إنجي.

آخر كوباية قهوة: رواية / إنجي هديب - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤.

٢٦٤ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: 9789778727364

١- القصص العربية.

أ- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧٤٢ / ٢٠٢٤

١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١٠ ٨ ٦ ٤ ٢

تصميم الغلاف: أحمد فرج

تعميرة الحشيش

أحكم مؤنس غلق البالطو الصوف في محاولة منه لمنع برد الشتاء القارس من التسلل إلى جسده. كانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل، وهو يُمنِّي نفسه أن يجلس بجوار النيران التي تدفئه، ويتناول كوبًا من الشاي مع تعميرة الحشيش التي سيأتي بها صديقه عويس بعد قليل. تسلق درجات البناية المهجورة، وقد علا صوت ضربات قلبه الذي بدأ في التذمر من كثرة ما تعرض له من شرب الدخان بأنواعه. كان عويس هو حارس هذه البناية المهجورة التي لا يعلم مؤنس لمَ إلى الآن لم يكتمل بناؤها بعد! ولماذا هُجرت هكذا لسنوات! ربما هو أمر متعلق بالتراخيص! لم يشغل باله بالأمر كثيرًا.

كان مؤنس عامل بناءٍ في إحدى البنايات المجاورة، ويأتي إلى هنا كل مساء ليحتسي الشاي ويدخن مع عويس، ويثرثران عن كل شيء لا قيمة له. كان هناك ضوء من القمر بالكاد ينير المكان. توقف مؤنس للحظات، بدا له أن شيئًا ما ليس في مكانه، شيئًا ما قد تغير في جلستهما اليومية. هل تغير مكان الحجر الذي يجلسان عليه؟! أين ذهب براد الشاي الذي يضعه عويس؟! كان مؤنس يتلمَّس طريقه في الظلام، مستعينًا بضوء القمر الخافت حتى يصل إلى مفتاح الإضاءة الذي وضعه عويس للمصباح الوحيد الذي يعمل في هذه البناية كلها، إلا أن مؤنس توقف قليلًا مرة أخرى. كان يشعر بأنه ليس وحيدًا، كأن هناك شخصًا آخر معه في البناية. لم يكن جسده ضعيفًا، بل كان ضخمًا، ولديه قوة معقولة، لكنه شعر بخوف غير مبرر، وداعبت خياله أفكار الجن والعفاريت، فتمتم في سره: «بسم الله الرحمن الرحيم»...

- عويس؟ عويس إنت هنا؟

نادى على عويس الذي يعلم أنه لم يأتِ بعد، لكن شعوره بأنه ليس وحيدًا في ظلام بناية مهجورة أثار بعض الذعر في قلبه، فتمنى لو أن عويس قد حضر مبكرًا على غير العادة. ما زال بينه وبين مفتاح الإضاءة عدة خطوات، إلا أنها بدت له كأنها مسافة كبيرة حين تناهى إلى مسامعه بعض الضجيج.

- مين؟ مين هنا؟ عويس؟

جاوبه الصمت لثوانٍ. بَسمل مرة أخرى. لا يعلم لماذا حدثته نفسه أن يعود أدراجه وينتظر عويس في الأسفل، إلا أنه طمأن نفسه بأنها في الغالب قطة ضلت طريقها إلى هذا المكان المقفر هربًا من البرد. استجمع شجاعته التي لا

يدري من الأساس لمَ تخونه، فهو لم يرَ شيئًا مخيفًا، هي فقط مجرد خيالات في ذهنه، لكنْ هناك شيء ما أشعره بالخطر، شيء ما جعل القشعريرة تسري في جسده، وأخبره حدسه البدائي بأن الهرب من هذا المكان حتمي. هز رأسه وهو يُبسمل مرة أخرى، ومد يده إلى مفتاح الإضاءة الذي أصبح في متناوله الآن، إلا أنه تعثر وسقط أرضًا على وجهه قبل أن تلمس يده المفتاح. كان الذعر قد سكن قلبه على الرغم من أنه من المنطقي والطبيعي أن يتعثر وهو يسير في الظلام في بناية مهجورة مليئة بالطوب والحصى ومواد البناء. تمكن الرعب منه بالكامل فبدأ بالصراخ: - عويس! عويس! الحقني يا عويس!

كان مُلقى على الأرض، فتلوثت كفه بشيء ما لزج الملمس!

لم يكن بحاجة إلى ذكاء، ولا حتى إلى نور، ليدرك أنها دماء، لكن دماء مَن؟! هل جُرح من دون أن يشعر بذلك؟ التفت إلى المكان الذي ظن أن الدماء جاءت منه، فوجد بركة لم تجف بعد، ما مصدرها؟! لم يتبين. والحق أنه لم يحاول حتى معرفة مصدر الدماء، بل قام وأطلق ساقيه للريح. كيف ركض في الظلام من دون أن يتعثر مرة أخرى؟

لا يهم، المهم أنه خرج حيًّا من هذا المكان!

الواقع والخيال

اليوم

- جربوا كده كل واحد يتخيل حاجة بيخاف منها زي مثلًا الكلاب السودا الشرسة، تخيل إن الكلاب دي بتجري وراك في يوم بالليل ومحدش جنبك... هتحس بإيه؟

تفقَّد الدكتور عادل حلمي الأستاذ المساعد في كلية الطب قسم الطب النفسي، وجوه الطلاب التي تنظر إليه نظرات بلهاء غير مدركة أنه يتوقع إجابة منهم على سؤاله. تنهد وهو يلوم نفسه على محاولاته لتعليمهم بأسلوب غير نمطي. يبدو أنه كان عليه أن يكتفي بأن يعطي كلًّا منهم جزءًا من كتاب أو نظرية ويخبرهم بأن عليهم حفظها.

لكن إحدى الطالبات قالت بصوت خفيض بالكاد استطاع أن يسمعه:

- هاموت من الخوف!

ابتسم عادل وقد أشرق وجهه، وهو يقول بصوت مسموع لها ولكل الطلاب:

- سامعين قالت إيه؟ هتموت من الخوف، طيب ليه؟ مش هي بتتخيل بس؟ هو فيه كلاب دلوقتِ بتجري وراها؟ لأ، لكن المخ مش بيعرف يفرق بين الواقع والخيال اللي إحنا بنتخيله، عشان كده ممكن نعيط وإحنا بنتفرج على فيلم مثلًا. مشاعرنا اللي بتتحرك من مخنا مش بتفرَّق في لحظتها بين الحقيقي واللي مجرد خيال، فبنتأثر فعلًا بخوف أو حزن أو حتى فرح. كتير أوي مخنا بيلعب علينا ألاعيب، فنحس إن الأفكار اللي في دماغنا حقيقة ونحس على هذا الأساس، بس في الحقيقة ده مجرد وهم في مخنا إحنا بس، فهمتوا؟

جاوبوه بنفس النظرات الخاوية التي تدل على عدم الفهم، فهز رأسه في حنق، ونظر إلى ساعته التي نبهته لانتهاء المحاضرة منذ أكثر من عشر دقائق.

نظر إليهم بغيظ مكتوم ثم قال:

- خلاص كفاية كده، اتفضلوا، والأسبوع اللي جاي نكمل كلامنا عن موضوع التخيل وأهميته في طرق العلاج المختلفة.

بدأ الطلاب في الخروج من المدرج واحدًا تلو واحد، ولملم هو كتبه وأوراقه استعدادًا للخروج. ألقى نظرة على هاتفه المحمول الذي كان قد وضعه على الوضع الصامت ليجد أكثر من خمسين مكالمة لم يتم الرد عليها. تعجب وأصابه القليل من التوتر، فهو لم يكن من محبي التعامل مع الهواتف المحمولة، ولم يكن هاتفه من الطراز الذكي الحديث، ورقمه ليس بحوزة الكثيرين، فقط بعض الأصدقاء وأفراد العائلة. فمَن الذي يتصل به كل هذه المرات ومن رقم مجهول أيضًا؟!

انتظر حتى هدأت القاعة قليلًا، ثم أعاد الاتصال بالرقم المجهول.

«الرقم الذي تحاول الاتصال به غير موجود بالخدمة».

هز رأسه بنفاد صبر، وأعاد المحاولة ليستمع إلى الرسالة نفسها. استسلم بعدها وقال لنفسه إن من يريده في شيء مهم سيعاود الاتصال به حتمًا مرة أخرى.

خرج من القاعة بخطواته البطيئة فهو قد قارب السبعين، وإن كان لا يزال يأتي إلى الجامعة بنظام الدوام الجزئي، فلأنه لا يحب الجلوس في المنزل ويعشق مهنة التدريس، وكل بضع سنوات يظهر الطالب الذي يتحمس له عادل ويكون في مقام المرشد له، ودائمًا ما يتلمَّس عادل هؤلاء الطلاب من بين جموع طلابه، يتلمس من لديه الشغف بالمهنة، من يرغب في التطور بها ومساعدة الناس بشكل مختلف. لكنه في السنوات الأخيرة قلما وجد هذا النوع من الطلاب، فقد تحول الطب إلى نوع آخر من أنواع التجارة، فلم تعد غاية هؤلاء الشباب أن يُحدِثوا فرقًا في حياة البشر أو يضعوا بصمة في مجال الطب النفسي، وتحول الأمر إلى كيفية امتلاك أكبر قاعدة من العملاء والرصيد الأكبر في البنك.

تعالت أنفاسه وهو يستقل سيارته المتواضعة التي يلومه أولاده عليها دائمًا، إلا أنه يحبها، فقد شهدت معه سنوات كفاحه كطبيب صغير متحمس، قد فتح صدره معها لكل ما هو جديد ومختلف في علم النفس.

دقائق وكان خارج بوابة الجامعة ليبدأ معركة الوصول إلى منزله في الجانب الآخر من القاهرة. أدار أغنية لأم كلثوم، وقد تلمس في صوتها العذب الذي يحبه أن يُهدِّئ قليلًا من توتر الزحام من حوله. ما إن وصل إلى منتصف الطريق تقريبًا حتى رن هاتفه المحمول بصوت مرتفع جعله يجفل للحظات. ألقى نظرة سريعة على الرقم الذي ظهر على الشاشة أمامه فوجده الرقم السابق نفسه، نظر إلى مرآة السيارة ليرى إن كان خلفه أي سيارات مسرعة، ليتمكن من التوقف حتى يرد على هذا الاتصال، فلم يكن قَطُّ من أنصار الرد على الهاتف أثناء القيادة، ولم تكن سِنه أيضًا تسمح له بهذا الأمر: - ألو، مين معايا؟

- شششششش.

جاءه صوت ضوضاء غير مفهوم فكرر سؤاله:

- مين اللي بيتكلم؟ مش سامع يا ابني كويس!

- شششششش.

زفر في ضيق وأغلق الهاتف، وتناسى تلك المكالمة الغريبة، وأخذ يُقلِّب في الراديو فهذا موعد برنامج هيثم.

هيثم سالم تلميذه وابن صديق عمره سالم، له من الطباع والتصرفات التي ينفر منها عادل، إلا أنه يعلم أنه طبيب نفسي ماهر، ولطالما أعجبته الموضوعات التي يتحدث فيها في برنامجه عن النفس وتقلباتها.

«نعتذر اليوم عن عدم تقديم حلقة جديدة من برنامج «مع النفوس» الذي يقدمه الدكتور هيثم سالم نظرًا إلى ظرف طارئ حل به، وسنكتفي بإعادة إحدى الحلقات السابقة، ونعتذر لكم جميعًا مرة أخرى».

عقد عادل حاجبيه بقلق، فلم يكن الامتناع عن الظهور في أي برنامج من شيم هيثم قَطُّ، فما بالك ببرنامجه هو شخصيًّا الذي لم يتغيب عنه يومًا واحدًا منذ عدة سنوات! أكمل قيادة سيارته إلى المنزل وهو شارد الذهن، وقد عزم أن يتصل به بمجرد وصوله.

ظهر منزل عادل في الأفق فتنهد بارتياح، فلم يعد قادرًا على القيادة أكثر من ذلك، ربما عليه أن يتقبل فكرة وجود سائق خاص له كما يلح أبناؤه عليه. بدأ في تهدئة سرعة السيارة وهو يقترب من المنزل، وقد لفت نظره تجمُّع عدد من الأغراب حول مدخل منزله وبجوارهم سيارة شرطة. توجس وهو يتساءل ما الذي حدث! المنزل يبدو هادئًا بالفعل. أوقف سيارته في مكانها أمام الباب، وهرول فرج الحارس إليه ليفتح له.

- حمد الله على السلامة يا دكتور.

- الله يسلمك يا فرج. مين الناس دول؟ وإيه عربية الشرطة دي؟

- والله يا دكتور فيه ظابط واقف هنا من ييجي ربع ساعة مستني حضرتك.

اقترب عادل من سيارة الشرطة التي ترجل منها ضابط شاب تبدو عليه الصرامة والحزم.

- النقيب إبراهيم. حضرتك الدكتور عادل؟

- أيوه أنا. أقدر أساعدك إزاي؟

- معلش يا دكتور هنتعب حضرتك معانا، بس محتاجينك في موضوع مهم في القسم.

دخلت والدة كريم إلى غرفته وهي تمشي على أطراف أصابعها حتى لا توقظه. وضعت ثيابه النظيفة على أحد المقاعد، لكنه كان قد ألقى سابقًا ثيابه المتسخة عليه بلامبالاة. ابتسمت وهي تنظر إليه بحنان، والتقطت الثياب المتسخة، وخرجت من الغرفة بالطريقة نفسها التي دخلت بها.

كان مستيقظًا، لكنه لم يرغب في أن يشعرها بذلك، فقد أراد أن يلتقط هاتفه ويتصفحه بصمت حتى يشتت ذهنه عما به من أفكار، فما زال أمامه يوم طويل في عيادة هيثم، ثم في المستشفى بعد ذلك. ألقى نظرة على غرفته بضيق. كانت حوائط الغرفة متهالكة مثل باقي المنزل الذي يسكنه مع أبيه وأمه منذ أن كان صبيًّا، وقد ألح عليهما كثيرًا لينتقلا للعيش معه في فيلَّته الجديدة التي اشتراها من عمله في العيادة والمستشفى. كانت الفيلَّا في منطقة جديدة قريبة من عمله، إلا أنهما أصرا على البقاء في هذا البيت الذي يكرهه، فالحي كله لم يعد لائقًا بمستواه المادي والاجتماعي، حتى إنه لا يدخل الشارع بسيارته الحديثة، بل يركنها في أحد الشوارع المجاورة حتى لا تنالها أعين الجيران. وعلى الرغم من امتلاكه تلك الفيلَّا بعد الكثير من طول انتظار حتى ينتقل إليها مع أبويه، فإنهما رفضا ذلك، واضطر هو إلى عدم تركهما لأنه الابن الوحيد لهما.

ارتدى ثيابه على عجل، فهو لا يحب أن يتأخر عن موعده في العيادة أو المستشفى، وهو ملتزم مجتهد بطبعه كوالده، الذي على الرغم من كل الأحداث التي مر بها في حياته، فإنه كان دومًا يقتطع من عمره الوقت ليعلمه المبادئ والالتزام والاجتهاد.

خرج من غرفته ملقيًا التحية على أبيه وأمه، رافضًا أن يجلس إلى مائدة الإفطار التي أعدتها أمه معتذرًا إليها بأنه تأخر. طبع قُبلة حانية على وجنتها، واعدًا إياها بأن يحضر لتناول الغداء معهما اليوم بالتأكيد.

- كل يوم تقول كده يا سعادة الدكتور العظيم!

- قصدك إن أنا كداب يا ماما يا حبيبتي!

قالها وهو يبتسم مدركًا أنه لن يأتي على الغداء فعلًا، لأن لديه مواعيد عديدة، وسوف يقابل صديقًا له في النادي بعد دوامه في المستشفى.

- أبدًا يا حبيبي، بس أنا نفسي أشوفك بتاكل كويس.

- أوعدك. طيب هافطر معاكي بكرة إن شاء الله.

- ولا يهمك يا حبيبي. ربنا يكفيك شر العين.

سمع صوت أبيه وهو يفتح باب الشقة استعدادًا للخروج: - كريم...

التفت نحوه لتلتقي عيناه بعينَي أبيه الطيبتين: - نعم يا بابا. محتاج حاجة قبل ما أنزل؟

- ما تنساش تعمل اللي قلتلك عليه.

ضاقت عينا كريم وهو يحكم قبضته على مقبض الباب في غضب مكتوم، وأطال النظر إلى عينَي أبيه الذي ظل يحملق فيه ليتأكد من أن ابنه الوحيد سينصاع لأمره، أم تُراه سيقرر أن يحيا بطريقة مختلفة عن التي يرجوها له أبوه.

تدخلت أمه لتنقذه من الرد وهي تضع كوبًا من الشاي أمام والده: - سيبه يعمل اللي على كيفه، هو مش صغير.

أراد أبوه أن يتحدث إلا أن كريم ألقى عليهما التحية سريعًا مغلقًا الباب برفق. وضع رأسه على باب الشقة لثوانٍ، كأنه يريح عقله من ضغط والده عليه. شعر بغضب حقيقي من والده، يريده أن يتخلى عن فرصة كهذه؟ ولأجل ماذا؟ مثالية غريبة لم يعد لها مكان في هذه الدنيا. وصل إلى موضع سيارته الفارهة، استقلها وانطلق وهو يحاول تجاهل أفكاره ومشاعره المتضاربة. شرد في أحلامه التي يتمنى أن يكون قراره سبيل تحقيقها، لكن نظرات أبيه اللائمة تخترق أفكاره، فتجعله يزفر ويزيد من سرعة سيارته، لعله يشعر ببعض السيطرة على الحياة من حوله. حال زحام القاهرة الشهير بينه وبين السرعة الجنونية التي دائمًا ما يقود بها سيارته إذا أتيحت له الفرصة.

كان قد عَلِق في اختناق مروري بالفعل، فأخرج هاتفه لعله يلهي نفسه قليلًا. تعجب حين وجد عددًا كبيرًا من المكالمات التي لم يتم الرد عليها! أيقن أنه لم يُعدل وضعية الهاتف ويعيد إليه الصوت بعدما استيقظ صباحًا. تفقد المكالمات فوجد الكثير منها من الدكتور سالم فتحي، وبعضها من سيد الممرض الذي يعمل في العيادة.

تململ في أن يعاود الاتصال بسالم، فهو لم يقرر بعد ماذا سيفعل. ضغط على زر الاتصال بسيد الذي جاء صوته مبحوحًا: - أيوه يا سيد. كلمتني كذا مرة؟

- دكتور كريم، حضرتك فين؟

- أنا في الطريق للعيادة، فيه حاجة ولَّا إيه؟

- شهِّل شوية يا دكتور، الدنيا مقلوبة هنا.

- مقلوبة؟! ليه إيه اللي حصل؟

جاءه صوت سيد متحشرجًا كأنه على وشك البكاء.

- أصل الدكتور هيثم...

كان يستمع إلى صوت سيد، وقد شابته أصوات ضجيج غير معتادة أبدًا في العيادة.

قال كريم في نفاد صبر:

- ما تنطق يا سيد، إيه اللي حصل؟

- الدكتور هيثم تعيش إنت يا دكتور.

ضغط كريم على مكابح السيارة فجأة ليتفادى بصعوبة السيارة التي أمامه وهو يحاول أن يستوعب ما قاله سيد.

هيثم مات! متى؟! وكيف؟!

- إنت بتقول إيه يا سيد، بتخرف!

- لا والله يا دكتور، الدكتور هيثم اتقتل!

حسام وموقف السيارات

اليوم

فتح حسام عينيه بصعوبة شديدة، فجسده كان مرهقًا حقًّا. كان قد نام في الثالثة صباحًا، أي منذ ثلاث ساعات تقريبًا. تمنى لو كان باستطاعته أن يتجاهل كل شيء، ويغوص مرة أخرى في نوم عميق يهرب إليه من واقعه الشاق، لكنه يدرك عواقب تأخره أكثر من ذلك، فلن يستطيع اللحاق بموعد دوامه الصباحي في المقهى الذي يعمل به قبل أن يذهب إلى محاضراته في الجامعة.

حياته قصة قد تكون مكررة، الشاب المكافح الذي توفي والده فجأة، وكان عائل الأسرة الوحيد، وهو في السنة الثانية من كلية الهندسة، ولديه إخوة أصغر منه في مختلف المراحل الدراسية، ليضطر حسام إلى أن يعمل أثناء دراسته في أحد المقاهي المعروفة بمواعيد دوام مرنة، يستطيع التوفيق بينها وبين محاضراته، ويعطي بعض الدروس للطلاب في الرياضيات أثناء فصل الصيف. ما يستطيع الحصول عليه من العمل بجانب معاش والده القليل وما تكسبه أمه من تحضير بعض الوجبات الجاهزة للسيدات العاملات في المنطقة، بالكاد يغطي مصاريف دراسته هو وإخوته ومصاريف المنزل من طعام وشراب وغيره.

كان قد تقبل قدره برضا، فوالده كان حنونًا وغرس فيه من صغره تحمل المسؤولية. فقط كان يفتقده ويشتاق إلى جلساتهما المسائية معًا في المقهى، فقد كان أبوه يعامله دائمًا كصديق منذ أن كان طفلًا.

خرج حسام من البيت تتبعه دعوات أمه. ألقى نظرة إلى السماء فوجدها تنذر بأمطار قريبة، فابتسم إذ إنه من محبي الشتاء. غطى رأسه بمعطفه، وانطلق إلى عمله وهو يدندن أغاني عمرو دياب التي يعشقها.

وقف الميكروباص الذي يستقله حسام على بعد خطوات من المقهى. كانت الساعة تقترب من السابعة ونصف، فأسرع في خطواته ليجد وقتًا يبدل فيه ثيابه، فهو في حاجة إلى راتبه بالكامل من دون أي خصومات تأخير. شرد للحظات وهو يتأمل سيارة مرسيدس سوداء فارهة تتوسط موقف السيارات التابع للمقهى.

- صباح الخير، ثواني أغير وأستلم منك.

- صباح الفل يا حسام، شِد حيلك ربنا يكرمك، عشان محتاج أروح أنام شوية قبل ما أنزل تاني.

لم يتأخر، فبعد بضع ثوانٍ كان يصنع القهوة في مكانه المعتاد، وقد ألقى نظرة أخرى على باب المقهى الذي تقف أمامه بالضبط السيارة السوداء.

- واحد إسبريسو بلاك لو سمحت.

أخرجه من شروده الصف الطويل من الزبائن الذين بدأوا يصطفون أمامه، ليطلب كلٌّ منهم قهوته الصباحية. انهمك في تحضير الطلبات.

وفي العاشرة بالضبط رفع حسام رأسه عن القهوة التي كان يعدها وانتظر أن تفتح ياسمين الباب.

ياسمين عمران

فتحت عينيها من تحت الغطاء متململة ولم تصدر أي صوت. تتحاشى النظر إليه فهي لا تريده أن يشعر بأنها استيقظت، تريده أن يخرج إلى عمله ليتركها تتقلب في الفراش، ثم تجر قدميها إلى الحمام بهدوء لتغتسل مما تبقى على روحها من آثار الليلة السابقة.

لم يعد يطبع قُبلة على وجنتها قبل أن يخرج إلى العمل كما تعود، ولم تعد هي تهتم بتلك القبلة، فحتى إن وُجدت ستأتي باردة خاملة كحياتها معه الآن.

اختلست بعض النظرات إليه وهو يضع اللمسات الأخيرة على هندامه وينهي محادثته الهاتفية. ما زال جسده رياضيًّا ممشوقًا، حتى عيناه وملامحه كما هي لم تتغير، ما زال وسيمًا. تسللت ابتسامة إلى شفتيها وهي تتذكر لقاءهما الأول، وكيف انبهرت بوسامته وأناقته اللتين لم تتأثرا أيضًا حتى بعد مرور خمسة عشر عامًا وهما معًا. أما هي فقد بدأت خطوط التوتر والقلق ترتسم بوضوح على وجنتيها، فالملل الذي خيم على حياتها والضيق والركض وراء أحلام لا حصر لها جعلت العمر يظهر جليًّا على وجهها.

سمعت صوت صفقة الباب، فعلمت أن البيت صار لها وحدها. لقد أصبحت تتحاشى أن تلتقي به في الصباح حتى لا يسألها سؤاله المعتاد.

- ها، نمتِ كويس إمبارح؟

السؤال الذي يجعلها تتأكد أن الفجوة بينهما تتسع كل يوم، فهي لم تنَم جيدًا منذ ما يقرب من عام كامل. تحدق إلى السقف يوميًّا، وصوت أنفاسه المنتظمة يشعرها بالوحدة أكثر منه بالاطمئنان. لم تتوقف عن حبه يومًا، ولا تظن أنه توقف هو الآخر عن حبها، إلا أن انشغاله عنها بعمله وانغماسها هي الأخرى في حياتها جعلا الكلام بينهما يقل تدريجيًّا، واكتفيا ببعض إيماءات الوجه فقط لقول نعم أو لا، بل فُقدت الإيماءات مع مرور الوقت أيضًا. تأملت وجهها في المرآة وهي تداعب خصلات شعرها الأسود الناعم، لتلاحظ بعض الخطوط الرفيعة التي ظهرت مجددًا على جبهتها البيضاء. نعم لن تستطيع أن تُخفي أنها أصبحت في الخامسة والثلاثين بعد الآن.

وضعت عنها ثيابها، ووقفت تحت الماء الساخن تغتسل من أفكارها عن العمر الذي يمر كقطار سريع لا يعرف التوقف، أما هي فلم تجد محطتها بعد لأنها فقدت وجهتها الأولى.

إلى أين تريد أن تذهب؟ وإلى أين سيصل بها القطار؟ لم تعد تدري وتستطيع القول إنها لم تعد تبالي.

خرجت من الحمام، وقد تسارعت أفكارها عن علي، ودار في عقلها سؤال مُلح لماذا لم تسمع صوته منذ عدة أيام؟

كان قد أخبرها بأنه سيسافر في رحلة عمل إلى إحدى الدول الأوروبية، إلا أنها افتقدت صوته بشدة.

ألقت نظرة سريعة على صورة لها مع آسر في حفل زفافهما، حيث تبتسم بسعادة، وهو الآخر تبدو على ملامحه السعادة والبراءة. شعرت بغصة في حلقها وهي تهز رأسها رغبة منها في الهروب من شعورها الرهيب بالذنب الذي ينتابها كلما فكرت في علي أو ذهبت لرؤيته. كان زميل دراستها أيام الجامعة، وقد مرت سنوات من دون أن تراه، لكنه فجأة اقتحم حياتها. وجدت في عينيه لمعة انبهار كانت تفتقدها منذ سنوات في عينَي آسر.

لا تدري متى أو كيف تحول لقاؤهما العادي لتناول كوب من القهوة أو مشاركة الأفكار عن العمل إلى شيء آخر، شيء لا تدري ما هو ولا إلى أين سينتهي، فقد وجدت دفئًا غير عادي في لمسات يديه السريعة المقتضبة، ووجدت في السفر معه خلسة إثارة قد تاقت إليها في حياتها مع آسر. أخرجها صوت هاتفها من أفكارها.

- ألو، إيه فينك؟

- معلش أنا آسف كنت مشغول في اجتماعات الشغل، لسه مخلص حالًا، قوليلي إنتِ أخبارك إيه؟

- مفيش كان عندي أمل نتقابل قريب، إنت راجع من السفر إمتى؟

- أنا آسف يا حبيبتي، أنا راجع بعد يومين بالظبط، نتقابل الخميس الصبح قبل شغلك، إيه رأيك؟

سرت قشعريرة بسيطة في جسدها محملة بذنب قاتل لكلمة «حبيبتي» التي قالها بتلقائية. ابتلعت ريقها وهي تتذكر كلمة «حبيبتي» بصوت آسر الرخيم، وتذكرت أيضًا كيف أنه كف عن قولها منذ زمن هي وأشياء أخرى كثيرة.

- ياسمين، رُحتِ فين؟

- لا ولا حاجة، أنا فاضية الخميس لغاية الساعة واحدة كده.

- خلاص نتقابل في الكوفي شوب اللي على الصحراوي نفطر هناك.

- لأ، لأ بلاش هناك، أنا بدأت أحس إن حسام عارف اللي بينا.

- حسام؟! حسام مين ده؟

- الولد اللي شغال هناك يعرفني كويس ويعرف آسر برضو، بلاش هناك.

- خلاص تحبي نتقابل عندي، وأعملك أحلى فطار وأدلعك، قولي آه إنتِ بس.

عادت القشعريرة تسري في جسدها كتيار كهربائي خفيف، فهي تعلم أنها ما زالت تقف في هذه العلاقة على حرف الباب، ما زالت تتوهم أنها لا تفعل شيئًا خاطئًا وأنها ليست خائنة. هي فقط تتحدث مع صديق قديم تعرفه منذ أيام الدراسة، هي ما زالت تتوهم أن ما تختطفه من ساعات لطيفة أثناء تناول كوب من القهوة معه ليس خطأً جسيمًا بل ليس خطأً أصلًا، أما الذهاب إلى منزله لتناول الإفطار معه وحيدة فهي تعلم أن ذلك الموعد سيتخطى حد تناول الطعام. في الغالب ستستلقي عارية بين ذراعيه من دون جهد يُذكر منه، فهي تشتهيه في أحلامها وخواطرها، إلا أن ذلك الخاتم الذهبي في يدها اليسرى يُحجم تلك الرغبات.

- إيه رُحتِ فين تاني؟ أجهز الفطار ولَّا إيه؟

- لأ خلينا نتقابل في المعادي، فيه محل هناك بيعمل فطار هايل، هابعتلك اسمه بعد شوية.

- خلاص، زي ما تحبي.

قالها بخيبة أمل واضحة، فهو يعلم أن الأمر فقط مسألة وقت، وأنها ما زالت تحيا حالة من حالات الإنكار التام، تُخدر ضميرها بأن الخيانة جسدية فقط، وتؤكد لنفسها أنها ما زالت طاهرة إلى أن تمتد يداه نحو ثيابها. والحق أنه يرغب فيها بقوة، وينتظر بصبر حتى تأتي اللحظة التي ستطلب هي هذا الإفطار المنزلي الشهي الذي تشتهيه هي الأخرى. لكنه كان يعلم أن عليه الصبر، لأن استعجال الأمر لن ينتهي بها إلا وهي تركض في خوف إلى أحضان زوجها مرة أخرى.

- طيب ابعتلي بس لما ترجع طمني عليك، وأنا هابعتلك المكان، باي بقى دلوقتِ عشان يا دوب أنزل المكتب.

أغلقت الهاتف، وهي تزفر بقوة وقد اشتعلت في قلبها مشاعر مختلطة، ما بين رغبة في إلقاء جسدها المشتاق بين أحضانه، والشعور بالذنب نحو آسر. للحظات شعرت بالغضب من آسر، لماذا لم يحافظ عليها وعلى علاقتهما معًا؟ لماذا تركها وحيدة في حياة بها من المغريات ما يصعب عليها مواجهتها وهي ضعيفة بهذا الشكل المخزي؟

تأوهت بكثير من الضيق، ولملمت أوراقها وجهاز الحاسوب المحمول الخاص بها، لتغلق باب المنزل بعنف لعلها تجد في الهواء البارد بعض المتنفس الذي ينسيها المعضلة التي دخلتها منذ عام تقريبًا. مرت سنة كاملة على هذه

العلاقة التي لا تقوى على تصنيفها في عقلها. قررت الاستماع إلى الراديو لعلها تنشغل عن هذا الصراع الذي يتعب عقلها ويجهد روحها. كانت الساعة قد قاربت التاسعة والنصف، وهذا وقت إعادة برنامج «مع النفوس» الذي يُقدمه هيثم سالم.

«نعتذر اليوم عن عدم تقديم حلقة جديدة من برنامج «مع النفوس» الذي يقدمه الدكتور هيثم سالم نظرًا إلى ظرف طارئ حل به، وسنكتفي بإعادة إحدى الحلقات السابقة، ونعتذر لكم جميعًا مرة أخرى».

عقدت حاجبيها بتعجب وبعض التوتر، فلم يعتذر هيثم عن عدم تقديم البرنامج قَطُّ منذ أن بدأ إذاعته قبل عدة سنوات، إلا أن صوته الذي انطلق من الراديو قطع تسلسل أفكارها:

«ساعات بنلجأ لحيلة نفسية اسمها «الإنكار»، بننكر مشاعرنا وأفعالنا اللي مش عاجبانا، بننكرها جوه مخنا، كأننا بنخبيها عن نفسنا ومش بنستدعيها في وعينا، وبنتخيل إن بالطريقة دي كأنها فعلًا مش حقيقية».

أغلقت الراديو بضيق حقيقي وهي تعدل وضع سيارتها في موقف السيارات المواجه للمقهى. ترجلت من السيارة، تاركة الحاسوب المحمول وبعض متعلقاتها فيها، فالمكان آمن وبه كاميرات مراقبة أيضًا.

أسرعت الخطى إلى المقهى بعد أن ألقت نظرة سريعة على ساعتها التي أشارت إلى العاشرة تقريبًا، موعدها المعتاد، إلا أنها اليوم لديها أحد الاجتماعات الأسبوعية المهمة التي تود أن تلحق بها. توقفت للحظات وهي تتأمل شيئًا لامعًا على أرضية موقف السيارات الترابية، بدا كأنه إحدى الحلي الذهبية أو ربما مرآة. أرادت أن تنحني لالتقاطها، لكنها آثرت أن تكمل طريقها. دفعت بيدها باب المقهى الزجاجي لتلتقي عيناها بعينَي حسام، وتتسع ابتسامتاهما معًا في اللحظة نفسها.

جلس عادل متربصًا في مواجهة النقيب إبراهيم في القسم. لم يكن قد أخبره بعد عن الموضوع، وإن كان قد طمأنه أن أولاده وأحفاده جميعهم بخير، وأن الأمر متعلق بتحقيق عاجل في جريمة قتل، وأن رأيه مطلوب.

- تحب تشرب حاجة يا دكتور؟

- شاي، ويا ريت لو بلبن ومن غير سكر.

كان الدكتور عادل يُمنِّي نفسه بهذا الكوب منذ الصباح، وتمنى لو كان بجواره بعض البسكويت الطري الذي تعده سعاد. تفقد المكان من حوله، كان غرفة عادية لها طابع غرف التحقيق في أقسام الشرطة، بيضاء بإضاءة مناسبة، المكتب يتوسط الغرفة بالضبط، وقد تناثرت عليه بعض الأوراق في إهمال، ووُضعت في مقدمته لافتة مُذهبة عليها اسم «علاء الغرباوي». حاول عادل أن يتذكر إن كان من يجلس أمامه على المكتب قد عرَّف نفسه بعلاء أم لا، إلا أنه لم يشغل باله كثيرًا، فالأسماء كلها تسقط من عقله سريعًا حتى عندما كان أصغر سنًّا، أما الآن فهو لا يتكبد عناء معرفة الاسم أصلًا. لم تمضِ بضع دقائق حتى أتى أحد المجندين حاملًا صينية عليها كوب من الشاي، ووضعه أمام عادل كما أمر إبراهيم. ارتشف عادل بعض الرشفات في استمتاع قلق.

- يا ابني مش هتقولي إيه الموضوع، أنا محتاج أروح أريح شوية، أنا مش حِمل يوم طويل كده.

- حاضر يا دكتور ثواني بس، أنا بعت أجيب حاجة من المعمل الجنائي، وهتوصل على طول.

أكمل عادل الشاي وهو يتململ، فلم تسعفه أفكاره في تخيُّل الموضوع. بضع لحظات أخرى مرت، ودخل مجند آخر وبيده قصاصة ورقية مغلفة بالبلاستيك الشفاف وسلمها إلى إبراهيم الذي التفت إلى عادل وهو يعطيه إياها.

- معلش يا دكتور، محتاج حضرتك تبص كده على الورقة دي.

أخرج عادل عوينات القراءة من جيبه، وهو يلتقط الورقة في شيء من الحرص والتوجس. استطاع أن يرى بوضوح أنها مكتوبة بخط واضح ومنمق، لم يحتَج إلى كثير من الوقت ليدرك أن الخط خطه هو شخصيًّا، وأنها ليست ورقة عادية إنما هي صفحة منزوعة من أحد الكتب، وكذلك كانت هناك بقعة

حمراء في آخر الورقة.

«الدراسة بتقول إن الشعور بالانتقام بيفرز بعض المواد الكيميائية في المخ لحظيًّا، فبتسبب راحة وهدوء للمنتقم، بس يا ترى الراحة دي بتدوم؟ وإيه أثر الانتقام على المخ بعد فترة من الزمن؟ محتاجين نعرف الأثر على المدى الطويل».

اجتهد عادل ليتذكر هذه الكلمات التي يعلم بلا شك أنه هو من كتبها، إلا أنه لم يستطع ذلك. قلَّب الورقة المغلفة بين يديه عدة مرات عله يتذكر ما الكتاب الذي خط عليه هذه الكلمات، فهو عادةً لا يحب الكتابة بداخل الكتب أبدًا بل يكره ذلك. لكن الورقة كانت مقتطعة من كتاب ما، وما خطه عليها من كلمات غالبًا كان في الصفحات الأولى من هذا الكتاب التي عادةً ما تكون فارغة قبل مقدمة الكتاب.

- أنا عارف إن ده خطي، بس أنا مش قادر أفتكر الورقة دي والكلام ده أصلًا، وواضح كمان من شكل الورقة إنها قديمة، يمكن عدى عليها سنين، هو إيه الموضوع؟ يا ريت بقى أعرف؟

التقط النقيب إبراهيم الورقة من يده وهو يتفقد ملامحه ليتبين إن كان صادقًا أم لا، إلا أنه بدا صادقًا فعلًا لإبراهيم الذي يعلم من التحريات المبدئية أن الدكتور عادل حلمي رجل لا غبار عليه، سُمعته كونه طبيبًا نفسيًّا محترمًا ومجتهدًا تسبقه في كل الأوساط.

- مش قادر تفتكر خالص يا دكتور حضرتك كتبت الكلام ده إمتى؟ والكتاب ده كان عند حضرتك ولَّا عند حد تاني؟

- لا والله، فعلًا مش متذكر، السن برضو يا ابني عليه عامل، هي إيه الحكاية؟

ابتسم إبراهيم بتعاطف مع تعليقه عن السن، فهو يذكره بوالده الذي اقترب أيضًا من السبعين ولا يتذكر الكثير في هذه الأيام. أعاد جسده إلى الخلف وهو ينظر إلى وجه عادل، ويقول له بصوت أراد أن يكون به بعض الحزم:

- حضرتك تعرف الدكتور هيثم سالم؟ علاقتك بيه شكلها إيه؟

- آه طبعًا هيثم ده زي ابني، أبوه كان دفعتي وصديق عمري، وهيثم تلميذي، وكتير كنت باوجِّهه في حالات معينة بيشتغل عليها. بتسأل ليه؟ وإيه علاقة هيثم بالورقة دي؟

- الورقة دي لقيناها جنب جثة الدكتور هيثم بعد ما اتطعن خمسة وتلاتين طعنة في قلبه!

العيادة

أوقف كريم سيارته أسفل إحدى البنايات وهو ينظر إلى سيارات الشرطة والمعمل الجنائي التي يعج بها المكان، لم يكن قد استوعب الخبر بعد. صعد ليقف أمام باب العيادة المفتوح الذي يظهر منه رجال الشرطة وقد انتشروا في المكان، لمحه سيد فهرول إليه، وفي عينيه حزن ودموع حقيقية.

- دكتور كريم شُفت اللي جرى، شُفت حصل إيه لدكتور هيثم!

دلف كريم إلى العيادة التي تغيرت معالمها بعد ما فعله رجال الشرطة، وأوشك أن يتهاوى جالسًا على أحد الكراسي الموجودة في غرفة الاستقبال، إلا أن أحد الضباط منعه من ذلك، حتى لا يطمس أي أدلة قد توجد في العيادة.

- إيه اللي حصل يا سيد بالظبط؟

اقترب سيد من كريم، وتحدث إليه بصوت خفيض كأنه يهمس كيلا يسمعه أحد: - بيقولوا لقوه مرمي في عمارة مهجورة، وواحد، اللهم احفظنا، وقعه على الأرض وطعنه كذا طعنة في قلبه.

ابتلع كريم ريقه وهو يتخيل المنظر، وتذكر وجه هيثم المبتسم الواثق بنفسه دائمًا. شعر بقشعريرة باردة تمر عبر جسده وهو يتخيله وقد أصبح جثة هامدة لا روح فيها الآن. شحب وجهه وشعر بأنه على وشك السقوط، لكن يد أحد الضباط الذين انتشروا في المكان أسندته.

- المقدم علاء الغرباوي. استريح يا دكتور، دكتور كريم صح؟

جلس كريم على أقرب مقعد، وهو يتأمل علاء الذي أبدى بعض التعاطف معه، فقد فقدَ لتوه شخصًا عزيزًا عليه. كان علاء طويل القامة نسبيًّا، ملامحه مصرية عادية يتوسط جسده بطن ممتلئ يميز كل المصريين تقريبًا، رائحة السجائر كانت تفوح منه، فسعل كريم الذي شعر بضيق تنفس من الوضع كله.

- آه، أنا كريم.

- دكتور كريم، حضرتك بتشتغل مع الدكتور هيثم، الله يرحمه، في العيادة بقالك قد إيه؟

- أكتر من خمس سنين تقريبًا.

- فيه حد تاني بيشتغل معاكم في العيادة؟

- لأ مفيش غير عم سيد التمرجي.

- تعرف المرضى اللي هنا كلهم؟

- تقريبًا معظمهم.

- تفتكر ممكن حد منهم يكون قتله؟

قالها علاء وهو يتأمل وجه كريم الذي بدا عليه التفكير. كان كريم يشعر بغصة رهيبة في صدره، فقد كان يحب هيثم، ويعتبره أخًا أكبر له مهما اختلف معه في أمور كثيرة، إلا أنه لم يعتَد بعد على فكرة قتله. دارت كل أسماء المرضى في ذهنه من أقلهم أهمية إلى أكثرهم عنفًا، إلا أنه لم يجد دافعًا أو نية عند أحدهم قَطُّ. مرتادو العيادة من الطبقة العليا، ومعظمهم يأتي ليدخن سيجارة بعصبية وهو يتحدث عن ضغوط الحياة، التي تتمثل في صعوبة شراء شاليه جديد أو زوج خائن أو صديق لا يلبي الاحتياجات الجنسية. كان هيثم ينتقي مرضاه بعناية، وقليلًا ما كان يسمح لكريم بقبول مريض من فئة أخرى.

قتْل هيثم شيء غريب حقًّا، فلم يكن على الرغم من سقطاته الأخلاقية مكروهًا قَطُّ، بل كان معسول الكلام مبتسمًا دائمًا، له شخصية ذات حضور قوي تأسر الجميع.

- ما أعرفش حضرتك بصراحة، مش متخيل حد ممكن يعمل كده.

- قصدك كل الناس بتحبه؟!

- لا طبعًا، بس معظم المرضى هنا مش خطرين أصلًا، وأغلبهم ستات.

اعتلت الابتسامة وجه علاء، فقد قرأ تقرير المباحث عن مرضى هيثم، وكان أغلبهم من النساء بالفعل.

- طيب، ليه مش واحدة منهم بتنتقم مثلًا؟

- ما أعتقدش إن فيه ست تقدر تقتل هيثم، اللي فهمته إن حد طعنه في قلبه بعد ما وقعه على الأرض، مفيش ست بحجم طبيعي تقدر تعمل كده، هيثم كان عامل زي الحيطة.

هز علاء رأسه موافقًا، فهيثم كان يمتلك جسدًا رياضيًّا، طويل القامة، وقد رُسمت كل عضلاته بعناية في ساعات متصلة من الرياضة وحمل الأثقال، وبالفعل كان قد طُرح أرضًا قبل قتله، وقد ظهر ذلك من صدمة في رأسه أوضح الطب الشرعي أنها حدثت قبل موته. حتمًا احتاج ذلك إلى رجل أقوى من هيثم أو يضاهيه قوة.

- مش يمكن جوز واحدة فيهم؟

- لا أبدًا هيثم ملوش في المتجوزين، كان عنده مبدأ!

ياسمين وحسام

بعد القتل بيوم

- صباح الفل يا حسام إزيك؟ القهوة زي كل يوم بقى إنت عارف.

ابتسم حسام وألقى التحية على ياسمين. في العاشرة تمامًا تدخل ياسمين دائمًا توزع الابتسامات والسلامات على كل من يعمل في المقهى. والحقيقة أنه ينتظرها، كلمات قليلة يتبادلها معها إلا أنه يحب ذلك. كان يدرك تمامًا أنها ليست له ولو حتى في الأحلام، كانت تكبره بعدة سنوات ويزين إصبعها خاتم ذهبي يعلن أنها زوجة رجل آخر، لكن حسام كان يعلم أنها وحيدة وحزينة كذلك. دائمًا مَن يضحك كثيرًا يكون بداخله حزن عميق. كان يعلم لأن عينيها كانتا تقولان ذلك في كل مرة تتحدث فيها معه.

- صباحك فل يا باشمهندسة، فيه نوع قهوة جديد، تحبي تجربيه؟

- عيب عليك يا حسام، إنت تعرف عني إني باجدد في قهوتي؟! كله إلا القهوة.

ابتسم لابتسامتها. كانت تعمل مهندسة في إحدى الشركات الكبيرة المحيطة بالمقهى من كل جهة، وكثيرًا ما وجهت إليه النصائح عن الجامعة والدراسة، وقد تعاطفت مع قصته، وانتوت أن تساعده في العمل بعد أن يتخرج. وضع كوب القهوة الخاص بها أمامها بعد أن تفنن في جعله مضبوطًا شهيًّا. التقطته وهمت بأن تجلس تحت شمس الشتاء اللطيفة، إلا أنها كادت ترتطم بعلاء الذي دلف إلى المقهى في الثانية نفسها التي أرادت فيها أن تفتح الباب لتجلس في الشمس. اهتز كوب القهوة الساخن في يدها من إجفالها عدة ثوانٍ من دخوله المفاجئ، وكادت القهوة كلها تنسكب على الأرض.

- أنا آسف، واضح إني خضيتك.

- أبدًا ولا حاجة، عن إذنك.

مرت ياسمين جوار علاء لتختلي بكوب القهوة قبل أن يصبح باردًا، وقد سمعت علاء وهو يُقدم نفسه لحسام.

- أنا المقدم علاء الغرباوي، مباحث. إنت حسام؟

لا تدري ما الذي جعلها تشعر بفضول مختلط بالخوف والقلق، فآثرت أن تجلس بالداخل، علها تعرف ما الذي يريده ضابط في المباحث من حسام.

- أيوه أنا حسام، اؤمرني حضرتك.

- إنت بتشتغل هنا بقالك قد إيه يا حسام؟

- بقالي أكتر من سنة سعادتك.

كان حسام يرد على أسئلة علاء بتحفظ وببعض القلق. لم يكن حسام قد دلف إلى قسم شرطة في حياته أو تعامل مع أي ضباط إلا لاستخراج بعض الأوراق الضرورية. كان ممن يحبون الابتعاد عن المشكلات، ويتمنى أن يحيا حياة هادئة يرعى فيها أسرته وكفى.

أخرج علاء من جيبه محفظة سوداء قد غُلفت بكيس بلاستيكي مغلق بإحكام، وقرَّبها من وجه حسام حتى تكون واضحة أمام عينيه.

- شُفت المحفظة دي قبل كده؟ تعرف بتاعة مين؟

أدرك على الفور لمن هي، فالمحفظة الجلدية كانت مميزة بالفعل لا تخطئها العين، فهي قد صُنعت خصوصًا لصاحبها، وقد طُرزت أحرف اسمه الأولى عليها بوضوح. كان قد رآها عشرات المرات.

- آه يا فندم، بتاعة الدكتور هيثم سالم.

- إنت تعرفه؟

تعجب حسام للحظات من مغزى السؤال، فهيثم سالم طبيب نفسي معروف يظهر على التلفزيون في برامج عديدة، وله برنامج إذاعي شهير، مَن الذي لا يعرف هيثم سالم أصلًا؟!

- بييجي هنا سعادتك كل يوم يشرب قهوته، ويفطر قبل ما يروح عيادته.

- آخر مرة شُفته فيها كانت إمتى؟

صمت حسام وهو يتذكر، فهيثم يأتي كل يوم مثل ياسمين في موعد محدد لا يخلفه غير يوم الجمعة فقط. كل أيام الأسبوع يأتي هيثم إلى المقهى في الحادية عشرة، ينتقي طاولة منعزلة ويشرب قهوته في هدوء، وقد وضع سماعتين في أذنيه، معلنًا بذلك عدم استعداده لسماع أيٍّ كان الآن. كان حسام يقدر ذلك، فهيثم ينتظره يوم طويل من شكاوى مرضاه في العيادة، وكوب القهوة الصباحي الذي يستمتع به مع بعض الموسيقى كانا ما يؤهلانه لهذا اليوم الذي سيتحمل فيه من معاناة البشر الكثير.

- إمبارح الصبح سعادتك، زي ما بييجي كل يوم.

- فيه أي حاجة مختلفة حصلت إمبارح، حاجة غريبة عن كل يوم؟

كان هيثم متغطرسًا كعادته مع حسام، لكن كان يبدو عليه التعب والإرهاق

كأنه لم ينَم منذ فترة طويلة.

- مفيش حاجة معينة، بس كان شكله تعبان ومتوتر.

- فيه أي حاجة تانية كانت غريبة لفتت نظرك؟

صمت حسام وهو يحاول أن يتذكر، ثم قال بعد بضع ثوانٍ من التردد: - مش عارف سعادتك دي حاجة مهمة ولَّا لأ، بس إيده كانت متعورة.

- متعورة إزاي؟ قصدك مربوطة؟

- لأ سعادتك، لما جه يمسك كوباية القهوة كانت هتقع منه، فرُحت عشان أساعده، وعيني جت على إيده كان جرح عميق قوي، وشكله لسه جديد ومأثر على حركة إيده.

- إنت اللي عملتله القهوة مش كده؟

- أيوه سعادتك، أنا اللي باعمله القهوة كل يوم.

أدار علاء عينيه في المقهى لثوانٍ، والتقت عيناه بعينَي ياسمين التي أشاحت بنظرها سريعًا لتفادي نظراته المتفحصة. عاد علاء ينظر إلى حسام وهو يسأله سؤالًا أخيرًا: - مشي إمتى من الكوفي شوب إمبارح؟

حاول حسام أن يتذكر. في الوضع الطبيعي يخرج هيثم من المقهى في الثانية عشرة تمامًا، إلا أن حسام لا يتذكر أن هيثم ظل حتى الثانية عشرة، على الأغلب قد ترك المكان مبكرًا، فلم يرَه حسام يخرج من المقهى مع تأكده أنه لم يكن موجودًا بعد الثانية عشرة أيضًا.

- إيه؟ مش فاكر؟

- بصراحة سعادتك هو على طول بيمشي الساعة اتناشر، بس إمبارح أنا ما شفتوش بعد ما خد القهوة. بس سعادتك بس...

- بس إيه يا ابني ما تقول.

- عربيته سعادتك، مركونة قدام الكوفي شوب من إمبارح في نفس المكان.

نظر علاء نحو باب المقهى الزجاجي حيث ينظر حسام، واستطاع بلا جهد أن يرى سيارة مرسيدس فارهة سوداء تبدو كأنها جديدة تقف أمام الباب مباشرة.

- ما شفتوش وهو بيخرج إزاي؟ هو فيه باب تاني للكوفي شوب؟

هز حسام رأسه نافيًا وهو يبحث في ذاكرته عن لحظة خروج هيثم من المقهى، لكنه لم يجدها: - لأ حضرتك، مفيش باب تاني، وفعلًا مش فاكر هو خرج إمتى. أنا بس استغربت لما شُفت عربيته لسه موجودة.

- فيه حد معين بيكلمه من الناس اللي بتيجي هنا على طول؟

- فيه ناس كتير بتكلمه، هو حضرتك حد معروف.

- ما أنا فاهم، أنا أقصد حد فيه بينه وبينه علاقة أعمق شوية من الناس التانية؟

- بصراحة مش متأكد، بس ممكن الآنسة سهام.

- سهام مين؟

- أنا.

التفت علاء إلى صاحبة الصوت بتساؤل، فوجد امرأة صارخة الجمال. مدت يدها التي يزينها خاتم ذهبي مميز ورسمة مطبوعة على كفها، لم يتبين علاء شكلها بوضوح، وقالت وهي تزيح خصلات شعرها الأحمر الناري إلى الوراء: - سهام حسين. هو هيثم اتقتل بجد؟!

استلقى عادل على فراشه أخيرًا بعد يوم عصيب كان يبدو أنه لن ينتهي. كانت عيناه قد احمرتا قليلًا من شدة بكائه على هيثم، فقد كان يحبه حقًّا ويحب أباه، وطريقة موته مقتولًا كانت قد أزعجته أكثر من فكرة موته؛ خمس وثلاثون طعنة في قلبه!

أخبره النقيب إبراهيم بأنه قد مات من الطعنة الأولى التي نفذت إلى قلبه مباشرة، إلا أن القاتل ظل يغرس السكين في قلبه أربعًا وثلاثين طعنة إضافية! قُتل هيثم غِلًّا وانتقامًا، فهذا لم يكن قتلًا عاديًّا قَطُّ!

ارتشف قليلًا من الشاي باللبن الذي كان أقرب إلى اللبن بالشاي ليهدئ أعصابه، ويجعله أقرب إلى النوم، وإن ظن أنه لن يستطيع النوم في هذه الليلة بسهولة. اعتصر ذهنه في محاولة بائسة لأن يتذكر كلماته التي خطها عن الانتقام على صفحة الكتاب التي تركها القاتل وراءه، غير أنه لم يتمكن من التذكر. لم يكن هيثم شخصًا مؤذيًا، لم يكن حتى شخصًا عميقًا له اتجاهات وأفكار تجعل له أعداء، بل كان طبيبًا نفسيًّا ماهرًا له حضور قوي خاص، يجذب الناس إليه في العموم، والنساء على وجه الخصوص. هل قتلته امرأة خانها مثلًا؟ لم يكن هيثم رجل امرأة واحدة من الأساس، ولم يتزوج قَطُّ. كان واضحًا أنه ليس من هؤلاء الرجال الذين ينتمون إلى امرأة واحدة، وكان ذلك جليًّا في كل علاقاته، وأي فتاة رضيت بأن تكون جزءًا من حياته كانت تعلم عنه ذلك منذ اليوم الأول. ثم إن إبراهيم قد أخبره بأن هيثم قد طُرح أرضًا ثم طُعن، أي أن مَن قتله قد احتاج إلى قوة جسدية ليطرحه أرضًا، ويقيد حركته ثم يطعنه في قلبه، ولن تستطيع امرأة أن تفعل ذلك أبدًا.

تنهد عادل ووضع كوب الشاي بجواره بعد أن انتهى منه، وأغلق المصباح بجواره لعله ينعم ببعض النوم، إلا أن هاتفه المحمول بدأ في إصدار ضجيج ما. لم يكن عادل يميل إلى التكنولوجيا، فلم يفهم ما يحدث وما هذا الصوت، فقط تمنى لو يتوقف، فقام من فراشه ونادى بلال، وهو ابن السيدة التي كانت تخدم زوجته قبل أن يتوفاها الله، وقد قَدِم منذ بضعة أشهر ليكون أنيسًا له في وحدته، بعدما أصر أبناؤه على ذلك خوفًا عليه من إحساسه بالوحدة بعد وفاة أمهم. كان بلال في السابعة عشرة من عمره تقريبًا، وكان ماهرًا حقًّا في التكنولوجيا كمعظم أبناء هذا الجيل العجيب الذي يفضل الجلوس

منفردًا بجهاز على أن يتحرك ويخرج من المنزل. جاء بلال مسرعًا على صوت عادل.

- اؤمر يا دكتور.

- شوف يا ابني الصوت اللي بيعمله تلفوني ده إيه؟

أدرك بلال بلا جهد أن أحد التطبيقات في هاتف عادل يعلن عن وصول رسالة صوتية إليه، ففتحها له ورفع مستوى الصوت حتى يسمع عادل الرسالة.

«هو كان يستاهل. اللي زيه كان لازم يموت، إنت أكتر حد لازم تفهم».

كان الصوت الذي ينطق بتلك الكلمات يبدو آليًّا وليس بشريًّا، لكن على الرغم من ذلك فإن عادل شعر بألم مَن يتحدث، وأدرك على الفور، وقد اقشعر بدنه، أن مَن يرسل إليه هذه الرسالة هو قاتل هيثم نفسه.

إنجلترا

منذ أكثر من ثلاثين عامًا

دخل سالم الشقة بهدوء وخلع حذاءه حتى لا يوقظ الآخرين، فقد كانت الساعة تقترب من الرابعة فجرًا، وكان يعلم أن الجميع نائمون الآن. ما إن دلف إلى غرفته وأضاء الأنوار حتى سمع بعض الأصوات تأتي من الخارج، ففتح باب غرفته وأخرج رأسه ليتفقد الصوت فإذ به يراها. على الرغم من أن المكان لم تكن إضاءته جيدة حيث لا يوجد سوى مصباح واحد مضيء في الردهة، فإنه استطاع أن يرى جمالها الباهر، كانت بيضاء ذات شعر أحمر ناري وعينين خضراوين وشفتين ورديتين ممتلئتين، بدت مثل فينوس نفسها وضوء المصباح ينعكس على وجهها. لم تسعه الكلمات ليصف جمال جسدها الذي كان يبدو كأنه قد قُص من إحدى المجلات العالمية لعارضات الأزياء.

احتاج إلى بضع دقائق حتى يخرج الصوت من فمه، وهو يحاول أن يستجمع كلمات تخفي انبهاره بها: - «Hello. Who are you and what are doing here?».

ظلت تنظر إليه بصمت، ثم قالت وهي تمد يدها له لتصافحه:

- أنا نورهان. إنت أكيد سالم مش كده؟

كاد فكه يسقط كالقط في أفلام الكرتون، فهي تتحدث العربية وتعرف اسمه أيضًا، هذه الحسناء الباهرة تعرف اسمه.

- آه أنا سالم. اللي سلم لعينيكِ، نورهان مين بقى؟

ضحكت ضحكة خافتة وهي تنظر إلى عينيه اللتين ما زالتا تشعان بانبهار شديد: - هما حذروني منك. قالولي هتعاكس على طول.

- مين قالك إيه بس عني؟ أي حاجة عني سمعتيها صدقيني هي غلط، قوليلي بقى القمر اللي منور شقتنا ده مين؟

- أنا نورهان.

- أيوه ما أنا سمعت، نورهان مين؟ ومنين؟ استني أكيد ملكة الجن صح. إنتِ جنية جاية تخطفيني.

علت ضحكتها هذه المرة، وقد امتزجت بسخرية وهي تقول له:

- إنت قديم أوي وبتاع كليشيهات، أنا صديقة عادل من زمان، كنا مع بعض في المدرسة واتقابلنا صدفة النهارده في المركز اللي تبع الجامعة بتاعتكم، وقلتله إني محتاجة مكان أقعد فيه كام يوم عشان الدنيا ملخبطة عندي، فجابني هنا، اتغديت معاه هو وعبد الرحمن وهما دخلوا ناموا في الأوضة دي وعادل اداني أوضته.

- يعني القمر ده هيبقى الروم ميت بتاعنا، يا حالولي يا حالولي.

- وبعدين معاك يا دكتور، من أولها كده، داخل دخلة مصري!

- خلاص أدخل دخلة إنجليزي، «You are magnificent».

- وإنت بكاش. عمومًا أنا داخلة أنام، أنا بس كنت باشرب شوية ميه.

- تصبحي على ألف خير يا قمورة.

تابعها بنظره وهو يعض على شفته، فقد كان يهوى النساء بشدة، وعلى الرغم من أنه أتى إلى إنجلترا مع صديقَي عمره لتحضير رسالة الدكتوراه والحصول على الزمالة، فإنه كان يقضي لياليه في السهر مع الحسناوات. كان أيضًا وسيمًا للغاية، يعتني بجسده ويختار ما يرتدي بعناية فائقة، إلا أنها بهذه الدقائق القليلة التي تحدثت معه فيها جعلته يقضي ما بقي من الليل ساهرًا، يفكر فيها. كان يحب عيش المغامرات، غير أن ما أصابه من كلامه معها كان يبدو مختلفًا، جديدًا عليه. لم يكن ساذجًا ليظن أنه عشق منذ النظرة الأولى، لكنه بلا شك شعر بانجذاب نحوها لم يشعر به من قبل.

دخل عبد الرحمن ومن خلفه عادل إلى غرفة سالم الذي غفا حتى دخل النور إلى غرفته، وحاولا إيقاظه حتى لا يتأخروا على إحدى المحاضرات المهمة التي يتعين عليهم جميعًا حضورها.

- يا سي سالم أفندي، قوم بقى ربنا يهديك، هتضيع علينا المحاضرة.

- سيبوني أنام شوية، مش قادر، أنا نايم الفجر.

- ما هو من صرمحتك طول الليل، يلَّا قوم، نورهان عملتلنا فطار، اصحى عشان نلحق ناكل قبل ما ننزل.

ما إن سمع اسمها حتى استيقظت حواسه، وقد داعبت ذكرى وجهها الجميل مخيلته يصاحبها صوت ضحكتها ولون شعرها الأحمر الناري، وظن لوهلة أنه كان يحلم، وأن تلك النورهان لم تكن حقيقة، فاعتدل جالسًا في الفراش لثوانٍ، ثم انطلق إلى الحمام حتى يبدأ في تجهيز نفسه، لكن ليس للمحاضرة إنما لرؤيتها. جلسوا جميعًا حول طاولة الطعام التي أعدتها ببراعة غير متناسبة مع ملامحها الأوروبية التي لا توحي بأنها تعرف شيئًا عن الطعام وفنونه. عرف الكثير عنها أثناء تناول الطعام، بداية من أصولها التي تنتمي إلى إحدى قرى المنصورة مما يفسر ملامحها، غير أنها لم تنشأ في المنصورة بل في القاهرة مع والدتها التي انفصلت عن أبيها قبل أن تتمكن من رؤيته. ذهبت إلى مدرسة عادل نفسها، وكانت صديقة مقربة إليه، حتى قررت والدتها أن تهاجر من مصر إلى إنجلترا منذ عشر سنوات تقريبًا. درست أشياء مختلفة في هذا البلد الجديد لكنها لم تُنهِ الدراسة الجامعية بعد، وتعمل في بعض الأعمال المؤقتة. لم تفسر لماذا ليس لها مكان آخر تمكث فيه سوى مشاركة ثلاثة شباب مسكنهم. نقَّل عادل بصره بين سالم ونورهان عدة مرات في

قلق، فكان يعرف صديقه جيدًا، والأدهى أنه يعرف صديقته جيدًا أيضًا، شعر ببعض التوجس ربما أخطأ حين جاء بها إلى هنا. انتهوا من تناول الإفطار أخيرًا، ورحل الأطباء الثلاثة تاركين نورهان وحيدة في الشقة. لمس عادل كتف سالم وقال له بجدية وهم يهبطون الدرج: - ابعد عن البنت دي يا سالم، البنت مش ناقصاك، ولا إنت هتستحملها، صدقني.

- هي إيه حكايتها أصلًا؟ هي هربانة من أهلها ولَّا إيه بالظبط؟

- يا سالم، بس اسمع كلامي أرجوك، أنا مش هاقدر أخليها تمشي دلوقتِ، بس باترجاك تاني ملكش دعوة بيها.

- خلاص يا عم، مالك بس كبرت الموضوع، مش هاقربلها ما تخافش.

نظر عادل إلى عينَي سالم الذي أشاح بنظره في لحظتها، وأسرع الخطى ليلحق بعبد الرحمن الذي سبقهما بالفعل. كان عادل متأكدًا أن سالم لن يستمع إليه وسيتجاهله، فقرر أن يجتهد في إيجاد مسكن آخر لها في أقرب فرصة.

من وراء زجاج النافذة وقفت هي تتابعهم بنظراتها. ابتسمت ابتسامة ساخرة وهي تتخيل عادل يحذر سالم منها. الكل يَحذَرها ويخشى الاقتراب منها. اتسعت ابتسامتها أكثر وقد التفت سالم نحو الشقة فجأة ونظر إلى النافذة التي تقف هي خلف زجاجها، وتلاقت أعينهما لثوانٍ وقد عرف كلاهما أن تحذير عادل قد ذهب أدراج الرياح، وأن سطورًا جديدة من قصة مختلفة ستُكتب في هذه الشقة.

بيت عادل

اليوم

ظهر علاء وإبراهيم في منزل عادل. استقبلهما الأخير في الصالون بكوبين من الشاي وبعض المقرمشات التي وضعها بلال أمامهما ولم يمسها أحد وقد انشغلا بما يقوله عادل.

- دكتور عادل، إنت مش قادر تتعرف على الصوت ده؟

- لأ بصراحة، واضح أصلًا إن الصوت مش طبيعي وملعوب فيه.

- أيوه ده حقيقي، بس مفيش أي حاجة قدرت تستنتجها من الرسالة دي؟ واضح إن حضرتك طرف مهم جدًّا في القضية، الورقة اللي بخط حضرتك ودلوقتِ الرسالة دي.

كلمات علاء، التي بلا شك، منطقية جدًّا، لكنه لا يستطيع أن يفكر في أي ارتباط بينه وبين مقتل هيثم. الورقة والرسالة كلها أشياء غامضة بالنسبة إليه أيضًا.

- مش عارف بصراحة. أنا مستغرب برضو.

- مش يمكن يكون مريض من العيادة مشترك ما بينكم، مش حضرتك قلتلي في القسم إن حضرتك ساعات بتساعده في بعض الحالات اللي بتجيله؟

قالها النقيب إبراهيم وهو يتفحص وجه عادل الذي بدا عليه التفكير. لم يكن عادل قد اشترك في علاج مريض ما مع هيثم، بل كان هيثم يأتي إلى عادل في بعض الأيام لاحتساء كوب من القهوة، وطلب المشورة منه في بعض الحالات الخاصة التي يستعصي عليه علاجها.

- نور!

قالها عادل فجأة كأنه وجد كنزًا، وانطلق إلى غرفة مكتبه التي تواجه الصالون، والتقط ملفًّا من الملفات الموضوعة بعناية على المكتب، ثم عاد مرة أخرى إليهما وقد مد يده لعلاء بالملف الذي التقطه. نظر علاء إلى ما كُتب على الملف.

«نور عبد العظيم».

- مين نور ده؟!

- نور دي!

جاب علاء بسيارته شوارع القاهرة متجهًا إلى بيته، وهو يعلم أن معركة أخرى تنتظره في المنزل، فقد أخلف موعده مع زوجته نهال، وبالطبع ليست المرة الأولى. أشعل سيجارته وهو يفتح نافذة سيارته، ليسمح للهواء النقي بدخولها. تنهد وهو يلقي نظرة سريعة بطرف عينه على مرآة السيارة، لقد بات جليًّا أنه يقترب من الأربعين. تنهد مرة أخرى وهو يتذكر نهال. الحق أنه يحبها لكنه ذلك الحب الذي يأتي مع سنوات العشرة، لم يشعر قَطُّ معها باشتعال نيران الحب، لكنه لم يفكر مرة في خيانتها، يحبها كما يحب أشياءه المفضلة، مثل مقعده الهزاز في البيت وسيارته التي انتقاها بعناية، يحبها لأنه تعود عليها فأصبحت منطقة آمنة بالنسبة إليه، «comfort zone» كما يقول خبراء التنمية البشرية التي يكرهها، ولا يحب سماع مدربيها بل يمقتهم، لكن هي تحب أن تستمع إليهم وإلى الأطباء النفسيين بشكل عام.

أشعل سيجارة ثانية وهو يلعن حظه الذي جعله يسكن في إحدى المدن الجديدة التي تبعد عن القسم الذي يعمل به أكثر من ساعة كاملة. كان على وشك أن ينتقل إلى قسم قريب من منزله، إلا أن هذه القضية لن تُتيح له هذا بشكل سريع.

كان قد انتهى من السيجارة الثالثة وهو يضع سيارته في المكان المخصص لها في جراج المنزل. تمنى أن تكون نهال ويحيى ابنهما الوحيد قد ناما، فكل ما يطمح إليه الآن حمام ساخن وسريره الدافئ.

- شرفت؟!

- فيه إيه يا نهال؟ هو كل يوم كده.

- إنت مش عارف إن النهارده كان عيد ميلاد كوكي؟ المفروض كنت تقابلنا هناك.

- يعني أسيب شغلي واللي ورايا وأروح عيد ميلاد المحروس ابن أختك؟

- قصدك إيه يا علاء؟ يعني أهلي مش مهمين بالنسبة لك؟!

زفر علاء بضيق شديد وهو يميل برأسه، يعلم أن الأمر سيكون إزعاجًا لا طائل منه، وأنه إذا أراد أن يمضي بقية اليوم في هدوء فعليه أن يتراجع ويراضيها وينهي هذا الهراء سريعًا.

بنبرة لينة وهادئة دنا بالقرب منها واضعًا يده على كتفها برفق، تطلَّب منه مجهودًا خرافيًّا، وقال لها بصوت حاول أن يجعله لطيفًا إلى أقصى حد: - معلش يا حبيبتي. أنا كنت ناوي آجي فعلًا بس جالي بلاغ بجريمة قتل ضربلي

اليوم كله، أنا آسف. أنا بكرة هاكلم منى وأعتذرلها بنفسي، وممكن كمان يا ستي نروح نزورها آخر الأسبوع لو تحبي.

هزت رأسها بالموافقة، وكانت قد هدأت قليلًا بعدما كانت تنوي أن تجعل حياته جحيمًا، وآثرت الصمت بعدما نظرت إلى وجهه وقد ظهرت علامات الإرهاق جلية عليه: - تحب تتعشى؟

- لا أنا أكلت. بس لو كوباية شاي من إيديكِ الحلوين يبقى فل أوي.

- هتقعد في الليفينج أجيبهولك قدام التلفزيون؟

- لا أنا هادخل الأوضة، وأشرب الشاي وأناااام على طول.

اعتلى الإحباط ملامح وجهها، إلا أنها لم تتحدث وذهبت إلى المطبخ لتحضر الشاي.

دلف إلى غرفة ابنه الوحيد يحيى، وألقى نظرة حانية عليه وهو يغط في نوم عميق، قبل أن يدخل إلى غرفة نومه، ويرتدي منامته ويلقي بجسده المنهك على الفراش.

ظل عقله مشغولًا بالقضية. لم يكن لديه أي خيوط إلا ملف نور الذي أعطاه إياه الدكتور عادل، والعبارات السريعة التي قالها له عن كونها كانت تكره هيثم، وتتخيل بعض الأشياء عنه. كان الدكتور عادل مرهقًا بعد يوم طويل، وراعى علاء كبر سنه، فآثر أن يقرأ الملف ثم يعود إليه لاحقًا إذا احتاج أن يفهم أكثر. اقتحمت سهام ذهنه فجأة، شعرها الأحمر الناري، أظفارها التي طُليت بعناية بالأحمر القاتم.

أخبره حدسه بأنها لم تكن تعرف هيثم معرفة سطحية قَطُّ، وحسام أيضًا الذي يعمل في المقهى يبدو أنه يعرف أكثر مما قال. تسارعت الأفكار في عقله، لكن الإرهاق جعل عينيه تغمضان سريعًا قبل أن يحتسي كوب الشاي الذي كان يتمناه.

أتت نهال بكوب الشاي لتجد علاء يغط في نوم عميق. وضعت الكوب بجوارها على المنضدة، ثم ألقت نظرة سريعة على وجهها وثيابها في المرآة ببعض الحسرة.

تنهدت لصوت أنفاسه المنتظمة، ثم رأت بطرف عينها صورة طفلهما الوحيد يحيى تتصدر المنضدة، فابتسمت للصورة وأغلقت النور وهي تقنع نفسها بأنها تعيش حياة مثالية رغم كل شيء.

استيقظ علاء في الثامنة صباحًا بصعوبة.

أشعل سيجارة وهو يلقي نظرة سريعة على النافذة المغلقة. اللعنة على الزواج الذي يجعله يخشى أن يُدخن سيجارة في غرفته.

- الفطار يا نهال، محتاج أنزل بسرعة.

- حاضر حاضر. متسريع على إيه بس.

أعدت سريعًا له الإفطار، ثم جلست في مواجهته وقد احتضنت كوب القهوة: - هو إيه صحيح موضوع قضية إمبارح دي؟ عندك أي خيوط تبدأ منها؟

- لا أبدًا، لسه باخبط في الضلمة.

- ما يمكن حد سرقه وخلاص.

- لا، كل حاجته كانت معاه الفلوس والساعة والـ...

صمت فجأة، وقد تنبَّه عقله إلى أن هيثم لم يكن معه هاتفه!

- مالك يا علاء؟ فيه حاجة؟

- لا أبدًا كملي فطارك، أنا لازم أنزل بسرعة.

سهام وتوني

قبل القتل بعدة أشهر

أغلقت الراديو ووضعت معطفًا من الفراء على كتفيها قبل أن تعتدل وتترك السيارة في مكانها المعتاد أمام المنزل. مرت من الممر الضيق الذي يؤدي إلى الدرج ورائحة الياسمين والفل تعبق المكان. ابتسمت وهي تتذكر جدها الذي كان دائمًا ما يعتني بالحديقة، ويصر على زراعة الفل والياسمين في المدخل. كانت تدفع مبلغًا لا بأس به للبستاني، حتى يظل الوضع كما كان في حديقة بيت جدها الذي تربت فيه منذ أن مات أبواها في حادث وهي في السادسة عشرة من عمرها. كانت تعشق جدها رحمه الله، وتتمنى لو عاد بها الزمن حتى تختبئ في حضنه من عناء الحياة التي لم ترحمها منذ أن مات وتركها وحيدة تمامًا في هذه الدنيا.

وضعت المفتاح في الباب وهي تدندن لحن إحدى الأغاني التي تدور في ذهنها منذ أن كانت في أحضان هيثم منذ قليل. هيثم سالم طبيبها الهُمام. ابتسمت ابتسامة ساخرة، كانت تعلم منذ أن دلفت إلى عيادته أول مرة أنه لن يكون طبيبًا لها فقط. عبثت بزر الإنارة الذي أبى أن يفتح، وقد تناهى إلى أذنيها صوت حركة من ناحية المطبخ. سرت قشعريرة خفيفة في جسدها، وما زالت تحاول أن تشعل الإضاءة، فهي تسكن وحيدة في منزل بلا حارس، ومن السهل التسلق إليه من كل المداخل. لامت نفسها على أنها لم تستمع إلى نصيحة توني حين أخبرها بضرورة وضع جهاز إنذار للأمان، لكن نور المطبخ قد أضاء فجأة.

- خضتني. بتعمل إيه في الضلمة كده يا توني؟

- مستنيكِ. كنتِ مع الزفت ده برضو؟!

رفعت عينيها لتنظر إليه. كان قد استند إلى قطعة الرخام الموجودة في المطبخ وأمامه كوب من العصير، يرتدي قميصًا بلون السماء يعكس لون عينيه الزرقاوين، وخصلات من شعره الأسود انسدلت على عينيه وبقية شعره الطويل كان قد جمعه على هيئة ذيل حصان، التصفيفة المعتادة للفتيات عادةً، لكنها كانت متسقة مع لحيته السوداء التي تخللتها بعض الشعيرات البيضاء. كان يبدو وسيمًا وزاد من وسامته جسده الرياضي الممشوق الذي حصل عليه بعد قضاء عدة ساعات في القاعات الرياضية أسبوعيًّا، وهذه نقطته

المشتركة مع هيثم، فكلاهما مهووس بالحصول على جسد رياضي ممشوق بارز العضلات.

- مش فاهمة، إشمعنى هيثم اللي بتتعصب أوي من سيرته كده؟!

زفر في ضيق وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة. اقتربت منه سهام واحتضنته من الخلف، فاستدار وطبع قبلة حانية على وجنتها وهو يحتضن باقي جسدها بلوعة المشتاق وخوف الأب على ابنته:

- أنا بس خايف عليكِ. طولتِ أوي في موضوع هيثم ده، وبصراحة مش مرتاح خالص.

- زيه زي اللي قبله. فرقت إيه؟

- لا يا سهام. عمرك ما طولتِ في علاقة كده.

ذهبت إلى غرفتها وتركت الباب نصف مغلق وهي تضع عنها ثيابها، ولم تبالِ بوجود توني في الخارج، على الرغم من أنها تعلم أنه قد يراها من حيث يقف. كانت قد اعتادت أن يكون إلى جوارها يقضي لديها الليل ويسافر معها، إلا أنه لم يقترب منها قَطُّ، يضع قبلة حانية دائمًا على وجنتها أو يحتضنها بحنان أبوي، تشعر معه بأمان لم تشعر به مع أحد. ارتدت ثياب نوم طفولية طويلة، ومسحت مساحيق التجميل الثقيلة التي كانت تضعها، ثم خرجت من الغرفة وقد رفعت شعرها إلى أعلى. نظر إليها وابتسم ابتسامة خفيفة؛ كانت تبدو كطفلة بلا مساحيق تجميلية وبثياب النوم التي ترتديها. هكذا دائمًا يراها فتاة في السادسة عشرة من عمرها كما رآها أول مرة في الجامعة، هو الوحيد الذي يرى روحها الحقيقية، طفلة فقدت أهلها وحيدة في الدنيا بلا سند. لا يرى سهام القوية الجريئة التي أصبحت ما هي عليه الآن تلعب بقلوب الرجال، إنما يرى سهام الصغيرة التي تتخبط في ردهات الجامعة تسأله في كل شيء.

التقت به في أول عام دراسي في الجامعة. كان يكبرها بعدة سنوات، وكان قد تخصص في هندسة الاتصالات، ويُحضر دراسات عليا في التسويق بجانب عمله في الهندسة. لا أهل له هو الآخر، ويسكن وحيدًا بجوار بيتها. كانت تسكن وتهدأ معه فقط، وضعت فيه ثقة لم تضعها في غيره، وقد أحبها حبًّا لا تصفه الكلمات، فعلى الرغم من أن كليهما يرقد في الليل في أحضان أشخاص آخرين، فإنه لا يطمئن إلا في بيتها، وهي تتخلى عن قناعها فقط أمامه بعد جولاتها في علاقات لا طائل منها، لتقف عارية بلا تجميل أو زيادات أو ادعاء للقوة الزائفة.

- ما تشغلش بالك بيَّ يا توني. زيه زي اللي قبله. تعالَ اقعد معايا في الأوضة، خلاص عايزة أنام.

دلف إلى غرفتها التي يحفظ كل جزء فيها وهو ينقِّل بصره بين فستانها العاري الذي وضعته على الأرض بلامبالاة وبين ثياب النوم الطويلة التي ترتديها الآن وتغطي معظم جسدها. جلس على طرف الفراش وأخذ يتحدث معها عن يومه وعلاقته بالفتاة الجديدة التي تعرَّف عليها في إحدى السهرات. ظل يتحدث ويتحدث حتى انتظمت أنفاس سهام وغطت في نوم عميق. تنهد توني واعتدل ليطبع قبلة خفيفة على وجنتها ثم خرج إلى الشرفة، وأشعل سيجارة وهو يتأمل الحديقة المنمقة لمنزل سهام.

كان قد تخطى الأربعين، وأصبح مديرًا كبيرًا في إحدى الشركات العالمية، جسده الرياضي وملامحه الأوروبية جعلا منه فتى أحلام الكثيرات وهو يتنقل بينهن كما يتنقل بين قطع ثيابه باهظة الثمن. لم يشعر بالحب إلا نحوها، على الرغم من ذلك فلم يقترب منها وما زال يراها فتاة عذراء صغيرة بائسة لا يقبل أن يخسرها، فهي صديقته ولا يريد المغامرة بخسارة الأمان والضحك والحنان، فهو لم يرَ في مثل نقائها، وكان يعلم أن ما تفعله وتعدد علاقاتها مع الرجال لم يكونا سوى قناع، تحتمي خلفه حتى لا يجرحها أحد. تنتقل بينهم بسرعة البرق حتى لا يمتلك أحد قلبها، لكنه يخشى عليها من هيثم، يراها وقد أطالت البقاء وتجدد اللقاء وتقبل بالسفر الطويل معه، وهذا الهيثم ليس سوى شيطان ينوي هجرها سريعًا. لم يخطر بباله أن هيثم سيهجر الدنيا كلها قريبًا جدًّا.

نور الطيب

قبل القتل بعدة أشهر

ظهر هيثم.

- دكتور هيثم. من الأسئلة اللي بتجيلنا دايمًا من المشاهدين، إزاي الواحد يتغلب على الصدمات القديمة في حياته؟

اعتدل هيثم وهو يستعد للرد على المذيعة الشابة التي تجلس أمامه، كان قد اعتاد الظهور في برامج التلفزيون الشهيرة، وبرنامجه الإذاعي كان له شهرة واسعة جدًّا. ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه البيضاء التي جعلته يزداد وسامة.

- بصي بقى، فيه طرق كتير بنعلِّمها للناس عشان تعدي الصدمات القديمة، بس أنا باحب دايمًا أعلم الناس يعيدوا تركيب المشهد، ويشوفوا إزاي ممكن يتصرفوا بطريقة مختلفة، ويفهموا مشاعرهم أكتر.

- بس مش ساعات يا دكتور الناس مش بتكون عارفة تعيد المشاهد دي كويس؟ يا ترى ده بيكون إيه تفسيره؟

- ساعات الصدمات بتكون صعبة علينا ومش بنعرف نتحملها، فالمخ بيعمل حاجة اسمها قمع للذكريات، يعني كنوع من أنواع الحيل الدفاعية، يعني المخ بيدافع عن نفسه بإنه ينسى الذكريات المؤلمة دي ويدفنها في مكان، ويبقى صعب يستدعيها تاني بسهولة.

نظرت المذيعة بجدية إلى هيثم وهي تسأله باهتمام: - طيب، والناس دي تعمل إيه؟

ازدادت ابتسامة هيثم اتساعًا وقال:

- ولا حاجة يا ستي، يجولي العيادة.

أغلقت نور التلفزيون الذي احتلته صورة هيثم. تنهدت وهي تفكر فيما قاله عن الصدمات والذكريات المؤلمة، انحنت لتحكم رباط حذائها الرياضي، وما زالت كلمات هيثم تدور بين ثنايا عقلها المشغول باستعدادها للخروج. اقتربت من الباب فرأت انعكاسها في المرآة القابعة بجواره، كان شعرها الكستنائي معقوصًا للخلف، وترتدي ثيابًا طويلة واسعة، كانت ذات جمال هادئ وعينين عسليتين تتناسقان مع لون شعرها. تجاهلت بعض الخصلات التي تناثرت في غير موضعها وانطلقت لتحتسي قهوتها.

وضعت سماعتَي الأذن واختارت أغنية من أغانيها المفضلة، وتحركت بخطى ثابتة نحو المقهى الشهير الذي يقبع على بُعد خمس عشرة دقيقة من بيتها. كانت تمر على بناية مهجورة في طريقها، وكانت تتعجب لماذا يمر الوقت ولا تكتمل؟!

١٦٥٧٨٩٠٠٠

واحد ستة خمسة...

اقتحمت الأرقام عقلها اقتحامًا، وبدأت ضربات قلبها تعلو واحتشدت قطرات العرق على جبينها، وقد بدأت تشعر بدوار خفيف، واحد... ستة... خمسة...

ظلت الأرقام تتردد في عقلها، فاضطرت إلى أن تتوقف على جانب الطريق لتلتقط أنفاسها، كانت قد اقتربت من المقهى لكن قدميها لم تحملاها على المضي قُدمًا أكثر من ذلك.

- إنتِ كويسة؟

كانت قد استندت إلى حائط إحدى البنايات في الطريق، وقد تقوَّس جسدها من شدة قسوة ضربات قلبها التي ما زالت تزداد مع تردد الأرقام في ذهنها. رفعت عينيها إلى أعلى لترى من الذي يوجه إليها الكلام.

- دكتور هيثم؟!

- أيوه، أنا. إنتِ كويسة؟ شكلك تعبان. محتاجة مساعدة؟

تعجبت أن ترى هيثم بالذات في هذه اللحظة. كانت تراه في المقهى في بعض الأحيان، لكنها لم تتحدث معه قَطُّ.

- دايخة بس شوية. ضربات قلبي مش منتظمة.

- طيب تحبي أوصلك للمستشفى؟ أنا عربيتي راكنة قريب.

- الموضوع مش محتاج، هي ثواني وهابقى كويسة. دي حاجة بتحصلي كتير.

اعتدل هيثم وما زالت يده على كتفها لتسندها وهو ينظر إلى عينيها بجدية: - آنسة؟

- نور.

- أعتقد إن دي «panic attack»، أرجوكِ ما تهمليش الموضوع، وروحي لحد يساعدك.

أمعنت النظر في عينيه وقد بدا صادقًا في نصيحته التي تعلم يقينًا أنها في محلها، هي تحتاج إلى مساعدة، فهذا الأمر يتكرر بشدة خصوصًا هذه الأيام الأخيرة. كان يتكرر على فترات متباعدة فتنصرف بفكرها عنه كأنه غير مهم، لكن في الأشهر الأخيرة بدأت تشعر بتزايد الأمر، حتى أصبح يداهمها بشكل شبه يومي، وفي بعض الأحيان عدة مرات في اليوم الواحد.

- إنت مش دكتور نفساني؟

اختلس هيثم نظرة إلى جسد نور الذي لم يخفَ عليه جماله على الرغم من ثيابها الواسعة الفضفاضة، وقال وقد تيقن أنها تستحق بضع دقائق من العلاج

المجاني: - أيوه أنا دكتور نفساني، كبير كمان.
قالها مازحًا وقد تعمد أن تكون نبرته رقيقة ساحرة، وقد علم أن بوادر سحره قد تسربت إلى قلبها عندما اعتدلت وقد علت شفتيها ابتسامة على استحياء، وقد مدت يدها لتصافح يده: - نور الطيب.

الهاتف وسهام

اليوم

دلف علاء إلى مكتبه، وقد أدى العسكري الجالس أمام المكتب التحية لدى رؤيته.

- أجيب الشاي يا باشا؟

- لأ، اعملي قهوة النهارده أحسن.

جلس على مقعده وهو يشعل سيجارة أخرى كعادته وهو يفكر في هاتف هيثم، من المهم أن يبحث فيما إن كان معه يوم مقتله أم لا. اقتحمت عقله سهام مرة أخرى، وراوده نفس الشعور بأنها مهمة في القضية بشكل أو بآخر، ويريد أن يحقق معها بشكل أعمق.

ألقى نظرة على ملف نور الذي يتوسط مكتبه، ثم التقطه ليبدأ فيه، فقاطعه صوت إبراهيم على الباب يطلب الإذن بالدخول.

إبراهيم يصغره بعدة سنوات، رياضي لا يدخن، مما جعل هيئته العامة تبدو أصغر منه بعشر سنوات على الأقل، وكذلك كان ذكيًّا لمَّاحًا، وعلاء يحبه بشدة ودائمًا ما يستعين به في القضايا المهمة.

- صباح الخير يا باشا. سعادتك عرفت تنام كويس؟ وأخبار الجماعة إيه؟ عدت على خير سعادتك؟

قالها إبراهيم مبتسمًا فهو لم يتزوج بعد، وما زال سعيدًا بحريته التي تخلى عنها علاء منذ زمن، ويعلم أنه كان على موعد مع زوجته أمس ليقضي معها مناسبة عائلية ما، والقلق كان جليًّا على وجهه كلما نظر إلى هاتفه المحمول الذي انهالت عليه رسائل نهال وهي تسأل متى سيظهر.

- عدت يا سيدي، الحمد لله. فرحان إنت أوي فيَّ. بكرة نشوف ابتسامتك الحلوة دي هتروح فين لما تتأخر على الجماعة بتاعتك.

- لا سعادتك، أنا لسه بدري عليَّ، السنجلة جنتلة.

ضحك علاء وهو يهز رأسه في حسرة على حريته المسلوبة، ومال إلى الأمام وهو ينظر إلى إبراهيم بجدية وقال: - سيبك بقى من السنجلة، وخليك معايا في القضية دي معلش. موبايل هيثم.

- ماله سعادتك؟

- فين؟ حد لقاه جنب جثته أو في البيت أو في العيادة؟

شعر إبراهيم ببعض الضيق، كيف لم يلحظ هذا الأمر، لم يجد أحد الهاتف قَطُّ في أي مكان فعلًا.

- لأ سعادتك، فعلًا مش موجود في أي مكان.

- معقول هيثم معندوش موبايل أصلًا؟! ولَّا فيه علاقة بين الجريمة واختفاء الموبايل؟

- والله وارد جدًّا يكون فيه علاقة، لكن سهل نعرف هو كان معاه موبايل ولَّا لأ.

- طيب، باقولك إيه روح إنت كده اضغط على الواد بتاع الكوفي شوب حسام ده، وشوف لو هتطلع منه بمعلومة عن الموبايل أو عن هيثم نفسه، وأنا هاروح للبنت اللي اسمها سهام دي. حاسس برضو إن وراها حاجة. لما نرجع نشوف نور دي إيه قصتها.

العيادة

قبل القتل بعدة أشهر

أشعل كريم سيجارة أخرى، وأوشك أن يخرج من سيارته ويدخل إلى العيادة عندما رأى سهام تخرج من البناية وهي تهندم ثوبها الأحمر وشعرها الأحمر الناري، وقد بدا عليها أنها خرجت لتوها من معركة من نوع مميز مع هيثم. هز كريم رأسه في غضب ممزوج بالتعجب. كان يختلف عن هيثم اختلافًا شديدًا، وعلى الرغم من عمق صلتهما ببعضهما وعملهما معًا في المكان نفسه ونشأتهما معًا في بيت هيثم نفسه، فإن كريم كان منضبط الأخلاق وله قيم مختلفة تمام الاختلاف عن هيثم.

فعلى الرغم من وسامة كريم ومهارته كطبيب وحصوله على القبول من الكثيرات من مرتادات العيادة أو خارجها، فهو لم يكن يهوى هذا النوع من العلاقات، وكان يصب كامل تركيزه على بناء مستقبله في هذه المرحلة من حياته.

دلف إلى العيادة ووقع بصره على هيثم الذي كان يهندم ثيابه هو الآخر، وقد بات واضحًا أثر ما حدث بينه وبين سهام في كل ركن من أركان العيادة. أثار هذا حفيظة كريم الذي وإن كان يحب هيثم، لكنه لا يتقبل أفعاله خصوصًا مع النساء.

- إنت يا ابني مش هتبطل الوساخة دي؟!

- وساخة إيه! هو أنا باضرب حد على إيده؟

- يا ابني، دي مش الحالة بتاعتك اللي بتعالجها؟

- كانت، كانت. دلوقتِ خفت وبقت زي الحصان.

- أنا مش فاهمك فعلًا، ما تتجوز يا ابني وتتهد بقى.

- أتجوز إيه بس يا كريم! حد يسيب المانجا دي ويتجوز، هو أنا عبيط!

- إنت عملت إيه صحيح مع الحالة اللي جت جديد دي، اسمها ياسمين أظن؟

جلس كريم في مواجهة هيثم الذي أشعل سيجارة وهو يستند برأسه إلى المقعد الوثير الذي يتوسط غرفة الاستقبال في العيادة، عيادة على الطراز الحديث بالغة الأناقة لتناسب المستوى المادي للحالات التي ينتقيها ويستقبلها هيثم. تذكر هيثم وجه ياسمين وجسدها أيضًا، فقد أُعجب بها بالفعل، لكنها لم تكن مثل سهام. كانت متحفظة وخبأت مفاتنها وراء ثيابها الطويلة الواسعة، لكن عينيه الخبيرتين كانتا موقنتين أن تحت هذه الثياب جسدًا رائعًا ربما

ينافس جسد سهام روعة وفتنة.

- ما عملتش معاها حاجة، متجوزة.

- يا سلام، وده يعني منعك عنها؟

- آه طبعًا. أنا عندي مبدأ.

علت ضحكة كريم، فعن أي مبادئ يتحدث هيثم، فهو منذ كان طالبًا في كلية الطب ولا علاقة له بكلمة مبادئ، وقد اختار التخصص النفسي خصوصًا حتى يتيح له التعرف على الحسناوات المنكسرات، وقد ساعده على لعب دور فاتن النساء بجدارة وسامته وجسده الممشوق وظهوره على قنوات التلفزيون.

- يعني إنت ما قربتلهاش ولا حاولت معاها؟

- يا ابني أنا منحل آه، بس مش واطي.

سهام والظرف الذهبي

اليوم

كانت سهام تسكن بجوار عيادة هيثم والمقهى في إحدى المدن السكنية الجديدة. لم يكن صعبًا الوصول إلى منزلها. دار علاء حول المكان عدة مرات لعله يجد حارس المنزل ليتحدث معه، فهؤلاء يتكلمون كثيرًا، ودائمًا لديهم من المعلومات ما لا يوجد لدى غيرهم، لكنه لم يجد سوى حارس المنزل المواجه.

- السلام عليكم يا حاج. اسم الكريم إيه؟ وشغال هنا من إمتى؟

- وعليكم السلام. أنا عبده، بس لا مؤاخذة مين حضرتك؟ وبتسأل ليه؟

- أنا المقدم علاء الغرباوي، مباحث.

انتفض الحارس من مجلسه عند سماع كلمة «مباحث»، فابتسم علاء رغمًا عنه. ما زال للشرطة تأثير ورهبة على بعض النفوس.

- أهلًا أهلًا يا باشا، اتفضل. أنا شغال هنا سعادتك من سنين ياما من أول ما الحي ده اتسكن تقريبًا، اؤمرني سعادتك.

- تعرف الست اللي ساكنة في الفيلَّا اللي هناك دي؟

وأشار إلى منزل سهام الذي يواجه المنزل الذي يقف عنده في هذه اللحظة. ظهر على وجه الحارس بعض الامتعاض، وقد لاحظه علاء.

- آه أعرفها سعادتك.

- معندهاش بواب؟

- لا يا باشا معندهاش. كان عندها وطردته.

أخرج علاء سيجارة من علبته، وأشار إلى الحارس بواحدة فأخذها الأخير بامتنان، فهي من نوع فاخر لا يقدر على ثمنه. ظل علاء يتفحص وجه الحارس حتى يتبين سر كرهه الواضح لسهام.

- مشت البواب ليه؟ عندك فكرة؟

- والله يا باشا ربنا يستر على ولايانا.

قالها عبده وهو يهز رأسه في نفي، كأنه ينفي عن نفسه تهمة أو سلوكًا ما.

عقد علاء حاجبيه وهو ينفث دخان سيجارته، وقد أدرك ما يلمح إليه الحارس:

- قصدك إيه؟

- والله يا باشا الست سهام ساكنة هنا من زمان، من أيام جدها الله يرحمه، كان راجل سكرة، الله يرحمه ويبشبش الطوبة اللي تحت راسه، بس من ساعة ما مات وهي كل يوم عندها زوار أعوذ بالله رجالة، وعم بشندي البواب اللي كان عند جدها ما عجبوش الحال، اتكلم مع الست سهام زي ما تكون بنته فطردته، ومن ساعتها محدش بيشتغل عندها، بيجيلها جناييني وواحد يشيل الزبالة وخلاص كده.

أخرج علاء من جيبه هاتفه المحمول، وأظهر صورة هيثم ليريها لعبده: -

الراجل ده شُفته عندها قبل كده؟

- بصراحة يا بيه الكدب خيبة، كان بيجيلها رجالة ياما، أنا مش متأكد.

- تعرف لو كانت موجودة دلوقتِ؟

أشار عبده إلى جراج منزلها الذي يقع في مرمى بصره، فنظر علاء إلى نفس المكان الذي أشار إليه.

- الموتوسيكل ده بتاعها والعربية سعادتك هنا، وكمان ناموسيتها كحلي من السهر كل ليلة لوش الفجر.

- ماشي يا عبده، متشكرين.

قالها علاء وهو يدس ورقة بعشرة جنيهات في يد عبده الذي تقبلها بسعادة، على الرغم من قلة قيمتها، ورفعها إلى رأسه شاكرًا لعلاء.

ضغط علاء على جهاز الاتصال الخاص بمنزل سهام عدة مرات حتى أتى صوت أنثوي يبدو نائمًا. كانت الساعة تقترب من الثانية ظهرًا. يبدو أن عبده كان محقًّا في قوله إنها تستيقظ متأخرًا في العادة.

- مين؟ وعايز إيه على الصبح؟

اغتاظ علاء من النبرة المتعجرفة التي ردت بها سهام، لكنه تماسك وهو يرد، فهو لا يحمل إذنًا من النيابة، وهذا مجرد حديث ودي لا يريد أن يفقده بهذه السرعة: - المقدم علاء الغرباوي من المباحث. اتقابلنا في الكوفي شوب قبل كده.

ساد الصمت قليلًا. كان يبدو أنها تحاول التذكر، ثم جاء صوت الأزيز الذي ينبئ عن فتح الباب. أزاح علاء الباب بيده ومر بالحديقة التي كانت منمقة ومعتنى بها بشدة، إلا أن مدخل المنزل كان كلاسيكيًّا قديمًا. أرجع علاء ذلك إلى أن المنزل كان لجدها قبل أن يؤول إليها. ارتقى الدرج سريعًا إلى أن وصل إلى باب المنزل الداخلي، وقد كان شبه مفتوح، فطرقه وانتظر لحظات حتى سمع صوتها يدعوه للدخول.

ما إن خطا إلى الداخل حتى وقعت عيناه عليها. كانت ترتدي ثياب نوم قصيرة جدًّا، أشعرت علاء بتوتر غريب، وكان شعرها الأحمر الناري مبعثرًا، وتتوسط رقبتها قلادة ذهبية غريبة الشكل. كانت تبدو مغرية جدًّا على الرغم من استيقاظها للتو. ابتلع علاء ريقه رغمًا عنه وهو يشيح ببصره عنها، ويلقي نظرة على المنزل من الداخل. وكما توقع، كان له طابع حديث بل شديد الحداثة، فهي في الغالب قد جددت المنزل بعد وفاة جدها. يتوسط غرفة

الاستقبال بار كبير وُضعت عليه مختلف أنواع الخمور، وفي أحد جوانب الغرفة كانت هناك ماكينة قهوة كبيرة مما توجد غالبًا في محال القهوة الفاخرة، كانت سهام تقف بجوارها وهي تضع بعض الإسبريسو فيها بتركيز.

- أنا هاشرب قهوة، أعملك معايا؟

خرج صوتها ناعمًا، وقد امتزج برائحة القهوة التي بدأت في صنعها، فأفقدت علاء تركيزه لثوانٍ وهو يلقي نظرة جانبية على خاتم زواجه الذي يُذكره بنهال ويحيى. أخرج علبة سجائره وهو يرد عليها: - يا ريت، أنا باشربها سادة من غير لبن ولا سكر، يضايقك لو دخنت؟

- أبدًا. عندي سيجار حلو أوي لو تحب تجربه.

قالتها وهي تنحني تحت البار لتلتقط علبة السيجار لتضعها أمام علاء الذي حاول جاهدًا أن يجعل تفكيره منحصرًا في القضية التي جاء من أجلها، بدلًا من متابعة سهام وهي تنحني فيظهر ما لم يختبئ من الأساس من مفاتنها.

- متشكر، مش باغير سجايري.

وضعت كوب القهوة أمامه وأشارت إليه بالجلوس وهي تعتلي مقعد البار العالي، وقد احتضنت كوب القهوة الخاص بها، وأشعلت سيجارًا رفيعًا لنفسها: - ها، قولي يا سيادة المقدم أقدر أساعدك إزاي؟

قالتها بنفس الصوت الناعم الذي يشوبه هذه المرة دلال مصطنع لم يتبين علاء سببه، لكنه كان قد استجمع أفكاره، وقد نبَّه نفسه بحزم أنها مشتبه فيها أو على الأقل شاهدة في إحدى الجرائم التي يحقق فيها. سألها بلهجة تعمد أن تكون حازمة وجادة: - آنسة سهام، إنتِ إيه علاقتك بالدكتور هيثم الله يرحمه؟

- ولا أي حاجة، علاقة سطحية جدًّا. كنت بانام معاه أوقات.

قالتها وهي تنظر إلى عينَي علاء بجرأة، الذي على الرغم من توقعه نوع العلاقة فإن طريقتها الفجة جفلته قليلًا.

- ودي بالنسبة لك علاقة سطحية؟

مالت سهام بجسدها بالكامل لتقترب بأنفاسها من أنفاس علاء الذي تراجع رغمًا عنه بشكل مفاجئ إلى الخلف، وكاد يسقط عن المقعد العالي الذي كان يجلس عليه. ارتفعت ضحكة ماجنة من سهام التي تراجعت وهي تزيح بعض

خصلات شعرها التي مالت معها إلى الأمام، وقالت وقد صوبت نظراتها نحو عينَي علاء الذي كان قد استعاد هدوءه ولام نفسه بشدة في سره: - آه سطحية. إيه يا علاء بيه ملكش في السطحي؟!

تجاهل علاء تلميحها الواضح، وقد أثار حفيظته ما تفعله، وازداد شعوره فجأة بأنها تُخفي شيئًا ما وراء لامبالاتها الظاهرة.

- بقالك قد إيه بتعملي كده معاه؟ واتعرفتِ عليه فين أصلًا؟

- ما أعتقدش دي حاجة تهم سير القضية في حاجة.

- إيه اللي خلاكِ تروحي الكوفي شوب اليوم ده بدري؟

حركت سهام كتفيها في عدم اكتراث وهي تنتقل إلى مكان آخر في البار، وتلتقط إحدى الكؤوس استعدادًا لشرب بعض من الفودكا. كان علاء يتابعها بنظره وهو ينتظر إجابتها التي تأخرت حتى انتهت من تحضير مشروبها.

- عادي كان ورايا مشوار بدري، إيه جريمة إني أصحى بدري يوم؟!

أطال علاء النظر إلى عينيها، وظلت هي تنظر إليه في تحدٍّ واضح مخلوط باستمتاع ما، كأنها تلعب مع علاء لعبة وتبدو سعيدة بذلك.

- طيب بمعرفتك بهيثم تفتكري مين يكون قتله؟

- بصراحة ما أعرفش. هيثم شخص تافه بسيط، دكتور شاطر بيحب النسوان وخلاص كده، ده اللي أعرفه عنه.

زفر علاء بضيق مكتوم، وهمَّ بالذهاب، لكن وقع بصره على ظرف ملقى بلا عناية على البار. كان الظرف ذا علامة غريبة مميزة، ويبدو أنه قد طُبع خصوصًا، وما أثار دهشته أنه كان يبدو ذهبيًّا كدعوات حفلات الزفاف، لكن حدسه أخبره بأنه ليس دعوة حفل زفاف أبدًا. حاول علاء أن يتبين ما بداخل الظرف بطرف عينه من حيث يجلس، وقد تهيأ له أن الظرف به صور لم تكن واضحة من مكانه، لكنها تبدو له كصور هيثم مع سهام نفسها. اقترب بهدوء وهو يحاول ألا يثير انتباهها حتى يتيقن من محتوى الظرف، لكنها سبقته إلى الظرف وأغلقته، وقالت بحزم ممزوج بدلال غريب: - حاجة تانية أقدر أساعدك بيها يا علاء بيه؟

- لا متشكر. ده رقمي لو افتكرتِ أي حاجة حصلت في اليوم ده أو تفصيلة ممكن تفيد في القضية كلميني.

- من عينيا، بس ما أعتقدش هافتكر أي حاجة مفيدة، زي ما قلتلك إحنا علاقتنا كانت سطحية.

اتجه علاء إلى الباب عازمًا على الخروج، وقد تجاهل نظرات سهام التي كادت تخترق ظهره. وضع يده على مقبض الباب وهمَّ بالخروج قبل أن يتوقف

ويلتفت ليسألها سؤالًا أخيرًا: - هيثم يوم ما اتقتل، يا ترى تفتكري شُفتِ موبايله معاه؟!

نور في عيادة عادل

قبل القتل بعدة أشهر

أوشك عادل حلمي على الخروج من مكتبه في عيادته الأنيقة بمنطقة وسط البلد، لكن سكرتيرته دلفت إلى الغرفة لتخبره بأنه ما زال لديه كشف أخير.

- يا بنتي، أنا مش قلتلك إني ماشي النهارده بدري وما تاخديش مواعيد كتير.

- أعمل إيه بس يا دكتور، الست اللي بره دي مش حاجزة، بس بقالها عشر ساعات مستنية من أول ما فتحت العيادة عشان أنضفها الصبح وهي هنا، وما رضيتش تمشي من ساعتها واستنت كل الناس تمشي، معلش يا دكتور آخر حالة.

زفر عادل وهو يهز رأسه بقلة حيلة. لم يكن ليرفض مريضة انتظرت كل هذا الوقت. ألقى جسده المنهك على مقعده وهو يزفر مرة أخرى. لم تعد سنوات عمره تحتمل كل تلك المشقة والتعب، بسبب العمل في الجامعة والعيادة التي أصبح ينتقي مرضاه فيها، ويقبل فقط عددًا معينًا في اليوم الواحد. فكر كثيرًا في التقاعد كما يلح عليه أبناؤه، لكنه يعلم أنه سيمل من الجلوس على شاطئ البحر وحيدًا خاصة بعد وفاة زوجته.

- دخليها واعمليلي شاي، وأمري لله.

- حاضر يا دكتور.

دلفت نور إلى الغرفة وهي تركز عينيها على عادل كأنها تتأكد من شيء ما في ملامحه.

- اتفضلي، اسمك إيه؟

- اسمي نور.

- متجوزة؟ عندك كام سنة؟ بتشتغلي إيه؟

بدأ عادل في سؤالها الأسئلة التقليدية، وهو يخط على ورقة ما تقوله باقتضاب، ثم فجأة بلا سابق إنذار أخرجت من حقيبتها ظرفًا ذهبي اللون عليه علامة مميزة، ويبدو كأنه ظرف دعوة لحفل زفاف. أعطته الظرف وقالت بحزم: - أنا عايزة حقي.

اعتلى وجه عادل قلق حقيقي وهو يتفحص ما في الظرف، فقد كان يحتوي على صور نور، وإن كانت تبدو مختلفة، عارية في عيادة هيثم، وهيثم يقف على بعد خطوات من جسدها العاري. هل جُن هيثم ليقوم بعلاقة في عيادته مع من تبدو إحدى مريضاته؟! ومَن الذي التقط هذه الصور؟!

- ممكن تحكيلي إيه الموضوع؟

- الموضوع إني رُحت لهيثم في العيادة عشان كان بيجيلي «panic attacks»، وكنت باروحله كل أسبوع تقريبًا وكنت بدأت أتحسن، وفجأة كلمني سيد التمرجي وقالي إن الدكتور اعتذر وما ينفعش أروحله خلاص.

- وبعدين؟ إيه قصة الصور دي؟

- مش عارفة فعلًا، أنا كنت في بيتي ووصلي الظرف ده على البيت، اتخضيت كنت هاموت، مش عارفة اللي في الصور ده إيه؟! صور متفبركة ولّا إيه بالظبط، بس أنا مش فاكرة نهائي اللي موجود في الصور دي، والراجل ده اعتدى عليَّ، وأنا لازم آخد حقي بأي شكل!

ألقى عادل نظرة أخرى على الصور، وأمعن النظر في تعابير وجه نور فيها، فوجهها يبدو جليًّا في الصور كلها، غير أن ملامحها كان يبدو عليها الرضا ولا يبدو عليها أبدًا أي علامات للاعتداء، غير أنها مريضة لديه وما حدث غير أخلاقي بكل المقاييس.

- يعني إيه مش عارفة ده حصل إزاي؟ الصور واضح فيها رضاكِ.

بدأت تعلو وجه نور حمرة الغضب، وارتفع صوتها بحدة وهي تقول: - والله ما كنت راضية ولا أنا فاكرة أصلًا ده حصل إمتى وإزاي!

أخفضت صوتها بانكسار بعد هذه الثورة الصغيرة، وقد ظهر على وجهها ألم حقيقي جعل عادل رغمًا عنه يتعاطف معها، فحتى إن كانت راضية فهي كما يبدو ليست سوية بما يكفي، ولم يكن من حق هيثم استغلالها بهذا الشكل.

- أنا سألت عن حضرتك واتقالي إنك راجل محترم، أرجوك ساعدني إني آخد حقي.

- أنا مش عارف إيه اللي ممكن يتعمل بالظبط، بس صدقيني أنا هاحاول أساعدك.

حسام وإبراهيم

اليوم

ملأت رائحة القهوة أنف النقيب إبراهيم الذي على الرغم من أنه ليس من هواة القهوة، فإن رائحتها النفاذة الممتزجة برائحة المخبوزات جعلته يطلب لنفسه كوبًا منها وكرواسون ساخنًا. جلس يتفقد المكان منتظرًا ظهور حسام الذي قال الجميع إنه في وقت الراحة اليومية الخاص به، لكنه اليوم يقضيه بعيدًا عن المقهى.

ما إن أوشك على الانتهاء من كوب القهوة حتى أشار أحد العاملين إلى حسام الذي دخل من الباب، وتوجه إلى مكانه المعتاد ليبدأ عمله، فأسرع إبراهيم إليه قبل أن يشرع في استقبال طلبات الزبائن.

- إنت حسام؟ أنا النقيب إبراهيم باشتغل مع المقدم علاء في قضية قتل الدكتور هيثم، إنت قابلت علاء بيه مش كده؟

- أيوه يا فندم قابلته لما جه يحقق إمبارح، اؤمرني أقدر أساعدك بإيه؟

- إنت قلت المرة اللي فاتت إنك ما شُفتش هيثم وهو بيخرج، صح كده؟

- أيوه سعادتك فعلًا. مش فاكر خرج إمتى.

- مش غريبة إنك ما شفتوش والكاونتر قدام الباب مباشرة كده!

صمت حسام لثوانٍ، فهو نفسه يتعجب من ذلك، لكنه لا يتذكر فعلًا أنه رأى هيثم يخرج من الباب الأمامي، وهو نفسه على ما يذكر لم يتحرك من أمام الطاولة طوال فترة الدوام الخاص به، والذي يستمر حتى الواحدة ظهرًا تقريبًا، وعلى ما يبدو من المعلومات التي أخبره بها الضابط أن هيثم قُتل في الحادية عشرة أو بعد ذلك بقليل.

- والله سعادتك مش عارف، بس أنا ما شفتوش بيخرج من الباب قدامي على حسب ما أفتكر، بس أنا ممكن أكون كنت مشغول مع حد من الزباين وهو خرج من غير ما آخد بالي.

- طيب ما استغربتش إن عربيته راكنة قدام المكان وهو مش موجود؟

اقتحمت سهام ذهن حسام، ففي إحدى المرات كان يُخرج القمامة في دوره إلى الساحة الخلفية ورآها مع هيثم هناك، كان يمسك يديها بعنف وكان جسدها يلتصق بجسده. تقريبًا لمحته يومها وتعجب كثيرًا من نظرتها إليه. للحظات ظن أنها تستنجد به فكاد يهرول لإنقاذها ظنًّا منه أنها تتعرض للاعتداء من هيثم، إلا أن نظرتها تغيرت بسرعة لتصبح نظرة شرسة، وأحكمت هي جسدها على جسد هيثم، فأشاح حسام ببصره عنهما، ودخل ثانية إلى المقهى ليتابع عمله.

- آه بصراحة سعادتك، افتكرته مع الآنسة سهام.

- قصدك إيه؟

قصَّ حسام سريعًا على إبراهيم ما رآه في الساحة الخلفية من قبل، وقال له بلهجة مترددة: - هي سعادتك عادةً بتيجي متأخر بيكون الدكتور هيثم مشي، بس فيه أيام كده بييجوا مع بعض.

- مع بعض إزاي يعني؟ في نفس العربية؟

- لأ سعادتك، بس في نفس الميعاد.

- قولي يا حسام، هيثم يوم ما اتقتل كان معاه موبايله؟

لم يحتَج حسام إلى التفكير للإجابة عن هذا السؤال، فهيثم يوم مقتله كان في أشد درجات انشغاله بهاتفه المحمول، حتى إنه كاد يُسقط القهوة من شدة استغراقه في شيء ما على الهاتف.

- أيوه سعادتك كان معاه موبايله، وكان مشغول جدًّا بيه على غير عادته.

- إزاي يعني على غير عادته؟

- حضرتك هو في العادة بييجي ياخد القهوة، ويقعد بعيد يسمع مزيكا عشان محدش يكلمه، وبيحط الموبايل على جنب، بس اليوم ده كان متوتر وكل شوية يبص في الموبايل.

- طيب، ممكن توريني المكان اللي شُفت فيه هيثم وسهام مع بعض قبل كده؟

أشار حسام إلى باب خلفي صغير يكاد يكون مختبئًا عن معظم زوايا المقهى. دلف إبراهيم من الباب ليجد نفسه في ساحة فارغة بها بعض صناديق القمامة الكبيرة التي يُخرج العاملون في المقهى القمامة إليها. نقَّل بصره بين صناديق القمامة والأرض الخاوية، فلم يجد شيئًا مثيرًا للانتباه، غير أنها ساحة فارغة لا يرى فيها أو حولها شيئًا محددًا. كانت هناك مجموعة من صناديق القمامة بجانب الباب مباشرة، ومجموعة أخرى لها شكل مميز مختلف تقبع على بعد عدة أمتار ناحية الساحة، حيث إنها أقرب إلى مدخل الشارع الرئيسي. عجيب أن يكون هناك موعد غرامي في هذا المكان! غير أن هذا المكان يخرج إليه كل عدة دقائق أحد العمال لإخراج القمامة، فلن تكون به خلوة كاملة أبدًا. كاد يعود إلى داخل المقهى مرة أخرى قبل أن يقع بصره على ما يشبه بعض الثياب الملقاة بداخل صندوق القمامة الذي فتحه أحد العاملين بالمقهى مصادفة في هذه اللحظة.

أسرع خطاه إلى حيث يقبع صندوق القمامة، وحمد الله أنه يحمل قفازًا من الجلد في جيبه يرتديه أحيانًا، ليتقي برد الشتاء القارس. لم يخطئه حدسه فقد

وجد فستانًا طويلًا أصفر اللون تتوسطه بقعة حمراء!

علاء وإبراهيم وليلة طويلة

اليوم

كان علاء وإبراهيم قد انشغلا بشدة في هذا اليوم، فإبراهيم كان يدور مثل النحلة مع رجال المعمل الجنائي حول المقهى والساحة الخلفية، حيث وجد الفستان المتسخ بما يبدو واضحًا أنها بقعة دماء، أما علاء فكان منهمكًا مع الدكتور عادل الذي جاءته رسالة أخرى من القاتل تحذره من الذهاب إلى العزاء.

لا شك أن عادل يعرف القاتل معرفة وثيقة، أو على الأقل القاتل يعرف عادل معرفة وثيقة، والأهم من هذا أن القاتل يؤكد معرفة عادل بالدافع وراء قتل هيثم، ويتحدث عن استحقاق هيثم لهذه الميتة البشعة.

- دكتور عادل، ممكن تكلمني شوية عن هيثم من وجهة نظرك؟ وإشمعنى نور دي اللي إنت متخيل إنها طرف في القضية؟

ابتلع عادل ريقه وقال بصدق:

- هيثم كان دكتور شاطر جدًّا، بس كان فيه عيب جامد، إنه كان غاوي ستات.

- طيب وإيه يعني، ما كل الرجالة غاويين ستات، وده معروف عنه، إشمعنى نور بقى؟

- نور جاتلي العيادة من كام شهر، وقالتلي إن هيثم اعتدى عليها وإنها عايزة حقها.

ارتسمت الجدية على ملامح علاء، فقد لاح أول دافع حقيقي لقتل هيثم في الأفق، غير أن فكرة اعتداء هيثم على أي امرأة كانت فكرة بعيدة إلى حدٍّ كبير. كان هيثم زير نساء متمرسًا، له قصص وروايات في كل مكان، فما الذي يدفعه إلى أن يعتدي على امرأة أيًّا كانت! وإن تمنعت عنه إحداهن، فهناك العشرات غيرها ينتظرن إشارة منه!

- طيب وده حقيقي؟ هيثم اعتدى عليها فعلًا؟

هز عادل رأسه نفيًا بعدم اقتناع:

- هو نام معاها فعلًا، بس غصب عنها ما أعتقدش.

- ممكن تشرحلي أكتر، حضرتك كونت رأيك ده بناءً على إيه؟

بدأ عادل في سرد ما يعرفه عن نور وقصتها مع هيثم، بينما كان إبراهيم في نفس اللحظة يتفقد كل شبر في الساحة الخلفية للمقهى.

ترك إبراهيم الساحة الخلفية ووقف شاردًا في الفراغ أمام الساحة الأمامية للمقهى. للحظة نظر أسفل قدميه ليتأمل الأرض الترابية لموقف السيارات، وانتبه للمعة شيء ما في الأرض مع إضاءة السيارات في الشوارع من بعيد.

انحنى إبراهيم ليلقي نظرة على هذا الشيء اللامع في الأرض، كان سلسلة مفاتيح ذهبية اللون وقد شُبك بها ما يبدو أنه خلخال حريمي ملون.

أمعن إبراهيم النظر فوجد أن هذه السلسلة خاصة بسيارة مرسيدس وقد حُفر عليها حرفا «HS» ليتضح أنها مصنوعة خصوصًا لصاحبها، وبالطبع فإنهما الحرفان الأولان لهيثم سالم.

إذن، فهيثم فقد سلسلة مفاتيحه هنا! بدا الوضع غريبًا جدًّا، خاصة مع اشتباك الخلخال بهذا التعقيد. وجود سلسلة المفاتيح في هذا المكان يعني أن هيثم قد خرج من الباب الأمامي للمقهى، لكن بعيدًا عن عينَي حسام في الوقت نفسه.

أشار إلى أحد رجال المعمل الجنائي ليُحرِّز سلسلة المفاتيح والخلخال، وهو يفكر في أن هذه القضية لن تكون سهلة أبدًا. لم تمضِ ثوانٍ حتى أضاء هاتفه المحمول برقم علاء يظهر جليًّا على الشاشة.

- ألو، أيوه سعادتك، آه أنا لسه عند الكوفي شوب، آه سعادتك لقينا سلسلة مفاتيح عربية هيثم ومعاها خلخال غريب. حاضر حاضر سعادتك، آه سعادتك فاكر الاسم نور عبد العظيم الطيب.

سالم ونورهان

إنجلترا منذ ثلاثين عامًا

جلست نورهان على طرف الفراش وهي تعدِّل من وضع ثيابها، وتعيد غلق أزرار قميصها الشفاف، بعدما عبث بها سالم الذي يستلقي شبه عارٍ على الفراش هو الآخر. كان كلاهما ينتظر هذه اللحظات التي تخلو لهما فيها الشقة من عادل وعبد الرحمن، وقد بدأ حصولهما على هذه اللحظات الحرة يزداد صعوبة مع مرور الأيام، فعادل بدأ يلاحظ وأصبح يُضيق الخناق على سالم، وينبهه لعدم الجلوس وحيدًا مع نورهان، وأخبر عبد الرحمن بمخاوفه فبدأ هو الآخر في التضييق على سالم أيضًا. غير أن الأخير كان دومًا يجد وقتًا خلال اليوم سواء كان ساعة أو أقل ليتسلل مسرعًا إلى أحضان فاتنته نورهان، التي لا يدري إلى الآن أي شيء عنها سوى أنها قد تركت بيت جدتها هنا بعد مشادة ما معها، وأنها بلا مأوى ولا عمل حتى الآن، وأنها قد قابلت عادل مصادفة وأخبرته سريعًا بأنها بحاجة إلى مكان تقيم فيه، وهكذا انتهت بها الحال بين أحضانه. كان سالم يحملق إلى السقف، يفكر في دراسته ومستقبله ونورهان، ولم يقطع حبل أفكاره سوى تأوهاتها، فاعتدل واضعًا يده على كتفها، وقال لها بحنان وقلق حقيقي: - إيه يا نوري، فيه حاجة؟ تعبانة؟

قالت وهي تعتدل لتكون في مواجهته، وقد اقتربت أنفاسها من أنفاسه، مُشعلة فيه الرغبة لجولة أخرى ناسيًا تألمها منذ قليل: - أبدًا، مفيش حاجة. بطني وجعاني شوية، أكيد من أكل إمبارح.

جذبها إليه برفق وهو يُقبلها قبلة جمعت بين الحنان والرغبة، ثم ضمها إليه وهو يعدل من موضعه لتجلس في أحضانه مرتاحة: - مش قلتلك يا نوري بلاش رمرمة.

ابتسمت وهي تنظر إليه قائلة:

- أنا برضو اللي بتاعة رمرمة؟

ضحك وقد فهم ما ترمي إليه، بالطبع تقصد حديثه الذي طال عن المعتاد مع ممرضة إنجليزية، خاصة أن الممرضة كانت من نوع سالم المفضل، الذي لم يكن يتخيل أن يمر ما يقارب الشهرين وهو بين أحضان نورهان وحدها، فهو الذي كان يقضي لياليه يتقلب بين أحضان عشرات النساء، لكنه لا يستطيع إنكار أن نورهان كانت لها نكهة خاصة. هل يحبها؟ لا يدري فهو لم يذُق طعم

الحب قَطّ، لكنه أيضًا لا يقوى على فراقها. إلى الآن لم يمل منها ولم يرغب في سواها، حتى وإن راودته نفسه أحيانًا «بالرمرمة» كما تسميها هي، لكنه يخشى فقدها.

- إنتِ لسه فاكرة، ما يبقاش قلبك إسود أوي كده، هو فيه حد يسيب الملبن ده وياكل مكرونة برضو؟

ابتسمت وهي تلقي نظرة سريعة على جسدها في المرآة المواجهة للفراش، وهي تنظر بقلق لم يلحظه سالم إلى بطنها الذي بدا أكبر قليلًا من المعتاد، ثم إلى جسدها ككل، وقد التفت بين ذراعَي سالم فبدت فعلًا بجسدها الملفوف كقطعة من الملبن الأبيض. كادا يلتحمان مرة أخرى في معركة كالتي كانا فيها منذ قليل، إلا أن صوت المفتاح في الباب جعلهما ينتفضان سريعًا من فوق الفراش. كلاهما التقط ثيابه وارتداها بسرعة البرق، فالقادم إما عادل وإما عبد الرحمن، وكلاهما سيستشيط غضبًا، ولن يقبل أيٌّ منهما بهذا الوضع أبدًا. أسرعت نورهان لتختبئ خلف باب الغرفة الذي فتحه عادل وهو ينظر إلى سالم الذي كان قد ارتدى معظم ثيابه بالفعل.

- إيه يا سالم، إنت كنت فين؟ يا ابني كان فيه محاضرة في الوقت ده مهمة جدًّا، إيه اللي جابك البيت دلوقتِ؟ وفين نورهان؟

كتمت نورهان أنفاسها، وهي تنكمش خلف الباب الذي أخفاها بشكل كبير، فلن يراها عادل إلا لو أغلق الباب أو نظر خلفه وهو ما لم يحدث، فحمدت ربها على ذلك.

- مش عارف فين نورهان، أنا جيت ما لقيتهاش.

- وإيه اللي جابك أصلًا؟ سالم أنا اترجيتك مليون مرة تبعد عن نورهان.

- يا ابني هو أنا يعني هاموت على نورهان دي، ما إنت عارف أنا مليش في حد واحد، وخلاص فهمت.

قالها سالم وهو يأخذ بيد عادل كأنه سيقوده لمواجهته. كان يفعل ذلك كي يعطيها مساحة لمغادرة الغرفة، وقد فهمت هي ذلك. وما إن أصبح عادل في مواجهة سالم حتى انطلقت هي على أطراف أصابعها نحو غرفتها، وقد وضعت يدها على بطنها وهي بالكاد تلتقط أنفاسها.

أما سالم فقد قال لعادل:

- سيبك إنت من الكلام ده، أنا كنت عايز أوريك البلوفر الجديد بتاعي.

قالها وهو ما زال يقوده نحو خزانة الملابس، مما أعطى نورهان مساحة أخرى للخروج من غرفتها وادعاء أنها قد أتت لتوها من الخارج. طرقت باب الغرفة الموارب وهي تقول لعادل وسالم الذي ابتسم لفهمها لكل حركاته

وتأديتها لدورها باحتراف: - إيه ده جيتوا بدري يعني؟ أنا لسه ما عملتش الغدا.

- ولا يهمك، إحنا طالما شُفناكِ كأننا أكلنا.

قالها سالم مازحًا متعمدًا إغاظة عادل الذي رد عليه بنظرة نارية، ونظر نحو نورهان هذه المرة متفحصًا ثيابها التي بدت له على غير عادتها، وشعر بغصة في صدره. هل أخطأ حين أتى بها إلى هنا لتجلس في منزل به ثلاثة من الشباب ومنهم سالم؟ لكن ماذا كان عليه أن يفعل؟ هل كان يجب أن يتركها تحيا في الشوارع بلا مأوى، وهي عزيزة على قلبه وابنة بلدته وصديقة طفولته؟!

- ولا يهمك يا نورهان، لسه عبد الرحمن ما جاش، وممكن جدًّا نطلب أي حاجة من بره النهارده، وريحي إنتِ نفسك.

- لأ أنا هاعملكم مكرونة فيتوتشيني سهلة، وهتعجبكم أوي مع طبق سلطة.

- فيتوتشيني! طيب يا عادل تفتكر عبد الرحمن هيرضى ياكلها؟

كان عبد الرحمن من بلدة في صعيد مصر وملامحه المصرية منقوش عليها أصوله الصعيدية، لم يكن مثل عادل وسالم، بل كان من طبقة مختلفة، لكنه كان صديقًا وفيًّا. كانا يحبانه صدقًا على الرغم من الفروق الاجتماعية الواضحة، وكان هو الوحيد الذي أتى إلى إنجلترا بمنحة دراسية كاملة، ويعمل كذلك في الجامعة بين المحاضرات ليوفر ثمن إقامته ومأكله، وكان كلٌّ من عادل وسالم يحرص على عدم اختيار أماكن أو أكلات باهظة الثمن، حتى يتمكن صديقهما من المشاركة بلا حرج. كان عادل أقرب إليه من سالم لاختلاف قيمهما الواضحة، فعبد الرحمن لم يكن فقط رجلًا شرقيًّا كما يقول الكتاب، بل كان أيضًا يحفظ كتاب الله وملتزمًا بصلاته، بالنسبة إليه سالم كان زنديقًا، إلا أنه كان يحبه ويدعو له بالهداية، ولم يوافق بأي شكل على بقاء نورهان معهم، ورأى في ذلك أنهم يضعون زينًا يغلي على النار بجوار زجاجة مياه على وشك الوقوع. شرح له عادل موقف الفتاة التي ستقضي لياليها في شوارع إنجلترا وهي ابنة بلدهم وفي ضيق شديد، وقد وعده أنه إذا تيسر لهم عمل بعد دراستهم فمن الممكن أن يستأجروا لها شقة أو غرفة منفصلة، وأنه سيجتهد في أن يبحث لها عن عمل ما.

- ليه مش هتعجبه؟! أنا ممكن أعمل أي حاجة تانية.

- سيبك من كلام سالم، هو بيحب يغلس على خلق ربنا كلهم، عبد الرحمن هياكل أي حاجة.

ابتسمت وهي تتحرك في اتجاه المطبخ لتحضر الطعام لهم، وتابعها عادل

بنظرة حانية، في حين تابعها سالم بنظرة المشتاق بلوعة إلى هذا الجسد الذي نُحت بإبداع. بدأ كلاهما في مراجعة بعض المحاضرات ومناقشة بعض الأمور العلمية، حتى أتى عبد الرحمن، وكانت نورهان قد انتهت من إعداد الطاولة، وبدأت في وضع الطعام الذي بدا شهيًّا لثلاثتهم. فجأة وهي تضع بعض الأطباق تركت كل شيء وركضت نحو الحمام، وكان واضحًا بشكل جلي أنها تفرغ ما في معدتها. تابعها الثلاثة بنظراتهم في قلق حقيقي، ثم ذهب عادل إليها وطرق الباب برفق: - نورهان، إنتِ كويسة؟ محتاجة حاجة؟

فتحت الباب وهي تستند إليه وبدت واهنة ومرهقة، فمد عادل يده إليها ليسندها، ومن خلفه كلٌّ من عبد الرحمن وسالم، والأخير ينظر بخوفٍ صادق نحوها.

- ما تخافوش أوي كده، كل الحكاية إني أكلت أكل مش كويس من كام يوم، معلش أنا هارتاح شوية، ممكن تحطوا إنتو الأكل هو خلصان.

- أكل إيه بس يا نورهان، تعالي ارتاحي بس.

قادها عادل نحو غرفتها ودقات قلبه تتسارع لخوفه مما بدا واضحًا له. وقف بجوارها حتى استقرت على فراشها، وما زال سالم وعبد الرحمن يقفان خلفه ويحاولان الاطمئنان عليها. أغلق عادل باب الغرفة تاركًا إياها تنعم ببعض الراحة. خيم الصمت على الشقة، ووضع كلٌّ منهم طعامه في أحد الأطباق المتراصة على الطاولة، التي رتبتها نوارة هذه الشقة التي ترقد في فراشها في هذه اللحظة. لم يتناول سالم كثيرًا فقد وجد نفسه يفكر فيها، ومرة أخرى بدأ يشعر بأنه الحب وأنها ليست مجرد علاقة عابرة، وكان هذا مخيفًا بشدة بالنسبة إليه، لكنه لم يملك على قلبه سلطانًا. لم تمر بضع ساعات حتى وجد نفسه يصنع حساءً لها ويجلس على طرف فراشها. انهمك كلٌّ من عادل وعبد الرحمن في مراجعة المحاضرات كعادتهما ليلًا، أما هو فاستكان وهو يتأمل نورهان وقد غفت. هزها برفق وقد وضع طبق الحساء الساخن جوار الفراش. فتحت عينيها ببطء وابتسمت وهي ترى سالم الذي ارتسمت على ملامحه مشاعر المحبة والحنان الصادق.

- إيه أخبارك دلوقتِ؟ أنا عملتلك شوربة، مش زي بتاعتك طبعًا، بس أهو على قدي.

- تعبت نفسك. أنا مش قادرة آكل خالص.

- لأ مش هينفع، كده هنقلب من ملبن لمكرونة.

ضحكت رغمًا عنها وقد فهمت مقصده، فاعتدلت وأسندت ظهرها إلى

الفراش، وبدأ سالم في وضع الحساء في فمها برفق، وعيناها تلتقيان بعينيه، في حين كانت عينا عادل القلقتان تريان المشهد من خلال الردهة التي تفصل بين الغرفتين. وحين انتهى سالم من إطعامها والحديث بهمس معها دخل إلى الغرفة الأخرى، وتفادى النظر المباشر إلى عينَي عادل الذي وضع يده على ظهر سالم وقال له: - البنت دي يا سالم خطر، أنا خايف عليك مش عليها، صدقني.

أطال سالم النظر نحو غرفتها عبر الردهة وهو يراها ترقد كالملاك البريء، وقد خفق قلبه بصدق مشاعره، والتفت نحو عادل وقال ببعض الخوف المخلوط بالحزم: - أنا باحبها يا عادل، باحبها بجد!

كريم والمستشفى

قبل القتل بعدة أشهر

كان كريم يصُفُّ سيارته في الموقف الخاص بالمستشفى وهو شارد الذهن فيما يريده منه الدكتور سالم بنفسه. كان قد تلقَّى مكالمة غريبة جدًّا من الدكتور سالم في اليوم السابق يخبره فيها بكلمات سريعة غامضة بأنه يريده أن يأتي لمقابلته بالمستشفى في الصباح الباكر. لم يكن من عادة الدكتور سالم أن يمر على المستشفى في يوم الأحد أصلًا، ولم يكن من عادته الحضور مبكرًا، لكنه أكد على كريم الحضور وأخبره بألا يخبر هيثم بشيء عن هذه المقابلة، مما أثار حفيظة كريم وتعجبه. هو يعلم جيدًا أن علاقة سالم وهيثم ليست على ما يرام، وأن هيثم أبى تمامًا أن يعمل في مستشفى والده، بل أنشأ مستشفى خاصًّا به لينافس مستشفى والده بشراسة.

أما كريم فقد ترقى في العمل في مستشفى الدكتور سالم ليصبح مديرًا له ويتصرف تقريبًا فيه كيفما يشاء، فقد احتفظ سالم لنفسه بمنصب الإدارة الطبية فقط وهو منصب أقرب إلى المناصب الشرفية. كل هذا لم يؤثر في علاقة هيثم بكريم، وظل كريم يعمل في عيادة هيثم مساءً، وفي مستشفى الدكتور سالم صباحًا.

- دكتور سالم منتظر حضرتك في مكتبه يا دكتور.

بادره أحد العاملين في الاستقبال بهذه العبارة، مما زاد من توتره واستغرابه، فهو قد جاء قبل موعده الذي اتفق عليه مع سالم بساعة تقريبًا. يبدو أن الأمر خطير، ولا يحتمل التأخير حقًّا كما أخبره سالم. طرق كريم باب غرفة سالم، وانتظر حتى يسمع الإذن بالدخول، ثم خطا إلى المكتب الواسع الأنيق، ووجد سالم وقد أراح جسده على الأريكة التي تقبع في مواجهة مكتبه، وجلس على الكرسي الذي يجاوره حاتم إسماعيل المحاسب القانوني للمستشفى. ابتلع كريم ريقه وهو يتساءل هل أخطأ في شيء قانوني يتعلق بالضرائب مثلًا للمستشفى؟

- اقعد يا كريم. عارف حاتم مش كده؟

- آه طبعًا يا دكتور، هو إيه الموضوع؟ فيه حاجة حصلت؟

- لا خالص، أنا بس قررت أكتب المستشفى دي باسمك، وعايزك تعمل توكيل لحاتم عشان يخلص الإجراءات.

ظل كريم للحظات ينقِّل بصره بين سالم وحاتم، لعله يجد بعض التوضيح

لما قاله سالم، أي مستشفى هذا الذي يريد سالم أن يكتبه باسمه؟! هذا المستشفى الذي تقدر قيمته بما يقرب من سبعين مليون جنيه؟!

لطالما أحبه سالم وأعطاه من التوجيه والنصح وحسن المعاملة ربما أكثر مما أعطى هيثم نفسه، لكن ليس إلى الحد الذي يترك له أكبر شيء في ثروته من دون ابنه الوحيد.

- أنا مش فاهم حاجة يا دكتور بصراحة! هو إيه الموضوع؟

- ولا حاجة، أنا قررت أكتب المستشفى دي باسمك، وعايز آخد خطوات في ده بسرعة، وطبعًا مش محتاج أقولك إن هيثم مش لازم يعرف حاجة.

كان سالم يبدو جادًّا. اختلس كريم نظرة إلى حاتم لعله يستشف رأيه في هذا الأمر برمته، إلا أن حاتم كان بلا تعابير واضحة على الإطلاق.

- أنا ما أقدرش أقبل حاجة زي دي، ده مش من حقي، ثم دي فلوس هيثم.

- فلوس هيثم! ليه شايفني مت وبيوزعوا ورثي؟

قالها سالم بغضب عارم لم يرَه كريم من قبل. كان كريم في موقف لا يُحسد عليه، فهو لا يستطيع قبول هذه الهبة العظيمة غير المنطقية بالمرة، وفي الوقت نفسه لا يريد أن يثير غضب سالم، حتى لا يخسر وظيفته وعلاقته معه.

- طيب حضرتك اهدا شوية، أنا بس باحاول أفهم سبب القرار ده مش أكتر.

- مفيش سبب ولا أي حاجة غير إنك إنت اللي تستاهلها، وشرطي الوحيد إنك تسيب اسمي عليها.

صمت كريم وهو يفكر في الأوراق التي بين يدَي حاتم، والتي ما إن يضع اسمه عليها حتى يتملَّك هذه الملايين. كانت الأوراق تناديه. جرة قلم واحدة قد تغير مصيره إلى الأبد، وتتغير حياته من طبيب صغير يحتضنه سالم ويحسن معاملته إلى صاحب أكبر منتجع للطب النفسي في الشرق الأوسط كله. يااه! كم لديه من أفكار لتطوير هذا المكان! وكم كان يحلم بمكان خاص به منذ أن كان طالبًا في سنواته الأولى في الجامعة! لكن هذا خطأ وهو يعرف هذا ولا يستطيع قبوله.

- طيب إيه رأي حضرتك نأجل بس الموضوع شوية، يومين تلاتة كده، لغاية ما حضرتك تكون فكرت أكتر في الموضوع؟

- هو أنا عيل صغير قدامك عشان تحايلني؟!

- لا أبدًا أبدًا يا دكتور، أنا محتاج وقت عشان أقرا الورق ده وأشوف مع حد يكون من طرفي إن كل حاجة سليمة، معلش يا أستاذ حاتم ده موضوع مش سهل، ولّا إيه رأيك؟

تحدث حاتم أخيرًا وكان يبدو أنه لن ينطق حتى النهاية:

- أنا مع الدكتور كريم يا دكتور سالم، لازم يطّلع على الأوراق ويشوف هو داخل على إيه بالظبط، خصوصًا إن المستشفى كانت واخدة قروض لازم الدكتور كريم يعرف كل تفاصيلها.

تنهد سالم وهو ينقِّل بصره بين حاتم وكريم، ثم قال ببعض الهدوء:

- خلاص جهز كل الورق يا حاتم لكريم، وزي النهارده بعد أسبوع نمضي الورق.

همَّ كريم بالخروج من الغرفة وهو يفكر في كيفية الهروب من هذا المأزق، لعل سالم يغير رأيه أو يجِد في الأمور أمور، لكن سالم وضع يده على كتفه وقال له بصوت به أسى وصدق:

- ده حقك يا كريم، حقك وحق أبوك.

اليوم

جلس علاء على كرسي مكتبه وهو ينفث دخان السيجارة العاشرة منذ أن دخل إلى القسم اليوم. كان أمامه تقرير الطب الشرعي الذي أكد أن الدماء على الفستان الذي وُجد تعود إلى هيثم بالفعل. أمسك بقلم وورقة صغيرة وخطَّ عليها ما يدور في رأسه: ورقة مقطوعة من كتاب مجهول يدعي استحقاق هيثم للقتل، فستان حريمي، خلخال مع سلسلة مفاتيح القتيل، فتاة تدعي أنه اعتدى عليها، ظرف غريب الشكل عند عشيقة له، وفي الغالب هو نفس الظرف الذي رآه عادل مع نور، وكل هذا يبدو مرتبطًا بعادل الذي يبدو أنه لا يعرف شيئًا.

الفستان لمن؟ هل لهذه المدعوة «نور» التي لم يُعثر لها على أثر في أي مكان؟ على الرغم من أنه استخرج أمرًا من النيابة لاستدعائها للتحقيق معها، فإنه حتى الآن لم يُستدل على مكانها، لم توجد في عنوانها المتروك في العيادة، ورقم البطاقة الذي تركته أيضًا غير صحيح.

زفر علاء بضيق فليس هناك أي خيط أو دليل ما في كل هذه الأمور. مباحث الاتصالات لم تستدل على الرقم الذي يتصل بعادل، ولم يجدوا نور ليستوضحوا منها أمر الاعتداء المزعوم. أخرج بعض الصور من الملف الذي أمامه، لعله يجد شيئًا قد غفل عنه قبل ذلك. أمسك بالورقة التي خطَّ عليها عادل كلماته ولم يتذكرها، وقرأ العبارة عدة مرات ثم كاد يتركها قبل أن يرى شيئًا مكتوبًا بخط صغير لا يكاد يُرى في ظهر الورقة. أخرج من درج مكتبه عدسة مكبرة حتى يتمكن من رؤية المكتوب على الورقة. كان يبدو أنه عنوان لكنه ليس في مصر بل في إنجلترا وبجواره رقم هاتف إنجليزي أيضًا، كان ذلك واضحًا من الكود الذي يسبق الرقم.

طرق إبراهيم الباب وقد بدا عليه هو الآخر الحيرة وبعض الضيق من هذه القضية. كان يحمل في يده ملفًّا به بعض الأوراق، وما إن أذن له علاء بالدخول حتى جلس على المقعد المواجه له ثم أعطاه الملف.

- إيه ده يا إبراهيم؟

- ده سجل مكالمات هيثم في آخر كام شهر سعادتك على موبايله، حضرتك فاكر حسام قال إنه يوم ما اتقتل كان معاه موبايله وإنه كان بيبص فيه كل شوية كأنه مستني مكالمة.

ابتسم علاء ابتسامة رضا. كان يريد أن يخبر إبراهيم بتقصي أمر الهاتف

والمكالمات، لكن تتابع الأحداث السريع جعله ينسى ذلك.

- عفارم عليك يا إبراهيم. طيب ها لقيت إيه؟

- والله سعادتك فيه أرقام كتيرة أوي كلمته اليوم ده، بس آخر رقم كلمه كان كلمه كذا مرة في اليوم اللي قبله، كمان مكالمة طويلة الساعة تلاتة الصبح.

- طيب عرفت رقم مين؟

- آه. رقم واحدة اسمها ياسمين عمران.

- عرفت أي حاجة عنها؟

أعاد إبراهيم ظهره إلى الوراء ليريح رأسه على المقعد، وهو ينظر إلى علاء الذي كان ينتظر رده بفارغ الصبر: - مهندسة متجوزة رجل أعمال مشهور، مفيش حاجة غريبة عنها.

- طيب إيه صلتها بهيثم؟ إيه اللي يخليها تكلمه الساعة تلاتة الصبح إلا لو فيه بينهم علاقة ما؟

- مش عارف لسه بصراحة، بس على كلام كريم، هيثم ملوش في الستات المتجوزة، أنا أرجح سعادتك إنها كانت مجرد حالة بتتعالج عنده، فيه حاجة كمان غريبة في السجلات.

- إيه؟

- حسام سعادتك بتاع الكوفي شوب!

أعاد علاء رأسه هو الآخر إلى الوراء وهو يشعل سيجارة جديدة، وبرتشف رشفة سريعة من كوب القهوة الذي أوشك أن يصبح باردًا: - ماله؟

- هو كمان كلم هيثم الساعة تمانية الصبح يوم ما اتقتل.

فكر علاء فيما يقوله إبراهيم، ليست هناك علاقة بينهما غير أن الأخير يحضر له القهوة اليومية، ثم إن حسام لم يأتِ على ذكر تلك المكالمة في التحقيق!

- المكالمة قعدت قد إيه؟

- تقريبًا دقيقة.

- طيب إنت جبت عنوان الست اللي اسمها ياسمين دي؟

- آه سعادتك. ساكنة جنب الكوفي شوب.

التقط علاء معطفه وهو ينهض آخذًا معه علبة سجائره التي لا تفارقه أبدًا. كانت نظرات إبراهيم تتابعه بتساؤل: - يلَّا روح شوفلي اللي اسمها ياسمين دي إيه حكايتها.

- طيب سعادتك رايح فين؟

- هاشرب كوباية قهوة.

آسر وياسمين

قبل القتل بعدة أشهر

خرج آسر إلى شرفة منزله الفارغ، وقد التقط هاتفه المحمول في يده. كان ينتظر مكالمة مهمة من مديره في العمل. شرد ببصره في الأشجار التي تتحرك بلطف من نسمة هواء خفيفة جاءت لتكسر حرارة الجو في هذا اليوم، أين هي ياسمين الآن؟ ألقى نظرة خاطفة على الساعة فوجدها التاسعة مساءً. توقفت ياسمين عن إخباره أين هي وما الذي تفعله، هي توقفت عن إخباره وهو توقف عن سؤالها. ظلت جميلة هادئة، لكن انزوى عنها بريقها الذي كان يجذبه إليها أول زواجهما، ببساطة فقد اهتمامه بها. أصاب زواجهما مرض الفتور والملل الذي جعل الحياة تبدو كأنها فقدت ألوانها. لم تتحرك هي نحوه ولم تكن لديه رغبة حقيقية للتحرك نحوها. كيف ستنتهي الأمور بينهما؟ هل سيتكلم أحدهما وينهي الأمر، أم سيظل خزي الفشل غير المبرر لعلاقة كانت مليئة بالحب يقيدهما في هذه الحياة إلى الأبد؟

تنهد وقد سمع مفتاح الباب، لا بد أنها هي. خرج من الشرفة إلى غرفة الاستقبال ليجد ياسمين تدخل وقد بدت علامات الإرهاق والتوتر على وجهها. لمح على فستانها الأصفر بعض البقع الترابية، يبدو أنها وقعت على الأرض، أو استندت إلى شيء غير نظيف.

- مساء الخير يا آسر. رجعت من الشغل إمتى؟

قالتها ياسمين، وقد جفلت للوهلة الأولى لرؤيته، فقد اعتاد الرجوع متأخرًا كل ليلة. همَّ بسؤالها عن المكان الذي كانت فيه وعن حال ملابسها، إلا أنه لم يجد في نفسه الرغبة في فعل ذلك. هاتفه قد أصدر صوتًا معلنًا عن تلقيه المكالمة المنتظرة من مديره، فأشار إليها بأن تنتظر وخرج مرة أخرى إلى الشرفة. تنهدت بارتياح فهي لم ترغب في أن تتحدث معه أصلًا، وأسرعت إلى غرفتها لتضع عنها ذلك الفستان الذي تلطخ بالتراب. أحنت رقبتها إلى الأسفل حتى لا ترى انعكاس عينيها في المرآة. أرادت أن تهرب مما حدث هذا اليوم، وتمنت لو استطاعت الاختفاء من الدنيا بأسرها، وقد أحاط قلبها خزي وشعور بالذنب مخلوط بلذة غريبة لا تحق لها بأي شكل. انتهت من الاغتسال سريعًا، ودخلت إلى فراشها وتناولت أحد الأقراص التي وصفها لها هيثم لتنام سريعًا، فهي لم تعد تستطيع النوم قَطُّ، فالأفكار والشعور بالذنب يحرمان

عينيها من أي نوم هادئ مطمئن.

أطفأت النور وبدأت عيناها تُغلقان رغمًا عنها بفعل الدواء المنوم، وبدا صوت آسر خافتًا وهو لا يزال يتحدث مع مديره في العمل وابتعد صوت جداله الحاد والعنيف، ومن دون سابق إنذار أصدر هاتفها المحمول رنينًا يعلن عن وصول رسالة. نظرت بعينين شبه مغمضتين لتجد رسالة غريبة من رقم غريب.

«افتحي باب البيت بسرعة».

لا تدري لماذا انتابها القلق من هذه الرسالة التي تبدو أنها وصلت عن طريق الخطأ؟! لكنها أفاقتها إلى حدٍّ ما، فأسرعت في ارتداء ثوب خفيف تخفي به جسدها الذي يظهر بقوة من ملابس النوم التي ترتديها هربًا من حر الصيف، وقبل أن تغادر غرفتها سمعت صوت جرس الباب، فأسرعت الخطى لتفتح هي الباب امتثالًا لأمر المرسل الغريب، وهي تشعر بخوف حقيقي لا تدري سببه. وصلت إلى الباب، وآسر ما زال مشغولًا بمكالمته الهاتفية. حمدت الله في سرها وهي تفتح الباب لتقف في حيرة أمام هذا الفراغ الساكن في الظلام فلم تجد أحدًا خلفه. همت بإغلاقه وهي تلعن في سرها هذه المزحة السخيفة التي لم يستطع عقلها إيجاد مبرر لها، لكن نظرها كان قد اصطدم بشيء ما على الأرض، انحنت لتراه، فإذ بظرف ذهبي اللون يبدو كأنه ظرف دعوة فرح. التقطته وهي تنظر إلى الخلف لتتأكد أن آسر ما زال في الشرفة يتحدث مع مديره. فتحت الظرف لتجد صورًا لها وقد استندت بالفستان الأصفر إلى أحد الحوائط، وعلي قد اقترب من شفتيها ليقبلها. ارتجفت يداها بعنف وكادت تسقط أرضًا من شدة الهلع الذي انتابها وهي ترى صورة أخرى وعلي يُقبلها بالفعل.

تمسكت بالظرف بشدة بعد أن أعادت الصور مرة أخرى إليه، وأسرعت بخطوات لاهثة تغلق باب غرفتها عليها، وتستند برأسها إلى الباب وهي تعض على شفتها السفلى في ألم وخزي وهلع لا يوصف. قلبت الظرف عدة مرات بعد أن هدأت قليلًا لعلها تجد فيه إشارة للتعرف على المرسل، لكن الظرف كان خاليًا إلا من الصور التي حرقتها بنيران ولاعتها الوردية التي تضعها دائمًا في حقيبتها لتدخن إحدى سجائرها سرًّا. وضعت رفات الصور في حمام غرفتها، وأطلقت لعينيها العنان لتبكيا بحرقة على حياتها وما أصابها. ما الذي

سيحدث لها إذا علم آسر بالأمر؟ وما المصير الذي ينتظرها من صاحب الصور الذي بكل تأكيد سيبتزها بشدة؟ تلاشى أثر المنوم من عقلها تمامًا لتحدق إلى سقف الغرفة طوال الليل، بعد أن أرسلت رسالة إلى الرقم الذي أرسل إليها من قبل:

«إنت مين، وعايز إيه؟».

ليُجيبها صمت تام عذبها أكثر من أي شيء آخر.

لكن قبل الفجر بساعة تقريبًا وقد نازع عقلها مع الأقراص المنومة التي تناولت منها حبة أخرى، أصدر هاتفها رنينًا معلنًا وصول رسالة جديدة:

«الكل قادر على أن يرتكب جريمة بشعة».

كان شتاءً قارسًا في الإسكندرية هذا العام، لكن بالنسبة إلى عبد العظيم كان الجو جميلًا، فرائحة اليود ملأت أنفه، وصوت الأمواج المتلاطمة في البحر الهائج كان لأذنيه كمقطوعة من الموسيقى الكلاسيكية التي يعشقها. لم تعكر صفوه الأمطار التي تهطل بغزارة، فهو من أهل المدينة ويعرف جيدًا أنك لا بد أن تحمل مظلة في الشتاء. كان يحمل في يده رغيفًا من الخبز الأفرنجي الطويل (الفينو) الذي تحبه سلوى زوجته، وبعض المشتريات اللازمة لإعداد العشاء، ويعلق في يده الأخرى التي تحمل المظلة حقيبة بلاستيكية تحوي بداخلها إحدى ألعاب العرائس وبعض الحلوى، فابنته منى ستتم اليوم السابعة من عمرها. ابتسم وقد حضر طيف ابتسامة منى إلى عقله. كانت قطعة من قلبه، لطيفة، هادئة، ذات شعر أسود طويل، ووجه أبيض كالثلج. لم يرزقهما الله غيرها، فقد أصيبت سلوى بمرض ما فاضطرت على إثره أن تستأصل الرحم. يتذكر ألمها في هذا اليوم ودموعها التي انهمرت، وقد ضاع أي أمل في أن يكون لمنى أخ أو أخت، لكن سرعان ما مر الأمر بقبولهما بقضاء الله والتمتع بابنتهما الوحيدة، التي وإن كانت هادئة إلا أنها تملأ البيت مرحًا وضحكًا. لاح بيته من بعيد ليستوقفه أحد الجيران.

- يا أستاذ عبد العظيم، أستاذ عبد العظيم.

- أهلًا أستاذ بيومي، اتفضل. أنا جايب حاجة صغيرة كده للعشا.

- ألف هنا سبقتك، أنا بس كنت عايز أسألك هتمضي معانا في موضوع المدرسة.

لام عبد العظيم نفسه على أنه لم يتذكر أمر الطلب الذي سيرسله أبناء المنطقة إلى المحافظ ومدير المنطقة التعليمية بخصوص المدرسة.

كان من أصحاب مبدأ السير بمحاذاة الحائط وعدم الخروج عنه لأي سبب، لكن المدرسة التي يرتادها كل أبناء المنطقة بمن فيهم ابنته الوحيدة ظهر فيها بعض الشروخ، وأحد الآباء وهو مهندس مدني أصر على أن الأمر خطير وبحاجة إلى تحرك عاجل، وأن المدرسة تتهاون في أرواح الأطفال. كان عبد العظيم محاسبًا قانونيًّا لا يمت للهندسة بصلة، لكن ابنته الوحيدة كانت تمثل له كل ما يملك في هذه الدنيا، فلا تهاون في هذا الأمر أبدًا.

- أيوه طبعًا هامضي، هو فين الورق؟ عند مين من الجيران؟

- عند الأستاذ رؤوف، هاعديه عليك على سبعة ونص كده، هتكون موجود؟

- آه إن شاء الله هاستناك.

أومأ كلٌّ منهما برأسه إلى الآخر، وخطا عبد العظيم ما تبقى له من خطوات إلى المنزل. وما إن أدار مفتاحه في ثقب الباب حتى سمع صوت خطوات منى التي تهرول لاستقباله. ابتسم بحنان من قبل أن يراها، وما إن دلف إلى المنزل حتى كانت بين أحضانه تقبله، ثم تسأله بلهفة عما أتى به لها في هذا اليوم المميز: - جبتلي إيه بقى؟ ها يا بابا؟

- استني بس لما آخد نفسي يا منمن يا حبيبتي.

ما إن وقعت عيناها الجميلتان على الدمية حتى انهالت على والدها بالقبلات والأحضان حتى كاد يسقط إلى الوراء.

- سيدي يا سيدي على الحب.

كانت سلوى تحمل بين يديها كعكة عيد الميلاد المصنوعة في المنزل، تتوسطها عدة شمعات بعدد سنوات عمر منى. مالت إلى الأمام لتضعها على طاولة الطعام، ثم انطلقت لتحتضن عبد العظيم، وتضع هي الأخرى قبلة حانية على وجنته، والتقطت الخبز وباقي المشتريات وهي تبتسم له امتنانًا لإحضاره ما تحب.

- يلَّا تعالوا نطفي الشمع.

- استني بس لما أريح شوية يا سلوى، النهارده كان يوم طويل، وموضوع المدرسة ده قلقني جدًّا وأستاذ بيومي هيعدي علينا الورق الساعة سبعة ونص عشان أمضي معاهم.

- ما تفكرنيش، أنا من ساعة ما اتكلمت مع مرات المهندس أيمن وأنا مش عارفة أنام، بس باقول يمكن بيبالغ.

كانت منى قد انطلقت إلى غرفتها حاملة الدمية الجديدة، في حين ألقى جسده على مقعد بغرفة المعيشة وهو يتنهد في قلق، وجلست سلوى بجواره بعد أن وضعت كل شيء في مكانه هي الأخرى. كان القلق باديًا على وجهها، يعلم كلٌّ منهما أن احتمالية أن يكون أيمن مبالغًا في كلامه ضئيلة، فهو مهندس مخضرم كبير في العمر وقديم في المهنة، ولم يُعرف عنه قَطُّ أن انفعالاته غير محسوبة، ففي الغالب هو محق والأمر جِد خطير.

- أنا رأيي إنها ما تروحش المدرسة أصلًا اليومين دول خالص لغاية ما الموضوع يبان، ولَّا إيه رأيك يا سلوى؟

- والله مش عارفة محتارة، بس الضنى غالي، ويعني هي لو سقطت حتى سنة كاملة هيحصل إيه، بلاش مجازفة.

- على رأيك يعني هي هتاخد الدكتوراه، دي عيلة في ابتدائي.

- طيب يلَّا نحتفل بقى قبل ما يطب علينا بيومي أفندي.

قالتها ببعض السخرية فهي تعرف أن الأستاذ بيومي يعشق الحلويات وخاصة ما تحضِّره هي، فهي وزوجته صديقتان، ودائمًا ما تمضي بعض الوقت

لديها وتهاديها في المناسبات بالحلوى، فيُثني عليها أستاذ بيومي ويلتهمها قبل أن تخرج سلوى من المنزل. نادت على منى لتطفئ الشمع، فأتت مهرولة وهي تحمل دميتها في يدها ثم قالت بصوتها الطفولي الرقيق: - بس يا ماما أنا قلت لنور تيجي تطفي معايا الشمع، وتشوف العروسة الجديدة.

- طيب يا حبيبتي روحي خبطي عليها وتعالي.

فتحت منى الباب وتركته هكذا حتى تتمكن سلوى من مراقبتها كما تعودت، وما إن خطت خارج الشقة تقريبًا حتى كانت أمام باب شقة نور التي بدت كأنها تقف خلفه من سرعة استجابتها لطرقه. اتسعت ابتسامتا الفتاتين، ورفعت منى دميتها الجديدة أمام عينَي نور اللتين اتسعتا بانبهار.

- يااااه حلوة أوي يا منى.

- طيب يلَّا عشان نطفي الشمع، وتلعبي معايا.

دخلتا إلى شقة منى بعد أن ودَّعت نور أمها وأغلقت الباب خلفها، والتف الجميع حول الكعكة التي تتوسطها الشموع الملتمعة في الظلام، ليتكون طيف ظل لطيف لهذه الأسرة الجميلة والصديقة الصغيرة. دقائق بعد إطفاء الشموع كان بيومي يطرق الباب برفق. فتح عبد العظيم الباب ليجد بيومي يقف وفي يده مجموعة من الأوراق وهو يمد رقبته من خلف كتف عبد العظيم الذي ابتسم وتذكر تعليق زوجته الساخر، فتنحى ليعطي بيومي مساحة رؤية أكبر وقال له بترحاب: - اتفضل يا أستاذ بيومي دي تورتة بيتي، سلوى عملاها، اديني الورق كده أبص عليه وأمضيه...

لم ينتظره بيومي ليكمل جملته وانطلق وقد التقط أحد الأطباق المتراصة ليضع لنفسه قطعة كبيرة من الكعكة. في حين اطلع هو على الأوراق التي تطالب المحافظ ومدير المنطقة التعليمية بسرعة إجراء معاينة وترميم المدرسة خوفًا وحرصًا على أرواح الطلاب، وأمر سلوى أن تحضر له قلمًا وشرع في التوقيع على الأوراق كلها. ثم تذكر أن في المكتب الذي يعمل به عميلة على صلة بالمحافظ فأراد أن يحتفظ برقم الطلب حتى يعطيه لها، لعلها تستطيع أن تُسرِّع من عملية قبول الطلب أو تتوسط لدى المحافظ للعمل على ترميم المدرسة، لكنه لم يجد أي ورقة بجواره، وكان بيومي قد أنهى ثلاثة أرباع الكعكة وأراد الذهاب سريعًا لعله يلحق ببقية السكان، فأدار عبد العظيم عينيه سريعًا ثم جذب دمية منى ابنته التي تركتها وذهبت لتختبئ

مع نور، وخطّ على أسفل حذائها الأبيض رقم الطلب: ١٦٥٧٨٩٠٠٠.

علاء وحسام والفستان

اليوم

تخلص علاء من سيجارته وهو يصُف سيارته في المكان المخصص للسيارات أمام المقهى المقصود. كانت سيارته الآن في نفس المكان الذي كانت فيه سيارة هيثم وقت مقتله. كان يرى بوضوح باب المقهى، ومن ورائه حسام وهو يقوم بعمل القهوة، حتى مع وجود زبائن أمام حسام ما زال علاء يراه بوضوح، لأن المكان الذي يقف فيه حسام يرتفع عن الأرض بضعة سنتيمترات، فكأنه يقف على درجة سلم عالية فيظل كاشفًا المكان بأكمله من حيث يقف. سلسلة مفاتيح هيثم التي اشتبك بها الخلخال كانت تبعد مترًا تقريبًا عن مكان السيارة، إذن فهيثم لم يكن ذاهبًا إلى السيارة، في الغالب كان يمشي سيرًا على الأقدام باتجاه البناية المهجورة التي قُتل فيها.

تحرك علاء نحو المقهى واتخذ مكانه في طابور طلب القهوة حتى أتى دوره، فوقف أمام حسام الذي كان قد رآه منذ نزوله من السيارة، وعلم أنه قد جاء خصوصًا للحديث معه.

- مساء الخير يا حسام، عايز إسبريسو بلاك لو سمحت، وعايز أتكلم معاك شوية لو ينفع.

- حاضر يا فندم تؤمر.

وضع حسام كوب الإسبريسو أمام علاء الذي جلس على أقرب طاولة لمنضدة البيع التي كان يقف خلفها حسام، وقد أبلغ زميله بالوقوف مكانه حتى ينتهي من الحوار مع علاء الذي التقط الإسبريسو وأشار إلى حسام بالجلوس.

- حسام. إنت إيه علاقتك بالظبط بالدكتور هيثم؟

- مفيش علاقة، زي ما قلت لحضرتك مجرد زبون باعمله القهوة كل يوم.

- طب وإيه اللي يخليك تاخد رقم تلفون زبون عندك في الكوفي شوب؟

صمت حسام وبدا أنه لم يفهم السؤال، ونظر إلى علاء بتساؤل.

- مش ده رقمك؟

أخرج علاء ورقة مطوية من جيبه ووضعها أمام حسام، وقد أحاط أحد الأرقام التي في الورقة باللون الفسفوري، أشار نحوه علاء حتى يراه حسام بوضوح.

- أيوه ده رقمي فعلًا. بس أنا مش فاهم حضرتك تقصد إيه؟!

- إنت اتصلت على هيثم الصبح الساعة تمانية يوم ما اتقتل ليه؟

ظلت علامات الحيرة مرسومة على وجه حسام، وقد شعر علاء بصدق حيرته.

- بصراحة أنا أصلًا مش معايا رقم دكتور هيثم، ما كلمتوش قبل كده أبدًا، مفيش بيني وبينه أي حاجة تخليه يديني رقم موبايله.

اعتدل علاء لينظر إلى حسام بجدية شديدة:

- طيب أنا عايزك تحكيلي كده واحدة واحدة بالتفصيل، إيه اللي حصل بالظبط يوم ما هيثم اتقتل؟

- ولا حاجة سعادتك. زي كل يوم، جيت الساعة سبعة ونص وبدأت أشتغل و...

قاطعه علاء وقال له:

- واحدة واحدة أنا عايز تفاصيل. دخلت الساعة سبعة ونص لبست هدوم الشغل؟

- أيوه بالظبط دخلت المكان جوه لبست هدوم الشغل، وطلعت وقفت قدام الكاونتر عشان أقدم القهوة.

- موبايلك كان فين؟ بتسيبه فين وإنت بتشتغل في الشيفت بتاعك؟

- باحطه جوه مع الهدوم بتاعتي.

صمت حسام وقد ظهرت عليه بعض علامات التخبط، وقد تركه علاء ليتذكر ما حدث بالضبط: - اليوم ده بالذات الموبايل كان جنبي هنا على الكاونتر.

- إشمعنى؟

- كنت مستني تلفون عن محاضرة مهمة عشان امتحانات آخر السنة، وكان حد من زمايلي هيكلمني عشان يقولي ميعادها إمتى.

- تفتكر مين أول حد عملتله القهوة؟ حد معين تعرفه ولَّا كان زبون عادي؟

تذكر حسام ما دار صباح ذلك اليوم من حوار بينه وبين ياسمين وهي تطلب قهوتها اليومية.

* * *

- صباحك ورد يا حسام، إزيك؟

- صباح الفل يا باشمهندسة. جاية بدري أوي النهارده يعني؟

- آه. عندي اجتماع بدري، وكنت عايزة أشرب قهوة برواقة قبل ما أروحه.

- من عينيا أحلى كوباية قهوة لكبيرة الباشمهندسات.

- باقولك يا حسام، إنت عندك شاحن لموبايل سامسونج من النوع القديم؟ الموبايل القديم بتاعي محتاجة أشغله ضروري، ونسيت الشاحن في البيت.

- حاضر من عينيا، ثواني أجيبه لحضرتك من جوه.

* * *

حكى حسام لعلاء، وقد تذكر أن ياسمين أتت هذا اليوم مبكرًا عن المعتاد، وطلبت منه شاحنًا لهاتفها المحمول، وأنه دخل إلى مكان تغيير الملابس

لإحضار الشاحن لها.

- وموبايلك إنت وقتها كان فين؟ وريني بالظبط كده إنت كنت حاطه فين؟

قام حسام في اتجاه منضدة البيع حيث يقدم القهوة وتبعه علاء. أشار حسام إلى مكان واضح بجانب المنضدة وقال لعلاء: - هنا، كنت سايبه هنا بالظبط.

تفحص علاء المكان بعينيه، لا شك أن من يقف خلف المنضدة يستطيع أن يلتقط الهاتف ويستخدمه. فإن صدق حسام أنه لم يُجبِر هذه المكالمة بنفسه، فمن الممكن جدًّا أن يستخدم أحدهم الهاتف من خلف المنضدة، شرط ألا يكون للهاتف كلمة سر، وأن يكون غياب حسام بالداخل كافيًا لإجراء المكالمة وإنهائها. كانت المكالمة التي وُجد لها سجل من هاتف حسام لم تتعدَّ الدقيقة. إذن فالوقت في الغالب كافٍ لدخوله وخروجه.

- اديني موبايلك كده.

- موبايلي جوه جنب لبسي.

- ادخل هاته لو سمحت.

ألقى علاء نظرة على هاتفه ليحسب المدة الزمنية التي سيستغرقها حسام بالداخل حتى يحسم أمر مدة المكالمة، وبالفعل قبل أن تنتهي الدقيقة بالضبط، مما يتيح وقتًا كافيًا لإجراء المكالمة وإغلاق الهاتف قبل مجيء حسام، أعطى حسام لعلاء هاتفه المحمول ففتحه علاء وقد تأكد بنفسه أنه لا توجد كلمة سر.

- مين هي اللي طلبت منك الشاحن؟ حد تعرفه كويس؟

- أيوه الباشمهندسة ياسمين. بتيجي كل يوم على الساعة عشرة كده، بس اليوم ده جت بدري.

- تعرف اسمها ياسمين إيه؟ ساكنة فين؟ بتشتغل فين بالظبط؟

تساءل علاء وقد استنبط أنها في الغالب ياسمين عمران التي ذهب إبراهيم بالفعل للقائها، لكنه أراد أن يتأكد.

- آه حضرتك، اسمها ياسمين عمران، بتشتغل في شركة كبيرة جنب المكان هنا. كانت ادتني قبل كده الكارت بتاعها عشان لو ينفع أتدرب في الصيف في شركتها.

هز علاء رأسه بتفهم وقد حصل على ما يريد من تأكيد، ثم أخرج من جيبه صورة للفستان الأصفر الذي وُجد في الساحة الخلفية، ووضع الصورة أمام حسام وهو يسأله: - هي اللي كانت لابسة الفستان ده؟

- لأ.

قالها حسام بسرعة وتأكيد ولم يعقب بأكثر من النفي، مما جعل علاء يظن بأن هناك شيئًا ما لا يقوله حسام، فسأله مرة أخرى: - متأكد؟ فاكر هي كانت لابسة إيه اليوم ده؟

- آه متأكد. اليوم ده بالذات كانت لابسة لبس فورمال، بدلة بينك في إسود.

ابتسم علاء ابتسامة بسيطة وهو يتأمل ملامح حسام وهو يصف ثياب ياسمين، ولم يخفَ عليه انبهار حسام الطالب المجتهد الذي يعرف بالضبط ما كانت ترتديه ياسمين.

- طيب الفستان ده شُفت حد لابسه قبل كده؟

تفحص حسام الصورة مرة أخرى وهو يحاول أن يتذكر هل ارتدت إحدى مرتادات المقهى اللاتي يتذكرهن هذا الفستان، أصفر طويل تلمع به نجمة تزين الحزام الذي يتوسط الفستان. أطال حسام النظر وهو يحاول أن يتذكر، ثم قال بعد فترة تركه علاء فيها بلا ضغط: - آه. شُفت حضرتك.

- مين؟

- آنسة سهام.

سهام

قبل القتل بعدة أشهر

وقفت سهام أمام المرآة تتأمل نفسها بنوع من أنواع الرضا الغريب. هي دائمًا تنظر إلى نفسها وإلى اختياراتها من الثياب في رضا، لكن هذه المرة الوضع مختلف، فاليوم هي تريد أن تلعب دورًا لا تلعبه في العادة، فاختارت فستانًا أصفر جميلًا مبهجًا ومحتشمًا يوحي بالخجل والحياء أكثر من الجرأة التي عادةً ما توحي بها ثيابها. ألقت نظرة سريعة على ساعتها فهي لا تريد أن تتأخر. همت بالخروج من المنزل وقد التقطت حقيبتها البيضاء، لكن الباب فُتح ودلف منه توني. التقت أعينهما لثوانٍ، فرفع توني حاجبيه باستغراب متسائلًا من دون أن ينطق عن سر هذا الفستان الأصفر، فابتسمت سهام من دون أن تنطق أيضًا، ودارت حول نفسها لاستعراض فستانها. أطلق صفيرًا متصلًا واحتضنها بحنان.

- رايحة فين كده بقى يا بنوتة؟

- عندي مشوار.

- مشوار! مشوار إيه اللي يتراح بالأصفريكا ده يا سو؟

- هو إنت أصلًا إيه اللي جابك دلوقتِ؟ مش عندك شغل لمتأخر، واتفقنا نتعشى مع بعض؟

اتخذ توني من أحد كراسي البار مسندًا، وما زالت عيناه على سهام التي بدت له طفلة نقية بهذا الفستان، ثم أخرج من جيبه ولاعته الفضية، وقد أشعل سيجارة من النوع الفاخر الذي يدخنه عادةً، ثم قام وأدنى سهام إلى حضنه بحركة مفاجئة وقد اقتربت أنفاسهما. أمعنت سهام النظر إلى عينيه في صمت، لم تكن بلا عقل فهي تعلم يقينًا أنه متيم بها، لكن ما يجمعهما كان أعمق من لحظات تنتهي في فراش بلا قيمة، وكلاهما يعرف أن الآخر لن يهدأ في علاقة كهذه. تركها من دون أن ينطق أيٌّ منهما، وقد تلاحقت أنفاسها، فلا شك أنها هي أيضًا لديها مشاعر مختلطة وانجذاب جسدي نحوه. لم يُجب عن سؤالها عن العشاء ومجيئه قبل موعده، لكنه قام وألقى جسده على مقعد الاستقبال، وقد خلع عنه حذاءه معلنًا أنه سينتظرها.

خرجت سهام من الباب بعد أن رمقت توني بنظرة تقول لن أتأخر. تركت لأفكارها وذكرياتها العنان وهي تنطلق إلى لقائها. كانت قد تعرَّفت على توني في الجامعة بعد أن تُوفي والداها في حادث سيارة مريع، انتقلت على إثر ذلك إلى بيت جدها الذي قضت معه معظم سنوات الجامعة قبل أن يُتوفى هو

الآخر قبل تخرجها ببضعة أشهر. كانت في حالة حزن شديد حين التقت بتوني، فقد فقدت جدها سندها الوحيد وقلبها محطم من علاقة لا تقوى إلى الآن أن تذكر تفاصيلها. كان توني لها الصديق والأب على الرغم من صغر سنه، لكنه قام بهذا الدور على أكمل وجه. ساعدها أن تعمل في إحدى الشركات الكبرى في مجال العلاقات العامة، وقد ساعدها تميزها في عملها وتوافق ساعات العمل المرنة مع شكل الحياة التي أرادت. سهَّل لها جعل حياتها الشخصية ملكًا لها لفعل ما تحب، رسمت لنفسها ولشخصيتها خطوطًا عريضة من الجرأة والانفتاح المختلطين بقسوة التخلي السريع عمن يتعلق بها بشدة، توني تعلق بها هو الآخر لكنه ظل في مكانة الصديق والأب.

كانت قد وصلت إلى المكان الذي تريده فألقت نظرة سريعة في مرآة السيارة على وجهها وشعرها، وترجلت من السيارة وهي تعبر إلى الناحية الأخرى حيث المطعم الذي يقبع أمام النيل. سرت في جسدها قشعريرة وهي تتذكر آخر مرة أتت إلى هذا المكان مع حازم.

تنهدت وهي تحاول ألا تتذكر حازم وقصته، حتى لا يؤثر هذا في يومها الذي تريده أن يكون جميلًا كما تخطط له. دخلت إلى المطعم ووقعت عيناها سريعًا على شاب وسيم ينتظرها. اتسعت ابتسامتها وهي تراه وقد وضع باقة من الورد الجميل على الطاولة أمامه استعدادًا للقائها.

- اتأخرت عليك؟

- أبدًا إنتِ تيجي وقت ما إنتِ عايزة، اتفضلي، يا ريت الورد اللي اخترته يعجبك.

ابتسمت وهي تأخذ الورد من يده محاولةً أن تتذكر متى كانت آخر مرة تلقت فيها الورد من أحدهم؟

- حلو أوي الفستان بتاعك، وجميلة أوي السلسلة اللي إنتِ لابساها، شكلها مميز.

وضعت سهام أصابعها على السلسال الذي يحيط برقبتها، وهي تتذكر ومضات من الماضي، حازم الذي وضع هذا السلسال حول رقبتها منذ سنوات ولم تجسر على نزعه، أرادته أن يظل حول عنقها ليُذكرها بما حدث.

- عندي من زمان مش باقلعها. عزيزة شوية عليَّ.

- آه. أكيد اللي ادهالك عزيز عليكِ برضو.

شردت سهام للحظات وهي تتذكر المرة الأخيرة التي رأت فيها وجه حازم، وقد حدقت عيناه إلى عينيها بقوة. أغمضت عينيها وهي تهز رأسها بقوة حتى

تنفض من عقلها صورة حازم ولقاءهما الأخير.

- مالك؟ أنا آسف لو باتكلم عن موضوع مش لطيف.

- لا أبدًا، ده موضوع راح لحاله من زمان. قولي بقى إنت عملت إيه في العميل اللي اتكلمنا عنه؟

لمعت عيناه وبدأ يتحدث ويسرد كل شيء عن العميل، وكيف أنه قد رتَّب كل شيء معه حتى تتم هذه الصفقة المهمة. ظل يتحدث بنفس الحماس وهي توافقه بابتسامة أو إيماءة بسيطة، لكنها كانت في عالم موازٍ. كانت تستدعي ذكرياتها مع حازم وهو يضع السلسال حول رقبتها وقد شعرت بنفَسه الدافئ.

* * *

قالت له وهي تنظر إلى السلسال الذهبي الذي يلمع تحت انعكاس الضوء في المرآة: - غريب أوي الشكل ده يا حازم، له معنى ولَّا بس عجبك؟

احتضنها من الخلف وهو يداعب خصرها بيده:

- إنتِ تعرفي عني إني باجيب حاجة من غير معنى.

- طيب معناه إيه؟

- معناه الإخلاص والحب غير المشروط.

- بس غريبة إنه عامل شوية زي الخنجر.

- آه. عشان اللي يخون الحب ده يستاهل الموت.

* * *

عادت إلى الواقع وهو يسألها عن رأيها في فقرة كتبها عن هذه الصفقة مع العميل، فرسمت علامات الانبهار على وجهها وهي تخبره بأنها تعجبها جدًّا، فارتسمت علامات الفخر على وجهه، فابتسمت في عقلها بسخرية، فالرجال يحبون هذا الشعور؛ أنهم الأبطال الخارقون المستحقون للثناء طوال الوقت، وهو أحد دروس الحياة عن الرجال التي تحفظها عن ظهر قلب. نظرت إلى ساعتها وهي تفكر في توني الذي يقبع في البيت ينتظرها، فقالت له وهي تعتذر: - أنا آسفة لازم أمشي عشان الوقت اتأخر، هادرس الملف بتاع العميل كويس وأرد عليك.

- بدري كده؟! أنا كان نفسي نقعد مع بعض أكتر.

قالت بلهجة تعمدت فيها الدلال الذي يشوبه الحياء المصطنع: - وأنا كمان كان نفسي أقعد أكتر، بس فعلًا لازم أمشي، تتعوض.

- خلاص، مستني مكالمتك.

قامت وهمت بالخروج من المطعم إلا أن مسمارًا ما تعلق بفستانها الأصفر، فتمزق جزء منه فتأوهت بضيق وهي تنظر إلى الثقب الذي يقبع في وسط الفستان، وقد هُرع هو إليها ليتأكد أنها بخير بعدما سمع صوتها: - فيه حاجة؟ اتعورتِ؟

- لا أبدًا، بس شكل الفستان اتحسد!

إبراهيم وياسمين

اليوم

دلف النقيب إبراهيم من باب الحديقة الخلفية لبيت ياسمين، بعدما فتحت له الأخيرة الباب عبر جهاز التواصل الآلي، وأخبرته بأنها في الحديقة. كانت تقطن في فيلَّا صغيرة في إحدى المدن الجديدة هي الأخرى. كانت الحديقة صغيرة منمقة وبها أرجوحة خشبية وطاولة للقهوة تستقر في أحد الأركان. كانت ياسمين تجلس في الحديقة شاردة وهي تحتسي كوبًا من القهوة الساخنة.

- مساء الخير مدام ياسمين، أنا النقيب إبراهيم من المباحث.

- مساء النور، اتفضل حضرتك، تحب تشرب إيه؟

- لا أبدًا ولا حاجة. أنا كنت محتاج أسأل حضرتك كام سؤال كده.

- اتفضل، بس عن إيه؟

- هيثم سالم. إيه علاقتك بيه بالظبط؟

قالها إبراهيم وهو يتأمل ملامح ياسمين التي وإن كانت تنظر إليه لكنها ما زالت تبدو شاردة الذهن.

- ولا أي حاجة، كان الدكتور بتاعي.

- من قد إيه؟

- من حوالي سنة وكام شهر كده رُحتله.

- ليلة ما اتقتل، إنتِ كلمتيه في التلفون الساعة تلاتة الصبح لوقت طويل، إيه السبب؟

- عادي كنت مضايقة من حاجة وكلمته عشان أفضفض معاه شوية.

كانت قرون استشعار إبراهيم وحسه الأمني قد جعلاه يشعر بقوة بأنها تخفي الكثير. هذه السيدة لديها قصة معقدة وذات صلة مباشرة بقضية مقتل هيثم. هذا الهدوء الذي تتكلم به وشرودها لم يخدعاه بل على العكس تمامًا، فهي بلا شك تعرف أكثر مما تقول.

- والعادي إن الدكتور النفسي يفضل يكلم مريضة عنده تلات ساعات متواصلة الساعة تلاتة الصبح؟ مش غريبة شوية دي يا مدام ياسمين؟!

صمتت ياسمين وهي تنظر خلف كتفه نحو شيء ما، فما كان منه إلا أن التفت لاإراديًّا إلى الخلف، ليجد طاولة صغيرة ملقى عليها بعض الأوراق لا تبدو من طريقة وضعها والتراب الذي يظهر واضحًا عليها أنها ذات أهمية. تعجب من نظرتها الغريبة وشعر بأنه لن يحصل منها على شيء، وإن كان قد

عقد العزم على التحري بعمق عنها وعن زوجها، ربما يذهب إلى كريم أيضًا ليعرف طبيعة مرضها وسبب ذهابها إلى هيثم من البداية. همَّ بالقيام وتركها، لكن رسالة واردة من علاء أخبرته بأقوال حسام الأخيرة، وبأنها في الغالب آخر مَن تحدث هيثم معه قبل مقتله عن طريق هاتف حسام.

- مدام ياسمين. معلش أنا محتاجك تيجي معايا القسم عشان نحقق هناك بشكل رسمي، لأن واضح إنك مش واخدة الموضوع بجدية.

ارتبكت ملامح ياسمين قليلًا، وقد ظهر عليها القليل من الخوف.

- أنا مش فاهمة أنا دخلي إيه بقضية هيثم دي؟! مجرد دكتور كنت باروحله لا أكتر ولا أقل.

- مدام ياسمين، يوم ما هيثم اتقتل حضرتك كنتِ في الكوفي شوب اللي جنب المكان اللي اتقتل فيه صح؟

- آه عادي برضو أنا باروح هناك كل يوم.

- وإشمعنى اليوم ده رُحتِ بدري قبل ميعادك؟

- كان عندي اجتماع بدري، عادي جدًّا برضو.

- واضح إن كل حاجة بالنسبة لك عادي.

نظر إليها إبراهيم بحدة، وقد أشاحت هي بعينيها بعيدًا، وقد بدأت تشعر بالتوتر، وقامت من مقعدها وظلت تلف وتدور حول المقعد الذي كانت تجلس عليه، وما زالت عينا إبراهيم المتفحصتان تلاحقانها.

- مدام ياسمين. أنا عارف ومتأكد إنك كلمتِ هيثم من تلفون حسام قبل ما يتقتل بكام ساعة، يا ريت تكوني صريحة معايا عشان أقدر أساعدك لو محتاجة.

ظلت ياسمين تدور حول المقعد وهي تحرك خاتمها الذهبي بعصبية واضحة، ثم تنهدت ونظرت إلى إبراهيم وقالت بنبرة شعر فيها بصدق حقيقي: - أنا فعلًا كلمته من موبايل حسام عشان موبايلي كان فاصل شحن، كنت واقعة في مشكلة وعايزة منه مساعدة أو رأي، وفضلت أتكلم معاه بالليل فعلًا لوقت طويل. في الآخر قالي تعالي قابليني الصبح في الكوفي شوب نتكلم.

قاطعها إبراهيم بتساؤل:

- وليه مش في العيادة؟ ليه يقابلك في الكوفي شوب؟

- أنا اللي طلبت أقابله بعيد عن العيادة، عشان كنت خايفة إن يكون حد من العيادة أصلًا هو سبب المشكلة اللي أنا فيها.

- أقدر أعرف إيه طبيعة المشكلة؟

- أنا آسفة فعلًا، مش هاقدر أقولك.

- طيب كملي، إيه اللي حصل بعد كده؟

- ولا حاجة، رُحت بدري لأني ما عرفتش أنام، وموبايلي كان فاصل شحن، فلما اديت موبايلي لحسام يشحنه كلمت هيثم من موبايل حسام عشان أعرف هييجي إمتى بالظبط.

- وقابلتيه؟

- الحقيقة اللي حصل إنه قالي هييجي على عشرة تقريبًا والساعة كانت قربت على تمانية، فقررت أروح الشغل أخلص شوية حاجات وأرجعله، خصوصًا إن الشغل برضو قريب، مفيش خمس دقايق تقريبًا من الكوفي شوب.

- وبعدين؟

- ولا حاجة، رجعت فعلًا على عشرة ولقيت عربية هيثم قدام الكوفي شوب، بس ما لقيتش هيثم نفسه.

- طيب ما كلمتيهوش ليه؟

- كلمته، بس تلفونه كان مقفول، وبعدين سمعت الخبر.

فكر إبراهيم قليلًا في ترتيب الأحداث الذي بدا له منطقيًّا، وبدت له نبرة ياسمين صادقة، لكنه على الرغم من ذلك يراوده شعور بأنها ما زالت تخفي الكثير. قام من مقعده وهو يعطيها بطاقة بها رقم هاتفه: - يا ريت لو افتكرتِ حاجة تانية تكلميني، وبرضو يستحسن ما تخرجيش من القاهرة غير لما تقوليلي.

استدار ليخرج من الباب تاركًا إياها خلفه، ليجذب انتباهه ظرف ذهبي اللون يقبع في المكان الذي كانت تنظر إليه سابقًا، ظهر منه طرف صغير، لكنه كان كافيًا بالنسبة إليه حتى يقوم بمواجهتها مرة أخرى، ويوجه إليها سؤالًا لم تتوقعه: - مدام ياسمين، إنتِ فيه حد كان بيبتزك؟

وقفت نورهان تنظر من النافذة بشرود. رأت سالم وقد أسرع الخطى إلى البناية، يكاد يجري ليقضي معها بعض الوقت خلسة قبل عودة عادل وعبد الرحمن. تنهدت وألقت نظرة سريعة على وجهها المتعب في المرآة، ثم عدلت من وضع ملابس النوم الواسعة التي ترتديها. وضعت أيضًا بعض مواد التجميل على وجهها لعلها تمحو آثار الإرهاق الذي ظهر بوضوح عليها، ثم فتحت الباب له فاحتضنها بعنف واستقبل شفتيها بقبلة ساخنة. ولم تمضِ لحظات إلا وكانا قد انتقلا إلى غرفتها من دون أن يتحدثا، يختلسان لحظات أصبح كلاهما يدمنها، إلا أنها تأوهت فجأة ودفعته عنها لتسرع إلى الحمام وتغلق الباب بعجالة. ارتدى بعض ملابسه سريعًا هو الآخر، وذهب إلى باب الحمام ليقف خلفه وهو يقول بقلق حقيقي: - نورهان إنتِ كويسة؟ محتاجة مساعدة؟

أتاه صوتها الواهن من الداخل:

- هاتلي بس حاجة ألبسها.

ذهب إلى الغرفة ليجلب لها بعض الملابس وهو ينظر بقلق إلى ساعة الحائط التي تخبره بقرب عودة صديقيه، فالتقط قميصه هو الآخر وناولها ثيابها، وارتدى ملابسه كاملة وهو يزفر بخيبة أمل، فقد تمنى أن ينهي ما بدأه قبل أن تجري إلى الحمام. خرجت نورهان وقد ظهر بوضوح على وجهها أنهما لن يستكملا ما كان يحدث بينهما قبل قليل. جلس بجوارها وهو يتساءل بعينيه ما الأمر يا حبيبتي؟

- أنا حامل يا سالم.

لم يستطع سالم أن يخفي ملامح الرعب التي ارتسمت على وجهه، ولم يسع نورهان إلا أن تبتسم ابتسامة خافتة من ملامحه التي بدت مضحكة: - ما تخافش. مش ابنك أصلًا.

- إزاي يعني؟!

- يعني كنت حامل من الأول يا سالم، وعشان كده أصلًا جيت إنجلترا، قلت أقعد مع جدتي وأهرب من مشاكل أهلي في مصر، بس جدتي برضو طردتني لما عرفت. أنا قلت كل السنين دي هنا هتكون متفهمة أكتر، بس للأسف ما حصلش. قابلت عادل بالصدفة وقلتله فساعدني إنه جابني هنا لغاية ما أموري تتصلح.

بدا على وجه سالم مزيج من الارتياح والحيرة، فقد فرح أن الطفل ليس منه، وأيضًا لا ينكر أنه يحبها بشكل أو بآخر ولا يدري ما الحل الآن؟ هل

يتركها؟ وكيف سيفعل ذلك وهي تعيش معه في نفس البيت؟ وأيضًا فهو لا يقوى على فراقها، ليس فقط تشاركهما الفراش بل مئات الأشياء الصغيرة التي لا ينكر أنه بدأ في اعتيادها لحد يصل إلى الإدمان في بعض الأوقات، ولا يريد أن يتخلى عنها الآن، ليس بعد فهو لم يمل منها. احتضنها وهمس في أذنها: - ما تخافيش أنا معاكي.

أزاحته لتتطلع إلى عينيه، وقد لمعت عيناها بحب وسعادة: - بتتكلم جد يا سالم؟ يعني مش فارق معاك إني حامل؟

- آه مش فارق معايا، أنا... أنا باحبك يا نوري.

سيد التمرجي ومشاجرة كريم

اليوم

جلس علاء وإبراهيم في غرفة الأول يحتسيان الشاي، ويدخن علاء كالعادة السيجارة الحادية عشرة في هذا اليوم. كان كلٌّ منهما يفكر في هذه القضية التي تشابكت أحداثها، ولم يظهر إلى الآن أي طرف خيط يقودهما إلى متهم ما. كانت هذه الجلسة لتلخيص ومراجعة كل ما يعرفان عن القضية إلى الآن، وكان علاء قد خطَّ في ورقة أمامه ما يلي:

ياسمين آخر مَن تحدث إليه، وحسب ما قالته لإبراهيم وصل إليها ظرف ذهبي هي الأخرى يهددها بشيء ما، وهي بالتأكيد تُخفي الأمر.

حسام آخر مَن صنع له القهوة، ولم يرَه يغادر المقهى على الرغم من أنه يقف أمام الباب أغلب الوقت.

نور فتاة تدعي أنه اعتدى عليها، وهي الأخرى معها ظرف ذهبي به صورها معه، وليس لها أثر إلى الآن!

سلسلة مفاتيح هيثم ملقاة في الساحة الأمامية للمقهى ومعها خلخال ليس معلومًا مَن صاحبته.

الفستان في الساحة الخلفية للمقهى، كيف انتهت به الحال في هذا المكان؟ ومَن صاحبته؟ أهي سهام فعلًا كما يدعي حسام؟

مكالمات هاتفية ورسائل موجهة إلى الدكتور عادل من القاتل بشكل مباشر.

قطعة من الورق من كتاب ما، وعنوان ما في إنجلترا.

قطع علاء الصمت وهو يقول لإبراهيم الذي لا يزال ينظر إلى الورقة التي خطها علاء ليلخص ما يعرفه عن القضية إلى الآن:

- إحنا لازم نغطس ونقب ونجيب نور دي، لأنها المشتبه به الأول، وحد مننا لازم يروح للي اسمها سهام دي كمان يحقق معاها عن الفستان والظرف اللي أنا متهيألي شُفته، عشان نتأكد، والدكتور اللي اسمه عادل ده فيه أي خبر منه تاني؟ حد تاني كلمه أو حاجة؟

- لأ ما أعتقدش سعادتك، ما كلمناش من آخر مرة اتكلمنا معاه، بس فيه حاجة جت على بالي سعادتك دلوقتِ.

- إيه يا إبراهيم قول؟

- ما أخدتش بالك سعادتك إن عادل وسالم هما الاتنين كانوا في إنجلترا مع بعض؟ ما يمكن الصلة والورقة جاية من هناك؟

أعاد علاء رأسه إلى الوراء وهو يفكر كيف لم يخطر هذا الأمر بباله، أن هناك رابطًا ما بين إقامة الطبيبين في إنجلترا معًا وهذه الجريمة، لكن ما الذي يربط سهام ونور وياسمين بهذه الفترة أصلًا؟ غالبًا حدثت منذ أكثر من ثلاثين

عامًا. تنهد وهو يفكر في أنها قضية فريدة من نوعها. كاد يرد على إبراهيم لكن طرقات على باب مكتبه سبقته وجعلته يرد عليها أولًا.

- سعادتك فيه واحد اسمه سيد المليجي عايز يقابل حضرتك، وبيقول موضوع مهم.

تبادل علاء وإبراهيم النظرات، وقد عرف إبراهيم على الفور أنه سيد التمرجي الذي يعمل في عيادة هيثم، في حين تجمَّد عقل علاء لعدة لحظات حتى تذكر من هو سيد.

- دخله واعملي قهوة، واعمل لإبراهيم باشا شاي.

- حاضر سعادتك، تحت أمرك.

لحظات ودخل سيد وهو يحمل في يده ظرفًا ذهبي اللون عليه علامة مميزة، ما إن رآه كلٌّ من إبراهيم وعلاء حتى لمعت أعينهما وترقبا بشدة ما سيقوله سيد عن هذا الظرف الذي لا بد أنه يشبه الظرف الذي وصل إلى كلٍّ من نور وسهام وياسمين.

- اتفضل يا عم سيد. تحب تشرب حاجة؟

- لا سعادتك متشكر، أنا كنت بس عايز أدي لسعادتك الظرف ده، اتلخمت يوم ما حصل اللي حصل للدكتور هيثم، الله يرحمه، وما جاش على بالي أديه لحضرتك.

قالها سيد وأعطى لعلاء الظرف الذي بدا فعلًا مثل دعوات الأفراح والحفلات، وكانت العلامة التي تتوسطه علامة مميزة. شعر علاء لسبب ما بأنه رآها من قبل، لم يكن قد رأى الظرف بوضوح عند سهام وكذلك لم يرَ الظرف عند ياسمين، لكنه ظل يشعر بأنه رأى هذه العلامة من قبل. قلَّب علاء الظرف في يده للحظات ثم فتحه ليخرج منه بعض الأوراق التي تفحصها بعناية، وقد قطب حاجبيه بتعجب مصحوب بتركيز، ثم مرر الأوراق إلى إبراهيم ليراها وقد تفحصها بنفس التركيز.

كانت الأوراق التي في الظرف هي عقد بيع مستشفى سالم لكريم، وقد وقَّع سالم في آخر الأوراق بخط واضح بل وختمها بختمه الشخصي تأكيدًا على رضاه عنها. تبادل كلٌّ من علاء وإبراهيم النظرات، ثم قال علاء لسيد:

- الظرف ده جالك إمتى يا سيد؟

- ده ما جاليش أنا سعادتك، ده جه للدكتور هيثم الله يرحمه قبل اللي حصل بكام يوم، وقامت خناقة لرب السما بينه وبين الدكتور كريم.

- سمعت أي حاجة من الخناقة دي يا سيد؟

- والله سعادتك ما سمعتش غير الدكتور هيثم بيقول «أنا هاحبسك وأحبسه هو كمان».

- والدكتور كريم كان بيرد يقول إيه؟

أطرق سيد برأسه نحو الأرض وهو يحاول أن يتفادى النظر بشكل مباشر في عينَي أيٍّ منهما، وقد ظهر التردد على وجهه قبل أن يقول بصوت يكاد يكون مسموعًا لعلاء وإبراهيم:

- الدكتور كريم... كان... كان بيقوله «لو قربتله أنا هاقتلك. فاهم؟ هاقتلك!».

صاحبة الفستان

كانت قد جمعت شعرها إلى أعلى في وضع ذيل الحصان الشهير، ووضعت السماعتين في أذنيها لتنساب الأغاني التي تحبها، ليحيطها شعور تحبه من الانعزال عن العالم كله، وقد ضبطت ساعة التدريب الخاصة بها وانطلقت لتجري، واضعةً الدنيا خلفها. علا صوت أنفاسها وهي تحاول بشدة أن تحقق الكيلومترات المطلوبة في وقت أقل من المرة السابقة. لمدة ساعة يوميًّا تجري متجاهلة كل ما في حياتها، الدنيا، أحزانها وآلامها وماضيها، تجري إلى الأمام وتضع كل تركيزها على مكان ستصل إليه، لكنها أحست أنها ليست على ما يرام اليوم، تجري وهي تشعر بمشقة. كانت قد اقتربت من بيتها وهي تشعر بأن الأرض تميد تحت قدميها. كادت تسقط قبل أن تمتد يد لتسندها، رفعت عينيها بتساؤل لترى علاء وقد بدا على وجهه بعض القلق. شعرت بغصة صغيرة في صدرها لا تدري سببها، ثم أشارت إليه أن يتركها من دون أن تنطق، فلم تكن قد استجمعت بعد أنفاسها.

- إنتِ كويسة؟

- آه، دُخت بس شوية. إنت كنت عايزني؟

- أيوه جاي أتكلم معاكي شوية.

- طيب اتفضل.

أشارت سهام إلى باب المنزل المفتوح وقد دخلت منه، وتبعها علاء الذي لا يزال يشعر بأنها ليست على ما يرام. صعدت الدرج بشيء من الصعوبة وهي تحاول أن تتماسك، وما إن دلفت إلى المنزل حتى أشارت إلى علاء بالجلوس وهي تلتقط زجاجة مياه وحبة من دواء لم يدرِ علاء ما هو، وانتابه الفضول ليعرف ما الذي تتناوله.

- متأكدة إنك كويسة؟ مش عايزاني أكلم دكتور مثلًا أو أوصلك لحد؟

علا شفتيها شبح ابتسامة وهي تنظر إلى عينيه بعمق أشعره ببعض الارتباك، فأشاح بوجهه في اتجاه آخر. تعجب حين نظر في اتجاه ما يبدو أنه غرفة نومها وكان بابها مواربًا، فرأى في المرآة المواجهة للفراش ما يبدو أنه رجل نائم. نظرت هي الأخرى إلى حيث ينظر وقد انتهت من كوب الماء الذي كانت تتجرعه.

- ده تونى، مش حد غريب.

نظر إليها بتساؤل وهي ما زالت تنظر إلى عينيه بعمق، وقد شاب نظراته بعض التحدي هذه المرة، ولم يشِح ببصره أو يدِر وجهه كأنما يقول لها أخبريني أكثر أريد أن أعرف قصتك.

- إنت كنت عايزني في إيه أصلًا يا سيادة المقدم؟

قالتها وقد ضغطت على حروف كلماتها لتخرج بنبرة من الدلال المصحوب بتحدٍّ، فنظر إليها علاء بتحدٍّ هو الآخر، ثم أخرج من جيب معطفه صورة للفستان الأصفر ووضعها أمامها: - الفستان ده بتاعك؟

نظرت سهام إلى الصورة بنظرة جانبية من دون اهتمام، ثم تركت علاء وقد أشارت إليه أن ينتظر قليلًا، مما أشعره ببعض الغضب والإهانة، فمَن هي حتى تتركه في وسط الغرفة وهو يُحدثها في مسألة مهمة لتختفي داخل غرفتها تاركةً إياه بمفرده، لكنها لم تتأخر فقد خرجت من غرفتها على الفور حاملة فستانًا أصفر يبدو مماثلًا للفستان الذي في الصورة تقريبًا ولا يميزهما سوى هذا الثقب الواضح في فستانها.

- ده الفستان بتاعي أخو اللي في الصورة، بس زي ما حضرتك شايف اتقطع وأنا خارجة بيه آخر مرة.

- تفتكري جبتِ الفستان ده منين؟

- آه من صفحة كده على الإنستجرام، تحب أكتبلك اسمها؟

- يا ريت لو تسمحي.

خطت بعض الأحرف بالإنجليزية على ورقة صغيرة وناولته إياها. شرع علاء في أخذها والخروج، لكن باب غرفتها فُتح وخرج منها توني، وقد أمسك في يده قميصًا قطنيًّا وهمَّ بارتدائه فقد كان عاري الجذع، وقد ظهرت عضلات صدره وبطنه بوضوح، وقد عضت سهام على شفتها السفلى في استمتاع وهي تتفحصه بنظرة غريبة أشعرت علاء مرة أخرى بعدم الارتياح.

- توني صاحبي. المقدم علاء بيحقق في قضية هيثم.

هز توني رأسه لعلاء بعدم اهتمامٍ أثار حفيظة علاء بشدة. تابع بعينيه توني الذي توجه إلى البار والتقط كأسًا وبدأ في سكب نوع ما من الخمور الموجودة. ألقى علاء نظرة على الساعة فوجدها لم تتعدَّ الثانية عشرة ظهرًا، فتعجب من تناوله الشراب الكحولي في مثل هذه الساعة، غير أنه لا عجب في هذا البيت الذي يبدو كأنه في عالم مختلف. تمنى علاء لو يعرف عنه أكثر، فمما يبدو له أن توني هذا له دور مختلف في حياة سهام، لكنه لم يتمكن من

السؤال عن أي شيء.

- طيب أنا هاستأذن يا آنسة سهام. وطبعًا إنتِ معاكي رقم تلفوني لو فيه حاجة خطرت في بالك عن القضية كلميني.

- طيب وما ينفعش أكلمك وخلاص؟

قالتها سهام بنبرة ساخرة مشوبة بدلال مصطنع، وهي تحدق في عينَي علاء بنفس التحدي والجرأة المعتادة، في حين زفر توني بصوت مرتفع في استياء واضح. أدار علاء رأسه نحوه لينظر إلى ملامح وجهه التي عبَّرت بوضوح عن الغضب وهو ما زال يحتسي كأس الخمر التي سكبها لنفسه سابقًا. اختار علاء أن يتجاهل ما قالته سهام، ومضى نحو باب المنزل ليغادر. ما إن هبط الدرج حتى وجد حارس المنزل المقابل الذي تحدث معه سابقًا واقفًا على الناحية الأخرى من الشارع فذهب إليه وأخرج من جيبه سيجارة ليعطيها له بعد تحيته، وقد قام الحارس مهللًا: - أهلًا يا باشا، أهلًا نورت. أعمل لحضرتك كوباية شاي؟

- لا متشكر يا عبده. باقولك إيه، إنت تعرف حد بييجي لسهام عامل كده شعره ديل حصان زي البنات؟

ظهرت علامات الامتعاض على وجه عبده وهو يقول ويشير بعينيه إلى شيء ما خلف علاء: - ربنا يستر على ولايانا. ده سي توني سعادتك صاحب الموتوسيكل الأزرق ده.

ألقى علاء نظرة سريعة على الدراجة النارية التي تقف شامخة بجوار دراجة سهام النارية التي تبرق باللون الأحمر.

- ومين بقى سي توني ده، وحكايته إيه؟

- سعادتك ده الباشمهندس أحمد اللي ساكن في الشارع اللي ورانا، كان مع الست سهام في الكلية، ودايمًا رايحين جايين مع بعض، كان عايش في بلاد بره طول عمره، لغاية ما جه هنا من ييجي عشرة أو خمستاشر سنة كده.

- تعرف اسمه أحمد إيه؟

- مش عارف سعادتك والله، بس هو اسمه حاجة غريبة كده، توراني... توحناري. حاجة كده، عشان كده سعادتك بيقولوله توني.

أخرج علاء سيجارة أخرى مع القليل من النقود وأعطاهما للحارس الذي تلقاهما بسعادة كالعادة، ثم التقط بكاميرا هاتفه صورة للدراجة النارية الخاصة بتوني، حتى يستكمل تحرياته عنه برقم لوحة التسجيل الخاصة به، فهو لسبب ما يشعر بأن وراء هذا التوني قصة ما هو الآخر!

إبراهيم وكريم

اليوم

جلس كريم على مقعد مكتبه في المستشفى، ولم يجرؤ قَطُّ على أن يخطو نحو مكتب الدكتور سالم، على الرغم من أن الأخير أمره أن يتجاوز ذلك عدة مرات، وخاصة بعد أن تُوفي هيثم، فلم يعد هناك أي عائق أو حتى شعور بالذنب نحو قبوله لملكية هذا المنتجع العلاجي الكبير الذي لطالما تمنى مثله. كان سالم وزوجته يحتفظان بما يكفي من الأموال والأصول التي تجعل ما يتبقى من حياتيهما نعيمًا رغدًا حتى وإن لم يأخذا شيئًا من أرباح المستشفى، على الرغم من أن الأوراق تنص على أن لسالم وزوجته جزءًا ثابتًا من أرباح المستشفى، في حين تظل ملكية المستشفى والمتبقي من الأرباح باسم كريم وحده. ألقى نظرة سريعة على الصورة التي وضعها على سطح مكتبه، كانت صورته يوم التخرج وقد وقف بجواره هيثم مبتسمًا واضعًا يده على كتفه بحب صادق. ذرف كريم دمعة من دون أن يشعر، لكَم أحب هيثم، فقد نشآ معًا، وكان بالنسبة إليه الأخ الأكبر، وكانت بينهما ذكريات كثيرة ولا شك أنه يفتقده الآن، يفتقد ضحكه ومزاحه في العيادة. على الرغم من عدم سعيه في أمر ملكية المستشفى، فإنه ما زال يشعر كما قال له والده بأنه اغتصب حق هيثم.

- دكتور كريم، دكتور كريم.

أخرجه صوت مديرة مكتبه من أفكاره، فأسرع يمحو ما بدا أنه بقايا دموع، واعتدل في جلسته وهو يضع نظارته الطبية على عينيه، ويسألها ببعض الحزم:

- فيه إيه يا سوسن! مش نبهت محدش يدخلي قبل المرور على الحالات!

- أنا آسفة يا دكتور والله، بس فيه ظابط من المباحث عايز يتكلم مع حضرتك ضروري.

تنهد كريم بضيق وهو يعتدل أكثر في مقعده ويثبت نظارته على عينيه كأنما يتأكد من أن هيبته ووقاره كطبيب ما زالا موجودين، وأن ما سال من عينيه من دمع لم يُلحظ.

- دخليه، وادخلي علينا بعد ربع ساعة بالكتير فكريني بالمرور.

- حاضر يا دكتور.

دلف إبراهيم إلى مكتب كريم الذي استقبله بترقب وترجى ألا تطول هذه المقابلة، فهذا اللقاء هو آخر ما يود القيام به حاليًّا.

- أهلًا يا فندم اتفضل. تحب تشرب إيه؟

قالها وهو يضغط على زر المكتب الذي أمامه ليحضر عامل المقصف الذي دلف تقريبًا في نفس اللحظة، ولم يكن إبراهيم قد استقر حتى في المقعد المقابل لكريم، فيما يبدو على الأغلب أن مديرة مكتب كريم قد استدعته.

- شاي سكر مظبوط، وكوباية ميه.

خرج العامل مسرعًا ليعد طلب إبراهيم الذي أسند يده إلى مكتب كريم ونقر عليه بأصابعه وهو يمعن النظر في عينيه، مما أشعر كريم ببعض القلق رغمًا عنه، فهو لا يدري بعد ما الذي أتى به من الأساس في هذا الوقت. لم يسأله عن أي شيء مباشرة، بل على العكس بدا عليه التراخي والمماطلة.

- اتفضل، أقدر أساعدك في إيه؟

- دكتور كريم آخر مرة شُفت هيثم فيها كانت إمتى؟

- أعتقد اتكلمت في كده مع المقدم علاء، أنا شُفته في العيادة قبلها بكام يوم.

- وهو كان متعود يغيب عن العيادة كذا يوم ورا بعض؟

صمت كريم للحظات وهو ينظر إلى عينَي إبراهيم الذي احتفظ بنظرة الحزم والجدية: - لأ هو كان بيروح كل يوم، أنا اللي كنت واخد يومين أجازة.
مال إبراهيم إلى الأمام قليلًا وقد اقترب رأسه من رأس كريم الذي تراجع بارتباك: - كنت عيان كفى الله الشر يا دكتور ولَّا إيه؟
قال كريم ببرود وقد شعر بأن وراء لهجة إبراهيم سخرية لم يدرِ سببها: - لا عادي مجرد أجازة.

- يعني مش عشان اتخانقت مع هيثم؟!

ظلت عينا إبراهيم تحدقان إلى ملامح وجه كريم التي تشنجت لثوانٍ، ثم لانت لتعود إلى البرود مرة أخرى، ثم قال بنبرة بها بعض التحدي: - لأ عشان سافرت أخلص ورق المستشفى.

- المستشفى بتاعة هيثم.

- المستشفى بتاعة الدكتور سالم اللي كتبهالي.

كان إبراهيم لم يَقرُب كوب الشاي الذي أحضره عامل المستشفى منذ مدة، لكن فجأة أمسك بالكوب وارتشف منه بهدوء، وقال لكريم الذي كان يراقبه ببعض الغيظ: - وإنت شايف بقى يا دكتور إنه عادي إن الدكتور سالم يكتبلك المستشفى بدل ما تروح لابنه الوحيد؟

تنهد كريم وقد بان على ملامح وجهه ما بدا لإبراهيم أنه أسى حقيقي، وهز رأسه وهو يقول: - ممكن تسأل الدكتور سالم في الموضوع ده مش أنا، أنا اتفاجئت زيك بالظبط، وكنت خايف من رد فعل هيثم.

- طيب ورد فعل هيثم كان إيه؟ ومين أصلًا اللي قاله؟

زفر كريم بضيق ونهض عن مكتبه، وقد بدا على وجهه بعض الحزن، فهو يعلم أن آخر مرة التقى فيها بهيثم كانت وهما يتشاجران وقد تعالت أصواتهما، وقد تمنى أن يعود الزمن فيحتضن هيثم.

- مش عارف عرف إزاي، بس أنا كنت باهدِّي الدكتور سالم بس لأنه كان مصمم، لكن ما كنتش ناوي آخدها فعلًا، بس هيثم عرف ودخل عليَّ أوضتي في العيادة وكان هيضربني.

- وبعدين إيه اللي خلاك تقتله؟

قالها إبراهيم بشكل بدا مسرحيًّا ودراميًّا لكريم وفيه استهانة بمهنته كطبيب نفسي حذق، فحتى إن كان قد قتله فهو لن يعترف هكذا.

- أنا ما قتلتوش ولا حاجة.

- سيد التمرجي سمعك بتقوله هاقتلك.

- مش معنى كده إني قتلته.

- مش غريبة إنه يتقتل بعد ما تهدده؟!

قطعت الحوار طرقات مديرة مكتب كريم التي دخلت كما أمرها بعد ربع ساعة لتذكره بالمرور.

- خلي الدكتور حسين يطلع وأنا هاحصله على طول، أنا خلاص تقريبًا خلصت، ما أعتقدش المباحث بتاخد على شوية بعبعة في خناقة صح ولَّا إيه سعادتك؟

- صح يا دكتور، أستأذن أنا وأسيبك للمرور بتاعك، بس يا ريت لو هتسيب القاهرة تبلغنا.

- حاضر، تحت أمرك.

قالها كريم متململًا وهو يتابع إبراهيم الذي همَّ بالخروج فعلًا قبل أن يتوقف في منتصف الغرفة وقد وقع نظره على مجموعة من الصور المتراصة، وقد استرعى انتباهه شيء ما، فاقترب من الرف الذي يحوي الصور، كانت هناك صورة لثلاثة شباب تبدو قديمة، لكنه تبين بلا جهد الدكتور عادل وقد ظهر الدكتور سالم أيضًا، وكانت ملامحه كأن هيثم هو الموجود في الصورة، وفي المنتصف كان هناك طبيب شاب آخر بدا لوهلة أنه كريم نفسه، فاستنبط إبراهيم أنه أبوه. لم يكن يعرف إطلاقًا أن والد كريم له صلة ما بسالم وعادل، لكن فيما يبدو من الصورة التي يرتدون فيها جميعًا المعطف الطبي الأبيض

أنه كان طبيبًا مثلهما، أما ما توقف عنده إبراهيم للحظات وجعله يدقق النظر فهو ظهور صندوق بريد خلف هؤلاء الثلاثة مدون عليه نفس العنوان الموجود في ورقة الكتاب المقطوعة التي وُجدت بجانب جثة هيثم. أمسك الصورة وقد تأكد مما كان يشك فيه، ثم التفت إلى كريم متسائلًا: - إنت والدك دكتور؟

التفَّت مجموعة من الطالبات حول المُحاضر الشاب الذي يظهر جمال عينيه من خلف عويناته، وقد انتشرت رائحة عطره المثير في أرجاء غرفة المحاضرات. لم يكن أحد يحتاج إلى كثير من المعرفة ليدرك أن الطالبات قد التففن لا لمادة علمية إنما هي محاولات بائسة لجذب انتباه هذا المحاضر. هو أيضًا كان يعلم بلا جهد هذا الأمر، لكن عينيه كانتا تجوبان الغرفة بحثًا عن طالبة بعينها، طالبة يلمع شعرها بضوء أحمر تحت أشعة الشمس التي تتخلل نوافذ الغرفة المفتوحة، إلا أنها لم تكن حاضرة. تأفف وهو يحاول التخلص من أسئلة الطالبات المفتعلة، حتى يذهب إلى غرفته ويحادثها على هاتفها المحمول، على الرغم من أنه لم تكن الهواتف المحمولة قد انتشرت، فقط قلة قليلة من الناس تملكها، وطلاب هذه الجامعة من الفئة التي تمتلك كل شيء أولًا.

- ألو. إيه ما جيتيش يعني النهارده المحاضرة؟

- جدو تعبان شوية، ما حبتش أسيبه لوحده.

- ألف سلامة. طيب هتيجي بالليل؟

- هاشوف يا حازم، لو كان اتحسن هاجي.

- إنتِ وحشتيني أوي على فكرة.

شعر بابتسامتها الخجلى عبر الهاتف، وتمتمت بصوت خفيض خشية أن يسمعها جدها الذي يحذرها دائمًا منه: - إنت كمان وحشتني، هاحاول آجي بالليل لو قدرت.

- مستنيكِ على نار.

أغلق الهاتف وهو يمنِّي نفسه بأمسية معها، فقد كانت فاتنة في كل شيء، ملامحها وجمالها الأخاذ ورقتها وذوقها فيما ترتدي، والأهم ثروتها التي سترثها عن جدها الذي يبدو من مرضه أن أيامه الأخيرة تقترب. كان من عائلة كبيرة أرستقراطية كما يبدو عليه ويظهر على طريقته في الكلام وفي وظيفته في هذه الجامعة الخاصة التي تخرج هو شخصيًّا فيها، لكن أباه كان مقامرًا شرهًا وأنهى كل ثروتهم على هذا الداء اللعين، فأصبح عليه أن يحيا براتبه البسيط بعدما تعود أن يعيش بأضعافه. لم يكن يكرهها أو يتعمد إيذاءها، لكنه أيضًا لم يكن يحبها بشكل خاص. كانت جميلة ومناسبة لتصبح زوجة مستقبلية له في

ظل ظروفه الحالية، تصغره بعشرة أعوام منبهرة بوسامته ولباقته وكونه أستاذها الذي تتلقى منه العلم، سعيدة كأي طفلة أن وقع اختيار المعلم عليها مما أشعرها بالتميز. كان جدها لا يحبه، فقد سبر أغواره وأدرك على الفور أنه لا يمتلك روحًا نقية كما يدعي، وعلم من خلال علاقاته تاريخ والده ووضعهم المادي، لكنه لم يكن يملك سوى تحذير سهام، فهو لم يقوَ على نهرها قَطُّ أو توبيخها على أي شيء. كانت طفلته المدللة، خاصة بعدما تُوفي والداها لتتربى في أحضانه. لم يقوَ على أن يحرمها من أي شيء بعدما حُرمت من والديها، لكن أمر جدها كان هينًا، فالرجل قارب التسعين وبدأ المرض يأكل جسده، فقليل من الصبر ويخلو الجو لحازم الذي ينتظر وعيناه على الثروة التي ستأتي وعلى رأسها فاتنة الجامعة هدية. مضى لينهي ما تبقى له من محاضرات حتى يأتي الليل، ويرى إن كانت ستأتي أم لا.

- رايحة فين يا سو؟

- عندي عيد ميلاد واحدة صاحبتي يا جدو.

قالتها وهي تنظر إلى الأرض وتتحاشى النظر إلى عينيه الخبيرتين بها، فهو سيعلم أنها تكذب عليه حتمًا، وقد أدرك على الفور أنها ذاهبة للقاء المدعو «حازم»، فتنهد وهو يدعوها لتجلس بجواره على الفراش ثم ضمها إلى صدره، وقال لها بحنان وهو يمرر يده على شعرها: - خدي بالك من نفسك يا حبيبتي، الدنيا مش كلها ناس بتحبنا، وكتير مش بنبقى عايزين نشوف.

- بس حازم بيحبني يا جدو.

- يا ريت يا حبيبتي، يا ريت أكون غلطان ويكون بيحبك بجد، أنا عايزك سعيدة.

- بيحبني يا جدو وهتشوف.

أزاحها جدها من حضنه وتطلع في عينيها، وقد فاضت عيناه حبًّا وحنانًا لحفيدته الوحيدة التي تطلعت إلى وجهه ببراءة وخوف، فهي تتمنى أن تكون على حق، وأن يكون جدها مخطئًا، وأن يكون حازم هو الفارس الذي ستعوض معه الحنان الذي فقدته حينما فقدت أبويها.

- روحي يا سهام قابليه، بس أرجوكِ يا حبيبتي خدي بالك من نفسك، وما تكدبيش على جدو تاني.

نظرت إلى الأسفل بخجل، ثم طبعت على جبينه قبلة حانية، وأحكمت غلق معطفها الفرو الأبيض الذي جعلها تبدو مثل قطة جميلة فاتنة، ثم قالت لجدها: - حاضر يا جدو، أنا آسفة مش هاعمل كده تاني، ومش هاتأخر.

دلفت إلى بيت حازم الذي كان في استقبالها وعيناه تلمعان بسعادة، فقد أعد لحضورها العُدة. فهي لم تكن توافق كل هذه الشهور على زيارته في بيته. كانت لقاءاتهما في أماكن عامة دائمًا. لكنها اليوم قبلت وكان هو قد وضع الزهور والشموع في كل مكان. كانت شقته على الطراز الحديث، صغيرة معدة ليسكنها شخص واحد، وكان قد وضع على الفراش هدية ملفوفة بشريط أحمر وقد خطَّ على كارت صغير ذهبي اللون: «قد أصابني خنجر حبك في قلبي».

- خنجر حبي مرة واحدة، إشمعنى خنجر يعني؟!

- هتعرفي بعد شوية.

جلست لتأكل معه على الطاولة التي أعدها، وما لبثت الموسيقى أن بدأت، وسريعًا ما انطلقت يداه لتتلمسا طريقهما إلى جسدها الذي بدأ في الانفعال، وقبل أن تدرك كانت شفتاها تذوبان بين شفتيه، ولم يحتَج الأمر إلى كثير من المقاومة حتى تنتهي بها الحال إلى أن تستلقي بجوار العلبة ذات الشريط الأحمر على الفراش بين يديه الخبيرتين، ومن بين آهات النشوة سألته: - حازم، إنت بتحبني بجد؟

- أنا أموت من غير حبك يا سو.

علاء عند المقهى

اليوم

أغلق علاء باب سيارته وهو يترجل بلطف أمام المقهى. لم يكن يعرف بالضبط ما الذي أتى به إلى المقهى، لكنه أراد أن يتحدث لبعض الوقت مع حسام ويتفحص المكان، لعل ذلك يدله على ما حدث قبل مقتل هيثم. كان أكثر ما يشغل باله هو سلسلة مفاتيح هيثم، ما الذي جاء بها إلى ساحة المقهى الأمامية؟

كان علاء ما زال واقفًا أمام المقهى، وقف حيث وجدوا سلسلة المفاتيح والخلخال. يبدو أن هذا الموضع تقريبًا خلف المكان الذي وقفت به سيارة هيثم بالضبط. أدار عينيه بضع مرات، ثم اتجه إلى باب المقهى حيث كان يقف أحد العاملين على منضدة البيع مكان حسام. طلب لنفسه كوبًا من القهوة وهو يعرِّفه بنفسه ويسأله عن حسام. أكد له العامل أنه موجود لكن اليوم دوره في إخراج القمامة إلى الساحة الخلفية وتنظيفها. هز علاء رأسه متفهمًا، ووقف منتظرًا قهوته التي أتت ساخنة شهية فارتشفها باستمتاع كاد ينسيه هم هذه القضية التي لا تبدو أنها ستنتهي سريعًا. اصطحب قهوته وخرج من الباب الخلفي مارًّا بجوار حمام السيدات، ليجد حسام منحنيًا حول صندوق القمامة يقوم بمهامه بنشاط. ابتسم بحنان أخوي فهو يحترم طالب الهندسة الذي ينظف القمامة ليتخرج ويعول أسرته. تنحنح ليُعلم حسام بوجوده فرفع وجهه عن صندوق القمامة ليرى علاء وهو يقترب.

- أهلًا بحضرتك، تحت أمرك، أقدر أساعد حضرتك إزاي؟

- إزيك يا حسام، أخبار الشغل والدراسة إيه؟

ابتسم حسام وقد شعر بصدق سؤال علاء عن أحواله:

- والله يا فندم ماشي الحال، ربنا كريم.

- أنا جاي عشان عايزك تعصر دماغك كده معايا وتقولي لو فيه حاجة تانية حصلت يوم الحادثة إنت ما قلتهاش.

- والله سعادتك أنا قلت لحضرتك كل حاجة فاكرها، كان يوم عادي زي أي يوم.

كان علاء يعلم بحدسه أن حسام لا يخفي شيئًا بعينه، وهو شخصيًّا لا يدري ما الذي يطمح إليه من وراء هذه الزيارة، لكنه يتمنى أن يتذكر حسام شيئًا جديدًا عن هذا اليوم لعله يزيح بعض الغموض عن هذه الجريمة التي طال البحث فيها.

- إنت ليك أيام معينة بتكون مسؤول فيها عن الزبالة يا حسام؟

تعجب حسام بعض الشيء من السؤال، إلا أنه أجاب بأريحية:

- أيوه سعادتك، كل واحد فينا له أيام، هي شيفتات سعادتك، وأنا باطلعها أربع وسبت.

كان هيثم قد قُتل يوم الثلاثاء، إذن لم يكن يومه وهو منطقي حيث قضى يومه أمام منضدة بيع القهوة، يقدمها للناس.

- مين اللي طلَّع الزبالة اليوم ده؟ تفتكر؟

حاول حسام أن يتذكر ثم أتاه سيل من الذكريات سريعًا، فهذا اليوم لم يُخرج القمامة أحد في الموعد المعتاد، حيث كان لطفي المسؤول في هذا اليوم مريضًا، ولم يكن هناك أحد يفعل ذلك مكانه، فظلت القمامة في موضعها حتى أخرجها شخص آخر في موعد دوام مختلف، ولم يكن حسام أيضًا.

- سعادتك آخر واحد في الشيفت طلعها عشان لطفي كان عيان اليوم ده، بس أنا مش عارف مين آخر واحد في الشيفت عشان أنا بامشي بدري سعادتك، عشان المحاضرات.

شعر علاء أن وراء هذا الأمر شيئًا ما، لا يدري ما هو، لكن الفستان الملقى في القمامة كان لا بد أن يثير انتباه من يُخرج القمامة.

- هو ممكن توصفلي إنت بتعمل إيه في يوم الزبالة ده يا حسام، يعني إيه بالظبط اللي كل واحد بيعمله؟

- ولا حاجة سعادتك، بناخد الزبالة من جوه ونطلعها للصندوق القريب ده اللي حضرتك شايفه، وبعدها بييجي حد من بتوع عربيات الزبالة يحطها في الصندوق البعيد ده، عشان ده مخصوص بيركب على العربيات وبيشيلها وبيرجع الصندوق فاضي مكانه، كمان خمس دقايق كده العربية هتيجي.

نظر علاء إلى ساعته كانت قد اقتربت من وقت مقتل هيثم. إذن مَن ترك الفستان تركه بعد أن أتت سيارة القمامة وجمعتها، لهذا لم يرَ من يُخرج القمامة الفستان، غير أن في هذا اليوم بالذات من أخرج القمامة أخرجها متأخرًا، فكيف ظل الفستان في الصندوق الأمامي الذي يقف عنده حسام الآن؟

- هو ممكن نعرف مين آخر واحد كان موجود في الشيفت اليوم ده، ولطفي يا ترى موجود النهارده؟

- لطفي ما جاش النهارده، لسه الشيفت بتاعه مسائي، وممكن نبص في ورقة الانصراف والحضور ونعرف مين اللي كان موجود يومها، هي متعلقة جوه.

همَّ علاء أن يصطحب حسام إلى حيث الأوراق ليرى مَن الذي أخرج القمامة في ذلك اليوم ليسأله إن كان قد رأى الفستان أم لا، غير أن انتباهه تشتت حين رأى سيارة القمامة الكبيرة التي أتت لتأخذ الصندوق المخصص لها، فما إن أزالت الصندوق حتى ظهر من خلفه ممر في غاية الضيق يكاد لا يُرى. لم

يصدق علاء أن ما ينظر إليه هو البناية التي قُتل فيها هيثم. ترك حسام الذي لم يفهم سر الانفعال الذي ظهر على وجهه، ومشى بخطوات سريعة تشبه الركض، ودخل بصعوبة إلى الممر وقد اتسخت ملابسه بتراب الحوائط التي تحيط بهذا الممر الضيق، ليجد نفسه على أعتاب البناية المشؤومة. إذن فهيثم في أغلب الأمر استخدم هذا الممر. كيف لم يلحظه أحد هنا؟! كان ضيقًا بحق ويختفي تمامًا وراء صندوق القمامة، فلم يُلحظ كل هذا الوقت. لقد حل اللغز المتعلق بكون حسام لم يرَ هيثم يخرج من المقهى. تساءل لكن لماذا فعل هيثم ذلك؟ لماذا ذهب إلى هذه البناية؟ ولمَن هذا المكان المستتر؟ ومَن أخرج القمامة في هذا اليوم كان حتمًا سيرى الفستان، لكن لماذا ظل الفستان مكانه في الصندوق الأول؟!

عاد إلى المقهى وقد طلب من حسام اسم ورقم مَن ألقى القمامة في هذا اليوم ورقم لطفي أيضًا الذي تغيب عن عمله، وخرج وفي يده الورقة التي تحمل الأرقام والأسماء، لكن في لحظة خروجه وهو يفتح باب المقهى سطع في عينيه نور كأنه وميض صادر من كاميرا، وقد ضرب طير ما بجناحيه في نفس اللحظة، مما جعل علاء يجفل من المفاجأة وكاد يسحب مسدسه بعد أن اضطرب قلبه بسبب تلك الحركة المفاجئة. للحظات لم يستوعب ما حدث لكنه بعد أن هدأ تبين أن طيرًا يبدو كأنه أحد الطيور البرية الغريبة، يطير حول المقهى وحول رقبته جهاز يبدو كأنه جهاز تتبع ما، وللحظات رأى علاء الضوء الوامض مرة أخرى، وهذه المرة تيقن أنه لكاميرا فنظر في اتجاه الضوء وتبين ظلًّا من بعيد على الجانب الآخر من الطريق يقف ساكنًا. بدا لعلاء على الرغم من طول المسافة كأنه شبح رجل ما!

إبراهيم والفستان

اليوم

أخذت أصابع إبراهيم تنقر على هاتفه المحمول ليفتح تلك الصفحة الخاصة بالفستان التي اشترت منها سهام فستانها الأصفر. كانت لماركة مصرية تمتلكها فتاة مصرية درست التصميم في فرنسا، ووضعت على الصفحة مجموعة مختلفة من الفساتين والحقائب التي بدت لإبراهيم جميلة، لكنها باهظة الثمن جدًّا. استوقفته جملة وحيدة مكتوبة في التعريف الخاص بالصفحة، أن القطع متفردة أي أن المصممة لا تصنع قطعتين متماثلتين. أخرج من جيبه صورة لفستان سهام التي أخذها علاء وهو في بيتها ووضعها بجوار الفستان الذي وُجد في صندوق القمامة في الساحة الخلفية للمقهى. كانت علامة الماركة واضحة عليهما، وكانا لعينَي إبراهيم متماثلين. أمعن النظر عدة مرات لعله يجد اختلافًا بينهما، فبدا له الحزام مختلفًا إلى حدٍّ ما. عاد بنظره إلى شاشة الهاتف ليبحث عن رقم ليتواصل مع تلك الصفحة، لم يجد رقمًا لكنه وجد إعلانًا أن صاحبة الماركة ستكون في أحد البازارات التي تُقام بشكل شبه دوري في المولات. كان البازار من حسن حظه في هذا اليوم، وكان في أحد المولات القريبة منه كذلك. التقط الصور وانطلق إلى وجهته حيث صاحبة الصفحة. ضغط على زر الاتصال بمحسن صديقه الذي يعمل في الخارجية ليتحدث معه وهو في طريقه لرؤيتها.

- ألو محسن باشا، إزيك؟ فينك كده؟ محدش بيسمع عنك ليه؟

- إنت هتمثل يا إبراهيم ما أنا لسه مكلمك الشهر اللي فات عشان نخرج وزحلقتني زي كل مرة.

ابتسم إبراهيم بخجل فهو بالفعل لا يحب أن يخرج مع محسن وأصدقائه من روَّاد المقاهي وأحجار الأرجيلة التي تتراص فتمتص الهواء من صدره الذي يحاول جاهدًا الحفاظ عليه.

- خلاص يا محسن بقى ما يبقاش قلبك إسود أوي كده، ما إنت عارف إني مش غاوي قعدة الغرزة اللي بتعملوها دي.

- آه طبعًا الباشا الرياضي اللي بياكل أكل صحي وفيجي وجو البنات ده.

- الله يسامحك، ده إنت أصلًا بتشتغل في الخارجية يعني واجهة يا محسن مش تتريق.

- طيب يا عم، عمومًا إنت ليك وحشة يا إبراهيم.

- والله وإنت كمان، أنا هابقى أعدي عليك أعزمك على الغدا قريب، بس أنا دلوقتِ مزنوق في موضوع سريع معلش.

- اؤمر يا حبيبي عينيا.

في كلمات سريعة أخبره إبراهيم بقصة قضية هيثم والورقة والعنوان

المكتوب على الصورة والورقة، وما يريده منه بشكل غير رسمي، حتى لا يتأخر الموضوع، لأن القضية تزداد غموضًا، وكلٌّ من علاء وإبراهيم يتمنى أن تنتهي، فهناك ضغط كبير من الإدارة.

- طيب حاضر ولا يهمك، أنا هاجيبلك قرار الموضوع ده، ابعتلي بس رسالة على الواتساب بالعنوان وأسامي الدكاترة دول.

- اعتبره حصل يا باشا.

أنهى إبراهيم المكالمة وهو يصُف سيارته أمام المول الذي يوجد فيه البازار فقد كان قريبًا. ترجل من سيارته وأخذ يجوب بعينيه في أكواخ العارضين ليجد صاحبة الصفحة في آخر الممر. كانت خمرية اللون ترتدي فستانًا أصفر هي الأخرى، يبدو جميلًا عليها لكنه مختلف تمام الاختلاف عن الفستان الأصفر الذي جاء ليسأل عنه، لا بد أن الأصفر لونها المفضل.

- صباح الخير، النقيب إبراهيم من المباحث. حضرتك مدام ليلى؟

- أيوه أنا، إزاي أقدر أساعد حضرتك؟

- الفساتين دي من عند حضرتك؟

أمعنت ليلى النظر في الصور التي يحملها إبراهيم، ثم زمَّت شفتيها كأنها تحاول أن تتذكر شيئًا منها، ثم استدارت تاركة إبراهيم وقد أشارت إليه برأسها أن ينتظر لحظة. كانت تقلِّب في دفتر ما على الطاولة التي تقف عندها، ثم جاءت لإبراهيم بصورتين، صورة لسهام وهي ترتدي الفستان وقد توسطت الحزام نجمة ما، وصورة أخرى ظهرت فيها ياسمين وهي ترتدي الفستان نفسه تقريبًا، لكن به بعض الاختلافات الطفيفة، فالحزام مختلف بعض الشيء.

- أنا فاكرة موضوع الفستان الأصفر ده كويس. أصل أنا ما باعملش غير نسخة واحدة من كل فستان أو شنطة، لازم ون بيس.

- إشمعنى بقى الفستان ده عملتِ منه نسختين؟

أشارت إلى سهام وقالت:

- جاتلي بصورة للفستان الأصفر اللي اشترته المدام دي...

وأشارت إلى ياسمين، ثم أكملت:

- وقالت عايزة واحد زيه بالظبط، قلتلها أنا مش باعمل كده، فراحت قايلالي غيَّري في شكل الحزام وورتني الشكل اللي هي عايزاه، وبصراحة دفعت تقريبًا ضعف تمن الفستان، فقلت مش هيضر طول ما فيه حاجة متغيرة.

شكرها إبراهيم وهو يحاول أن يستوعب ما قالته ليلى. إذن فالفستان الملقى في القمامة هو لياسمين، أما فستان سهام فمعها والحزام المختلف

أيضًا معها. لكن الغريب هو إصرار سهام على عمل فستان مثله، خاصة أنه ليس من نوعية الملابس التي ترتديها غالبًا! وأين رأت سهام فستان ياسمين من الأساس؟ وهل هناك علاقة ما بين السيدتين؟ قطع أفكاره المضطربة صوت هاتفه المحمول الذي أضاء برقم محسن على الشاشة. ابتسم إبراهيم ممتنًّا لصديقه الذي أسرع في تلبية طلبه.

- ألو يا إبراهيم، أنا جبتلك قرار الموضوع.

- طيب قولي أنا سامعك.

- لا دي قصة طويلة، إنت مش متخيل فيها إيه!

- فيها إيه يا محسن ما تقول بقى.

- فيها جريمة قتل تانية!

- يا نور، يا نور.

نادت منى صديقتها المقربة نور من وراء باب الشقة، نور التي لم تفتح بعد في حين وقفت منى تنتظرها، وهي تحمل حقيبتها المدرسية على ظهرها وقد بدت جميلة جدًّا بضفائرها التي ضفرتها أمها. كان اليوم هو دور الأستاذ عبد العظيم في أن يوصلهما إلى المدرسة فهو يتقاسم الأمر بينه وبين والد نور. لكن نور دائمًا ما تتأخر ويتأفف الأستاذ عبد العظيم من دون أن يبدي ذلك، حرصًا على أواصر الجيرة وصداقة الصغيرتين، على الرغم من أن ذلك يتسبب في تأخيره عن عمله فيناله أحيانًا بعض كلمات التوبيخ التي لا يحبها من مديره. وكانت منى تشعر بضيقه من دون حتى أن يخبرها فكانت تهرع إلى بيت نور وتناديها لعلها تخرج في موعدها لئلا يحزن أبوها. واليوم لم تمضِ ثوانٍ حتى خرجت نور فاحتضنتها منى في سعادة، وتشابكت يداهما وهما تهبطان الدرج في سرعة معقولة فقط لتجدا عبد العظيم في انتظارهما في السيارة.

- أنا آسفة يا أونكل.

- ولا يهمك يا حبيبتي، يلَّا اقعدي إنتِ ومنى كويس عشان نتحرك.

جلست الصديقتان في الخلف امتثالًا لأمر عبد العظيم الذي ألقى نظرة حانية عليهما معًا في مرآة السيارة الأمامية، وابتسم حين وجدهما بدأتا في التهامس كعادتهما. ما أجمل أن تكون صغيرًا بلا هموم، وما أجمل أن يكون لك صديق حميمي تتهامس معه وتشاركه همومك. كان عبد العظيم شخصًا انطوائيًّا ولم يكن من هواة التجمعات البشرية بأعداد كبيرة حتى لو كانوا أصدقاء، وكانت سلوى تقريبًا هي صديقته الوحيدة وأصبحت بعد سنوات من الصداقة حبيبته وتوأم روحه وكانت منى مثله. فنور تقريبًا هي صديقتها الوحيدة، على عكس نور التي تحب الأصدقاء والناس فيلتف حولها الكثيرون، غير أنها تحب منى جدًّا وهي مقربة لها كونهما جارتين، فتقاربت روحاهما على الرغم من اختلاف الطباع.

- أستاذ عبد العظيم، صباح الخير.

- أهلًا يا أستاذ بيومي.

- شُفت الحمد لله جابوا عمال ترمم المدرسة، المحافظ اتحرك مع كتر الزن.

- الحمد لله، أنا عرفت إمبارح عشان كده جبت البنتين، ما تعرفش هيخلصوا إمتى؟

- قالوا شهرين تقريبًا، بس إنت عارف العمال، ما أعتقدش قبل الامتحانات.

- يلَّا مش مهم، المهم سلامة الولاد.

- آه طبعًا، هما غيروا الفصول وهينزلوا الولاد على مرحلتين، يعني شوية الصبح وشوية بعد الضهر، عشان الفصول تكفيهم.

- إيه ده فعلًا؟

- آه روح شوف الورقة اللي هناك دي، عشان تشوف فصل منى الصبح ولَّا بعد الضهر.

- طيب متشكر جدًّا يا أستاذ بيومي إنك قلتلي.

- على إيه بس. يلَّا أشوفك على خير.

شعر عبد العظيم بتوجس ما لا يدري سببه، وذهب حيث أخبره بيومي ليقف في صف طويل من الأهالي الذين ينتظرون مثله لمعرفة فصول أبنائهم صباحية أم مسائية حتى ينتهي الترميم، ومر بعينيه على الفصول الصباحية حيث تمنى وجود فصل ابنته فيها، فلم يجد فصلها، فتنهد وهو ينظر بخيبة أمل إلى الفصول المسائية فوجد فصل ابنته كما توقع.

- يلَّا يا منى، يلَّا يا نور.

- هنروح فين يا بابا؟

- على البيت يا حبيبتي، يلَّا اندهي نور من هناك.

كانت نور قد وقفت لتتحدث إلى أحد العمال العاملين في الترميم كعادتها في التحدث مع كل الناس. كانت عينا عبد العظيم تنظران إلى المشهد بقلق، فضحكة نور البريئة تناهت إلى مسامعه من حيث يقف. تمنى لو كانت مثل ابنته تتحدث إلى الناس ببعض الحذر، لكن كانت لها شخصيتها وطريقة تربية أهلها لها أيضًا. لكن الحذر شيء مهم، شيء ضروري!

سهام وهيثم

قبل القتل بعدة أشهر

التقطت سهام ثوبها الأحمر القصير، وألقت عليه نظرة رضا وهي تضعه على جسدها ليبرز كل مفاتنها. كانت قد اختارته بعناية، فأزراره الأمامية ستجعله سهلًا في فتحه حتى يداعب ثدييها بلطف، وكان مفتوحًا من المنتصف حتى تتسلل يداه إلى ما بين فخذيها بخفة.

كانت تعلم أنه يتسلى بها وأنه ليس لديه أي نية للارتباط، وتمنت لو استطاعت الهرب منه، تمنت لو أن تنقطع هذه العلاقة، لكنها كانت قد أصبحت كالعبيد، وأدمنت لمساته بشكل مَرضي.

لو عاد بها الزمن لما دخلت عيادته قَطُّ. هو الطبيب النفسي اللبق الوسيم المتفهم، وهي كانت في أشد الاحتياج إليه، ولم يحتَج إلى كثير من الجهد حتى وقعت في شباكه. بضع مرات وكانت تستلقي عارية بين يديه في العيادة بعدما أغلق الباب عليهما معًا.

كانت جميلة فاتنة حقًّا، لكن كثرة ما تعرضت له من تحرشات وعلاقات فاشلة قد تركت في روحها ندوبًا غائرة ليس من السهل أن تلتئم. دخلت عيادته على أمل أن تجد بعض السلوى في الفضفضة، بعض الهدوء النفسي فقط، لتجد نفسها غائبة في علاقة جديدة لن تنتهي بالخير أبدًا. كان عزاؤها الوحيد أنها تعلم وأن الأمر برضاها. هي فقط تتحدى كل القيم، تضرب عُرض الحائط بكل سخافات المجتمع التي جعلت منها ضحية من الأساس، لماذا لا تكون على الأقل طرفًا في الإيذاء الذي سيقع لها بدلًا من أن تقف موقف المتفرج دائمًا، تنتظر من سيثبت نظراته على جسدها هذا اليوم أو يغتصب أنوثتها بحب زائف. على الأقل هي قبلت وارتضت ألا تكون هناك شروط للأمر، لحظات النشوة فقط تسمح لنفسها أن تنال مما يأخذه الآخرون. قررت أن تستمتع هي الأخرى، تستمتع بأن يُستغل جسدها بل وتفكر في أنها تستغل جسده هو الآخر، أليس في هذا عدل ومنطق؟

وصلت إلى عيادته في الموعد المحدد، طرقت طرقات خفيفة على الباب، ولم تمضِ لحظات قليلة وإلا وكان قد فتح لها بكامل أناقته، تاركًا بضعة أزرار علوية من قميصه من دون إغلاق، في إشارة منه إلى استعداده التام للقاء.

أشعلت سيجارتها بعدما انتهت المعركة شبه اليومية بينهما وهي تغطي جسدها ببعض من ثيابها الملقاة على الأرض.

كان هو قد ارتدى ثيابه كاملة وخلل أصابعه في شعره ليعدل خصلاته المبعثرة. تقريبًا هما لا يتبادلان الكلام، فقط كلمات قليلة تتخلل لقاءهما.

- مستعجل؟

- آه. كريم وصل والعيادة خلاص قدامها نص ساعة وتفتح.

- طيب، هاقوم ألبس بقى.

اقتربت منه وهي ترتدي ثيابها في إغراء متعمد وتنفث دخان سيجارتها في وجهه:

- يعني مفيش إعادة؟

ابتسم وقد أحكم شفتيه على شفتيها بقوة، تاركًا إياها تتنهد بلهفة وتركها برفق، والتقط من الأرض بعضًا من ثيابها، وأعطاها إياها بنظرة تكاد تكون حازمة:

- خليها بكرة في نفس الميعاد أو لو حابة بعد العيادة، أنا عندي استعداد.

ارتدت ثيابها، وخرجت لتغلق الباب خلفها. لمحت بطرف عينها كريم الذي يجلس في سيارته، منتظرًا أن يعطيه هيثم الإشارة للدخول إلى العيادة هو الآخر. التقت أعينهما في لمحة سريعة، لكن كليهما أشاح بوجهه، فكريم لا يوافق على أفعال هيثم ولا يقوى على الكلام، وسهام تعرف كريم وقيمه جيدًا، فلا تريد أن تشعر بالذنب من نظرات عينيه اللائمة، لكنها لم تكَد تركب سيارتها التي صفَّتها بعيدًا بعض الشيء عن العيادة، حتى جفلت حين مر خيال أسود ظهر لثوانٍ في مرآة السيارة. نظرت إلى الوراء لعلها ترى بوضوح مَن الذي يقف خلف سيارتها كما هُيئ لها، لكن الظلام هو الذي أجابها، فتنهدت لتنطلق سيارتها بسرعة عالية كأنها تتمنى أن تمر كل أيامها بهذه السرعة، منهية قصة حياتها البائسة التي تبدو دائمًا أنها سعيدة وحرة، في حين أنها تعيسة وحيدة بشكل مفزع، وحريتها ما هي إلا طوق حول رقبتها وقريبًا سينهي حياتها.

علاء وإبراهيم

اليوم

ضغط علاء على أزرار هاتفه المحمول محدثًا إبراهيم الذي رد بسرعة كأنه هو الآخر كان ينوي أن يهاتفه. كان كلاهما يشعر بأنه وجد مشتبهًا فيه حقيقيًّا أخيرًا، فإبراهيم يعرف الآن أن ياسمين كانت تتحدث مع هيثم ليلة مقتله وقبل أن يُقتل بعدة ساعات، وأنها أيضًا صاحبة الفستان الذي يحمل بقعة من دمه، وهناك شيء تخفيه وشخص ما يهددها، وكما قالت بنفسها إنها لم ترغب في مقابلة هيثم في العيادة لأنها تظن أن شخصًا ما هناك يريد بها أذى لم توضحه، إذن فهي كانت على موعد مع هيثم وفستانها يضعها في موضع اتهام قوي بسبب بقعة الدماء. وعلاء طبعًا كان قد منَّى نفسه بإغلاق القضية، فكريم متهم مثالي وقد وجد صورة له في الممر الخفي مع هيثم يوم القتل، وجدها عند أحد الباحثين الذي يتتبع الطيور البرية، وبهذه الصورة يكون كريم قد وُجد مع هيثم قبل مقتله بلحظات، وقد اكتملت كل أركان الجريمة بالدليل أيضًا. سرد كلٌّ منهما للآخر ما وصل إليه، وكلاهما كان بالحذاقة ليعرف أن ما زال هناك غموض يلف هذه القضية، هناك أمور لم تظهر بعد، لكن على الأقل هناك بعض الخيوط الواضحة بدلًا من الظلام الدامس الذي كان يسيطر على القضية.

- اسمع يا إبراهيم، أنا عايزك تبعت عسكري يجيب كريم وياسمين دول القسم نحقق معاهم بشكل رسمي، ونضغط عليهم شوية ونشوف إيه وراهم هما الاتنين، وأنا عقبال ما يكونوا وصلوا أكون شُفت حكاية عادل ده إيه.

- طيب سعادتك، هاروح أنا بعد إذن حضرتك لمحسن أشوف إيه اللي وصله في موضوع إنجلترا ده.

- ماشي، وكلمني على طول قولي إيه الأخبار.

- حاضر سعادتك، طبعًا.

انطلق كلاهما، كلٌّ في مهمته، وأجرى إبراهيم بعض المكالمات حتى يتأكد أن كريم وياسمين سيكونان في انتظارهما في القسم بعد الانتهاء من مقابلتَي عادل ومحسن. كان مكتب محسن بعيدًا نسبيًّا عن مكان إبراهيم، لكن من حسن حظه لم يكن هناك زحام، مما جعله يصل في وقت يعتبر قياسيًّا ويجلس أمام محسن الذي استقبله استقبالًا حارًّا يليق بصديق عزيز، وقدَّم له الشاي كما يحبه إبراهيم.

- إيه يا هيما، ليك وحشة والله، بقى ما نشوفكش غير في شغل بس كده.

- ما إنت عارف يا ابني قضايا الجنايات ما بتخلصش وما بنلحقش نهرش أصلًا.

- ماشي يا سيدي. اتفضل.

- إزاي جريمة القتل حصلت في لندن وتحقيقاتها في مصر؟ مش مفروض التحقيقات مسؤولية البلد اللي حصلت فيها الجريمة؟!

أعطاه محسن ملفًّا قديمًا يتضح ذلك من نوعية الورق وبعض التلف الذي أصابه، فبدأ إبراهيم في تصفحه، ولم يحتَج إلى جهد ليفهم أنها قضية قتل قديمة حدثت في إنجلترا في العنوان الذي كان موجودًا في الصورة وورقة الكتاب. الضحية كانت فتاة مصرية اسمها «نورهان» يبدو من الصور أنها كانت جميلة. أوضح تقرير الطب الشرعي أنها ماتت غرقًا بعد إلقائها في إحدى البحيرات، لكنها كانت تحمل في جسدها كمية رهيبة من إحدى المواد المخدرة التي توجد في بعض العقاقير النفسية. حامت الشبهات حول ثلاثة أطباء كانت الفتاة قد أقامت معهم لبعض الوقت، لكن غياب الدافع والدليل لم يجعل من واحد منهم متهمًا حقيقيًّا، وأُغلقت القضية على أنها حالة انتحار، فالفتاة كانت غير متزنة ولها سابقة في محاولة انتحار قديمة، فربما تناولت هذه العقاقير ثم ذهبت إلى البحيرة بنفسها فماتت غرقًا. وقالت التحريات أيضًا إن أحد الأطباء قد أصيب بنوبة ذُهان قوية وأُودع في إحدى المصحات النفسية في لندن، ورفضت الجامعة بعد ذلك منحة الزمالة الخاصة به، وأرسلت إلى الجامعة المصرية أيضًا أنه لم يعد مؤهلًا للعمل طبيبًا، وعاد إلى مصر وقد أحالته الجامعة إلى التقاعد المبكر. كل هذه المعلومات في تقرير الطبيب الشرعي الأجنبي! وأفادت التقارير أيضًا أن الفتاة قد تركت وراءها طفلًا انتهى به الأمر في أحد بيوت الرعاية في لندن. أنهى إبراهيم التقرير وقد ازدادت حيرته. ما حلقة الوصل بين كل هذا وقضية اليوم؟ الأطباء هم عادل وعبد الرحمن وسالم، لكن ما علاقة هذا بقتل هيثم؟ وهل للأطباء الثلاثة علاقة بمقتل نورهان فعلًا؟!

- إيه لقيت حاجة تفيدك؟

- والله مش عارف يا محسن، القضية مقفلة دومينو خالص، مش باين إننا هنحلها أصلًا.

شكر إبراهيم محسن بحرارة ودوَّن بعض المعلومات عن ابن الفتاة وتفاصيل الجريمة في ورقة، حيث نهاه محسن عن تصوير الملف الذي لم يخرج من الأرشيف بشكل رسمي، وانطلق إلى القسم حيث من المفترض أن يكون كريم وياسمين هناك. في الوقت نفسه كان علاء يجلس في منزل عادل الذي استقبله ببعض التوتر، وطلب من بلال أن يُعِد له كوبًا من القهوة.

- شكرًا يا دكتور، يا ريت بقى حضرتك تقولي إيه اللي حصل؟ الكتاب جالك إزاي؟ وحضرتك افتكرت إيه بالظبط؟

ازدرد عادل ريقه، وظهرت رعشة بسيطة في يده لم تخفَ على علاء الذي تحفزت كل جوارحه ليستمع إلى ما سيقوله بكل اهتمام.

- الكتاب جالي ملفوف في الظرف ده على باب البيت.

كان نفس الظرف ذهبي اللون وعليه نفس العلامة، لكنه في حجم الكتاب وليس في حجم الأظرف الأخرى العادية.

- طيب، إيه حكاية الكتاب بقى؟

- الكتاب ده فيه دراسة عن الانتقام، الدراسة بعنوان «الكل قادر على أن يرتكب جريمة بشعة»، أنا كنت من الناس اللي حضَّرت فصل في الدراسة دي لما كنت في إنجلترا أيام تحضير الزمالة، ووزعنا الكتاب على كل اللي حضروا ندوة معمولة مخصوص عشان نشرح نتايج الدراسة دي، وأنا طالع من الندوة شُفت... شُفت نورهان.

كريم وأبوه

قبل القتل بعدة أشهر

جاء صوت أذان الفجر خافتًا من المسجد الذي يبعد بعض الكيلومترات عن بيت كريم، فاستيقظ عبد الرحمن ليتوضأ ويتأهب للصلاة، لكن الضوء الذي تسلل من تحت عتبة باب غرفة كريم استوقفه، فلم يكن من عادة ابنه أن يسهر أو أن يستيقظ مبكرًا بهذا الشكل. تعجب عبد الرحمن وشعر ببعض التوجس أن ابنه بحاجة إلى من يتحدث معه. انتهى من الصلاة وألقى نظرة سريعة على غرفة كريم فتأكد أن الضوء ما زال مشتعلًا. فتح الباب بعد أن طرقه عدة مرات وأتاه صوت كريم من الداخل.

- إيه اللي مصحيك لغاية دلوقتِ يا كريم؟ فيه حاجة ولَّا إيه؟

- ولا حاجة يا بابا، مشغول بس شوية، فمش عارف أنام.

- وإيه اللي شاغلك يا حبيبي؟

تنهد كريم ببعض نفاد الصبر، فهو يريد من أبيه أن يتركه ويذهب، فعقله منشغل بموضوع المستشفى الذي يريد سالم أن يهبه له ويحرم ابنه الوحيد من إرثه فيه بلا سبب مقنع، وهل يترك هذه الفرصة العظيمة التي لن تعوض ولن تأتي له أبدًا مرة أخرى؟! شعر عبد الرحمن بأن كريم لا يريد التحدث، فهمَّ بالخروج من الغرفة مقدرًا خصوصية ابنه وتمنى أن يطمئن عليه، غير أن عينيه وقعتا من دون تعمُّد منه على الأوراق التي بين يدَي كريم. لم يتبين ما فيها فلم يكن نظره حادًّا إلى هذه الدرجة، لكنه رأى بما لا يدع مجالًا للشك توقيع سالم على الأوراق، ما الذي يوقع عليه سالم ويُقلق كريم بهذا الشكل؟

- كريم، أنا عارف إنك كبير كفاية، بس أنا أبوك ممكن أساعد ولو بنصيحة، إنت اتخانقت مع سالم؟

- لا أبدًا يا بابا، ليه بتقول كده؟

- الورق اللي قدامك ده عليه توقيع سالم وشكله ورق قانوني، فقلت يمكن دي استقالتك ولَّا حاجة!

صمت كريم للحظات، ثم قال بعد أن استجمع شجاعته: - هو إيه اللي حصل بينك وبين الدكتور سالم في إنجلترا يا بابا؟

اهتزت قدما عبد الرحمن حتى كاد يسقط وقد تفاجأ من سؤال كريم، وكان واضحًا أن الأمر جَلل على نفس عبد الرحمن. انتفض كريم ومد يده ليستند عليها والده وقد احتل عينيه وملامحه القلق.

- بابا إنت كويس؟ أنا آسف أنا عارف إنك مش بتحب تتكلم في الموضوع ده، أنا آسف تعالَ اقعد على السرير واستريح.

جلس عبد الرحمن على طرف الفراش وقد زاغت عيناه قليلًا، ثم قال لابنه بصوت خفيض سمعه كريم بالكاد: - بتسأل ليه يا كريم يا ابني؟ ليه بتقلب على أبوك المواجع؟

وضع كريم يده بحنان على ساقَي والده اللتين ما زالتا ترتعدان، ثم سرد بعد تردد ما حدث بينه وبين سالم، وأطلعه على الأوراق التي تحمل توقيع سالم على تنازله عن المستشفى بأكمله له. كانت ملامح عبد الرحمن تحمل الكثير من الألم والحزن وكريم يتحدث.

- إوعى توافق يا كريم يا ابني، إوعى توافق ده حق هيثم، سالم بيعمل كده عشان لسه حاسس بالذنب إني سيبت الجامعة.

- مش فاهم يا بابا، والدكتور سالم ماله بموضوع الجامعة؟! اللي فهمته إن حضرتك تعبت وعشان كده حصل اللي حصل.

التقت عينا عبد الرحمن بعينَي كريم وارتعش صوت الأول وتهدجت أنفاسه: - عشان أنا ساعدته... ساعدته.

- ساعدته في إيه يا بابا؟ أنا مش فاهم!

- ساعدته يقتلها.

أجهش عبد الرحمن بالبكاء وارتفع صوت نحيبه، وقد تحاشى النظر إلى عينَي كريم الذي ظهرت على وجهه كل علامات الذهول والقلق، وانزعج من صوت نحيب والده الذي وصل إلى مسامع أمه التي أتت مسرعة وفي عينيها تساؤل، لكن كريم أراد أن يعلم، أراد أن يفهم.

- يقتل مين يا بابا؟ إنت بتقول إيه؟!

- يقتل نورهان!

سهام وتوني في الجامعة

ارتفع صوت سعال جَد سهام، فأسرعت إليه تاركة توني يجلس في غرفة معيشتها بتراخٍ، فقد اعتاد المجيء إليها كل يوم تقريبًا، فقد وجد عندها سلوى من نوع آخر، وهي الأخرى شعرت بنفس الشيء نحوه. عادت إليه مرة أخرى بعد أن اطمأنت على جدها الذي يرقد في فراش المرض، وقد اشتد عليه هذه الأيام بقوة. كان معه ممرض ليساعده، لكن سهام كانت تحب أن تطمئن عليه بنفسها كلما علا صوت أنينه أو سعاله.

- تشرب حاجة يا توني؟

- إيه جو الضيوف ده؟ ما أنا عارف التلاجة فين.

- ماشي يا عم، أنا قلت أدلعك مرة.

ابتسم وهو يتأملها، ملاك من عالم آخر، هكذا يراها دائمًا. تبدو في بعض الأحيان كعروس البحر في الأفلام بشعرها الأحمر ووجهها الذي يشع بالبراءة والفتنة معًا. كان يعشقها لا شك في هذا، لكن قلبها قد استولى عليه هذا المدعو «حازم»، حازم الذي يبدو بوجهه الوسيم كمَن باع روحه للشيطان، كان يعرف أنه لا يريد بها خيرًا كما قال لها جدها، إلا أن مرآة الحب لا تدع للعقل أو المنطق مكانًا.

- وراكِ إيه النهارده بعد الضهر؟ ما تيجي أعلمك على الموتوسيكل شوية، مش كل شوية تزني على الموضوع.

تململت وظهر على وجهها التردد فهي تنوي أن تقضي ليلة مبهجة مع حازم، وتعلم أن توني لن يُعجب بهذا الأمر، فلم تُرد أن تخبره، لكن عقلها لم يسعفها بكذبة سريعة تخبر بها صديقها الوحيد الذي سيقرأها مثل كتاب مفتوح، إلا أن توني توقع من دون أن تتكلم وزفر في ضيق حقيقي.

- رايحة برضو للبلوة ده؟

- أنا مش فاهمة إنت مش بتحبه ليه؟

- عشان مش بيحبك يا سو.

- لا بيحبني وهيتجوزني، وهتشوف.

كانت قد انفعلت وارتسم الغضب على وجهها من كثرة حديث توني وجدها عن هذا الأمر، لماذا يصران على سلب فرحتها؟ فقد فقدت أبويها، وفقدت الحنان والتوجيه والحب، لماذا تفقد من وجدت عنده كل هذه المشاعر؟ فاضت عيناها فجأة بالدموع وهي تتذكر أباها، فقد كانت تعشقه، لكَم تفتقد أن تحكي له عن حازم وترى ابتسامته المشجعة. قام توني من مكانه وقد شعر بحزنها، لن ترى حازم كما يراه أبدًا وقريبًا سيرحل جدها لتبقى فريسة أسهل لهذا النذل الساعي بوضوح خلف ثروتها، لكنه لم يقوَ على رؤية دموعها فاحتضنها بقوة وهو يهمس في أذنها: - أنا خايف عليكِ، بس يا سو دي حياتك وإنتِ حرة فيها.

- أنا عارفة يا توني.

- آنسة سهام.

جاء صوت ممرض جدها من خلفها لتترك حضن توني وتنتبه لملامح الحزن على وجه الممرض الذي لم يحتَج أن يتحدث حتى تفهم سهام ما يود أن يقول، أنها أصبحت الآن بلا أهل غير توني الذي فهم هو الآخر، فضمها إلى حضنه

بحنان وهي تنتحب على ذكرى أبيها وأمها وجدها معًا.

- ما تخافيش أنا جنبك، أنا مش هاسيبك أبدًا.

كريم في القسم

اليوم

كان علاء الأسرع في الوصول إلى القسم عن إبراهيم، فجلس على مقعد مكتبه وهو يلتقط إحدى سجائره، استعدادًا للتحقيق مع كلٍّ من ياسمين وكريم. أمسك ورقة ليخط عليها بعضًا من أفكاره التي تناثرت في عقله بعدما ترك عادل. كان عادل قد قص عليه أنه رأى صديقة طفولته على باب الجامعة بعد هذه الندوة، وكان يحمل الكتاب الذي حوى الدراسة، وقد كتب عليه جملته التي وُجدت عند مقتل هيثم. لا يدري أين ذهب هذا الكتاب إلا أنه يعرف يقينًا أنه رأى نورهان في هذا اليوم، وأنها استنجدت به حينما كان لا مكان لها بعدما هربت من مصر حاملة طفلًا في بطنها، وطردتها جدتها التي على الرغم من معيشتها في ذلك البلد لسنوات فإنها ظلت محتفظة بالتقاليد الشرقية. ومضى ليقص عليه كيف أن نورهان قد انتحرت بعد عدة أشهر من ولادة هذا الطفل، وأن شبهات كثيرة حامت حول انتحارها. حاول علاء أن يجد صلة بين الكتاب وقصة نورهان ومقتل هيثم فلم يجد، وكان عادل حائرًا هو الآخر، لكن قال بعد تردد إن نورهان وسالم كانا على علاقة، وإن سالم قد استأجر لها شقة بعيدة عن شقتهم ليتردد عليها بحرية، بعدما عاب عليه كلٌّ من عبد الرحمن وعادل ما يفعل. ما إن انتهى علاء من خط هذه النقاط على ورقة دخل عليه إبراهيم: - مساء الفل يا باشا. سعادتك بدأت مع حد فيهم التحقيق؟

- لا يا إبراهيم، أنا كنت عايزك معايا، قولي الأول محسن قالك إيه؟

قص عليه سريعًا ما قاله محسن، وما قرأه هو شخصيًّا في الملف، لكن كليهما لم يجد صلة مباشرة لذلك بمقتل هيثم غير أن سالم كان على علاقة بنورهان. لكن لماذا أصيب عبد الرحمن بلوثة عقلية أدت به إلى ترك دراسة الطب والجامعة؟ ربما أتت الصلة من هنا وخاصة ما قاله سيد إن كريم قال لهيثم: «لو قربتله... هاقتلك». فلمَن يقترب؟ لعله أبوه؟! ضغط على زر استدعاء المجند الذي يقف بجوار الباب وقال له: - روح يا ابني هاتلي الدكتور كريم من الحجز.

لم تمضِ إلا بضع لحظات وكان كريم الذي ظهرت عليه علامات التعب والضيق يدخل الغرفة. أشار إليه علاء أن يجلس فجلس وقد وضع يده على مكتب علاء كأنه يستند إليه ليرتاح من آلام جلوسه في الحجز.

- أنا مش فاهم إيه ضرورة إني أتحط في الحجز، أنا أصلًا قلت كل اللي عندي في القضية دي خلاص.

- دكتور كريم، ممكن تقولي إنت كنت فين لما هيثم اتقتل؟

- كنت في البيت عادي، وشوية ورُحت العيادة.

- إيه اللي خلاك تقتل هيثم وإنت ورق المستشفى خلاص معاك؟

قالها علاء بحزم وهو يحدق في عينَي كريم، وإبراهيم يتفحص ملامح وجهه لعله يستنبط مشاعره.

- أنا ما قتلتوش ولا حاجة، هيثم كان زي أخويا ومتربي معايا، مستحيل أقتله، أقتله ليه أصلًا ما الورق كان ممضي خلاص زي ما حضرتك بتقول ما كنتش محتاج.

أخرج علاء من الدرج صورة لكريم في الممر خلف المقهى ووضعها أمام عينَي كريم الذي تفاجأ واهتزت ملامحه بشدة. يبدو أنه يبحث في عقله عن حجة مناسبة لوجوده مع هيثم في هذه اللحظة قبل مقتله، لكنه نكَّس رأسه إلى الأسفل كأنه يعلن استسلامه، وأنه على وشك أن يقول الحقيقة، فانتبه كلٌّ من علاء وإبراهيم هل ستنتهي هذه القضية باعتراف أخيرًا؟!

- أنا ما قتلتوش. لغاية ما مشيت كان عايش عادي أنا كنت بس عايز موبايله.

تبادل علاء وإبراهيم النظرات، ثم سأله علاء:

- إشمعنى؟! إيه اللي كان على الموبايل بتاعه؟

هيثم والحفل

قبل القتل بعدة أشهر

انتهى هيثم من ارتداء ملابسه، وألقى نظرة سريعة على مظهره في المرآة، فقد كان يبدو وسيمًا جدًّا بهذه الثياب التي تعمد أن يرتديها وهو ذاهب لقضاء أمسية من أبغض الأمسيات إلى قلبه. سيجلس متصنعًا السعادة وأقصى درجات التوافق مع والده سالم، كلاهما سوف يتصنع هذا، فهي أمسية لتوقيع أحد التعاقدات مع أحد أهم المستشفيات والمصحات الخليجية التي ستدر على المستشفى الكثير من المال، وتضعه في مكان مختلف على خارطة مشافي الطب النفسي. وعلى الرغم من أن هيثم رفض أن يعمل مع والده واختار لنفسه مكانًا مختلفًا يبدأ فيه مستشفاه الخاص، فإن أباه طلب منه الحضور لهذا اللقاء، حيث يظن هؤلاء المستثمرون أن المستشفى له فرعان، وأن سالم وابنه يعملان معًا ويريدان إتمام التعاقد للفرعين معًا، فقد اختار كلٌّ من هيثم وسالم مدينة من المدن الجديدة لإقامة مستشفاه، وكلٌّ منهما في الجهة الأخرى من البلاد، مما يجعل هذا مناسبًا لكل المرضى وذويهم. لم يكن هيثم ليرفض هذا العرض حتى لو كان يعني أنه سيتعاون مع والده. التقط هاتفه الذي أعطته إياه سهام هدية في عيد ميلاده، وأصرت أن يستخدمه. كان هاتفًا حديثًا على أحدث طراز، ولونه فضي وبه لمعة وهو لون هيثم المفضل، فلم يرَ ضررًا من استخدامه وإسعادها في الوقت نفسه. تنهد وهو يخرج من منزله متذكرًا سهام لا يدري لماذا يشعر بأن الأمر يخرج تمامًا عن عاداته المعروفة مع النساء، فهي لها مكانة مختلفة ونكهة خاصة لا يريد أن يتخلى عنها وأصبح يقضي معها وقتًا أطول، هل بدأ في حبها؟

نفض رأسه نافيًا كأنه يُسقط هذه الفكرة الغريبة من رأسه، فهو لا يؤمن بالحب أصلًا، ولا يظن أنها هي الأخرى تؤمن به. ربما آمنت به وهي طفلة، أما الآن فهي مثله تمامًا تريد فقط ما يريد هو أيضًا.

- أهلًا يا دكتور هيثم، اتفضل، دكتور سالم منتظر حضرتك في أوضة مكتبه.

خطا هيثم إلى الداخل وهو يتمنى أن تكون سهرة قصيرة، لعله بعدها يرتمي في أحضان إحدى سهراته المفضلة.

- هيثم، إزيك.

- الحمد لله يا دكتور.

لم يقوَ هيثم قَطّ على أن يتحدث مع أبيه طوال هذا العمر بتلقائية، ولم يستطع أن يقول له أبي قَطّ، فطوال سنوات كان سالم يعامله بجفاء وتعالٍ، ومهما فعل هيثم ظل في نظر والده فاشلًا. على الرغم من أن هيثم تفوق في دراسته واستطاع في وقت قياسي من دون معونة والده أن يصنع اسمًا له في مجال الطب النفسي، فإن أباه ظل يراه بلا علم ولا خبرة، وأنه يعتمد في شهرته على البرامج التلفزيونية التي يعتمد فيها على وسامته وحضوره القوي وليس على علم حقيقي. والعجيب أن هيثم يرى والده بنفس الطريقة! جلس هيثم في غرفة مكتب والده تاركًا الأخير يهتم بتفاصيل حفل العشاء في الحديقة، وقد استرعى انتباهه كاميرا موضوعة على المكتب وبعض الأشرطة قد وُضعت بجانبها بأسماء مختلفة. التقط أحدها وكان عنوانه عيد ميلاد هيثم الخامس عشر، وضعه في الكاميرا لتطل عليه صورته ومن حوله كل أصدقائه الذين كان معظمهم من الفتيات، فابتسم وهو يقول لنفسه: «من يومك». وفجأة دخل في الإطار كريم وهو يجري وكان يحمل هدية ملفوفة في يده، ابتسم هيثم مرة أخرى فهو يحب كريم حقًّا، وعلى الرغم من فارق السن فإن كليهما ارتبط بالآخر. أكمل هيثم الشريط إلى آخره وهو يبتسم بين الحين والآخر على ما يراه من تصرفات طفولية تصدر منه أو من أصدقائه وبالطبع كريم. كاد يضع الكاميرا جانبًا غير أن شريطًا آخر وُضع بين الكتب في صندوق يكاد يكون مخفيًّا ظهر من فرجة بسيطة من الصندوق جعله يعدل عن رأيه ويمد يده ليلتقط الصندوق وما بداخله، فوجد شريطًا وقد كُتب عليه «نورهان». كان شريطًا قديمًا لم يكن ليدخل في هذه الكاميرا قَطُّ، لكن شيئًا ما جعل هيثم يريد أن يشاهد ما به.

- يلَّا يا هيثم الضيوف وصلوا.

انتفض هيثم على صوت والده، إلا أنه وضع الشريط مسرعًا في جيبه، واتجه نحو باب الغرفة ليلبي نداء والده.

- أهلًا أهلًا، نورتوا.

قالها هيثم للضيوف وهو يتحسس الشريط في جيبه كأنه يتأكد أنه بأمان، فحدسه يخبره بأن أباه قد خبأه في هذا الصندوق لسبب ما.

نور ومنى

الإسكندرية منذ سنوات بعيدة

انطلقت نور تجري خلف صديقتها منى، والأخيرة تحمل في يدها الدمية التي أتى بها والدها في يوم عيد ميلادها، وقد علت أصوات ضحكاتهما في المكان. كان عبد العظيم قد أخذ الفتاتين إلى النادي حتى تلعبا قليلًا بعدما أنهتا يومًا دراسيًّا شاقًّا، خاصة أن دوامهما الدراسي مسائي. جلس هو وزوجته سلوى لاحتساء الشاي في حديقة النادي، وكانت الفتاتان على مرمى بصريهما.

- عارف، منى عايزة تاخد العروسة معاها المدرسة، تخيل!

- طيب وإيه يعني يا سلوى، ما هي فرحانة بيها.

- ما إنت عارف يا عبده، مس إلهام شديدة قد إيه، ولو شافت العروسة معاها هتاخدها منها وهتبقى مناحة بقى.

زمَّ شفتيه وهو يتخيل مس إلهام وهي تأخذ دمية منى التي لا تتركها في أي مكان، وتخيل أنه قد يُضطر إلى شراء أخرى وقد كلفته الأولى مبلغًا كبيرًا من المال بالفعل.

- أنا عايزاك إنت تفهمها إنها ما ينفعش تاخدها معاها، هي أصلًا بتحب كلامك إنت، ما البنت لأبوها يا سي عبده.

- حاضر يا ستي. يا منى، يا منمن.

أتت مسرعة بعدما سمعت نداء والدها.

- ماما بتقولي إنك عايزة تاخدي العروسة معاكي المدرسة؟

- أيوه يا بابا عشان ألعب بيها أنا ونور في الفسحة.

- بس ممنوع يا منى. اسمعي كلام ماما وما تاخديهاش.

أطرقت منى بوجهها أرضًا، وقد التمعت في عينيها دموع حركت قلبه، حتى إنه كاد يتراجع عن حديثه، لكن سلوى شدت بيدها على كتفه ليتماسك أمام دموع صغيرته التي لا يحب أحدًا مثلها، فاحتضنها وقال بصوت خافت: - عشان خاطري يا منمن العبي بيها مع نور في البيت أو هنا في النادي في أي وقت، لكن في المدرسة لأ.

- حاضر يا بابا.

أسرعت مرة أخرى إلى صديقتها نور التي وقفت تنتظرها متسائلة: - إيه أونكل كان عايز إيه؟

- عايزني ما أخدش العروسة معايا المدرسة.

- ميار كده هتقول علينا بنكدب.

- طيب أعمل إيه يعني يا نور؟

- خلاص، أقولك اديني العروسة وأنا أخبيها معايا في شنطتي.

- بس بابا ممكن يزعل مني.

- ما تخافيش محدش هيشوفها، أنا بس هاوريها لمیار عشان تبطل تغيظنا.

- خلاص ماشي.

أمضت الفتاتان وقتًا ممتعًا في النادي، وقد تناست منى أمر الدمية فهي لا تريد أن تأخذها من دون موافقة والدها، لكنها أيضًا لا تريد لنور التي تحدت ميار أن تغضب منها. تغلبت على مخاوفها وهي تودع نور على باب شقتها، وتعطيها الدمية لتخبئها في حقيبتها.

ياسمين والفستان

قبل القتل بعدة أشهر

كانت حياة ياسمين قد انقلبت رأسًا على عقب منذ أن وصلت إليها تلك الرسائل والصور. غيَّم عليها توتر أكثر مما كان يسيطر على حياتها. أرادت أن تذهب إلى آسر وتخبره بكل شيء، أرادت أن تطلب الطلاق لعل هذا يريح ضميرها ويريح فكرها من هذه الفضيحة وشيكة الحدوث. كان علي خارج مصر فكان من الصعب الوصول إليه، ولم تود أن تحدثه في الأمر عبر وسائل التواصل الاجتماعي لعلها مراقبة، فمَن الذي علم بوجودها في هذا المكان معه من الأساس؟ هيثم؟! هي لم تخبر إلا هيثم، لكن لماذا يفعل هذا؟! فهي مريضته وخصوصيتها شيء مقدس وإن فعل هذا فهي قادرة على مقاضاته، والأهم من كل هذا ما الذي سيستفيده؟ لم ترحمها هذه الأفكار وظلت أيامًا مريضة في فراشها لا تذهب إلى أي مكان، وهي تتخيل أن كل أصدقائها ومعارفها قد رأوا صورها وهي بين أحضان رجل غير زوجها، وأنها ستفقد احترام الجميع لها ولربما تفقد عملها كذلك. أرغمت نفسها في هذا اليوم على الجلوس في حديقة منزلها لعلها تنعم ببعض الهدوء، وما إن استقرت في مقعدها المفضل ترتشف بعض القهوة الساخنة التي تحبها حتى رن هاتفها المحمول بصوت رسالة ما. ارتعدت فرائصها وهي تلتقطه متربصة بحذر.

«حطي فستانك الأصفر إياه في شنطة، وسيبيه قدام باب البيت».

اعتصر القلق قلبها، وهي تتأمل الرسالة. ما الهدف من كل هذا ولماذا لا يطلب مَن يهددها المال مثلًا أو أي أمر آخر؟ وما المقصود بأن «الكل قادر على أن يرتكب جريمة بشعة»؟ هل ستُرغم على ارتكاب جريمة مثلًا؟!

زفرت بعنف وهي لا تملك غير الانصياع لما في تلك الرسالة، وقامت لتضع الفستان في حقيبة وتتركه أمام باب المنزل. لم تمضِ لحظات حتى رن هاتفها مرة أخرى فانتفضت متوقعة هذا المجهول الذي يُخرِّب حياتها أكثر مما فعلت هي نفسها، لكن ظهر رقم مديرها في العمل فتنفست الصعداء، وشعرت بالقليل من الارتياح وهي ترد.

- ياسمين إزيك. ها عاملة إيه النهارده، صحتك أحسن؟

- آه أفضل، الحمد لله. أنا عارفة إني طولت، معلش يا مدحت، أنا بكرة إن شاء الله هاكون في المكتب.

- لا أبدًا ولا يهمك، خدي وقتك وما تجيش على صحتك، أنا باكلمك عشان حاجة تانية خالص.

- إيه خير؟

- أصل جالك ظرف على الشغل، شكله كده دعوة فرح.

كريم في القسم

اليوم

كان علاء قد انتهى من السيجارة العاشرة وهو ما زال يحاول أن يستخرج من كريم معلومة ما عن الهاتف، ولماذا كان يريده كريم بالضبط، لكن كريم ظل صامتًا لا يقول إلا إنه أراد هاتف هيثم فقط، وإنه تركه حيًّا يسير في اتجاه البناية المجاورة.

- طيب يا كريم، واضح إنك مش عايز تساعد نفسك وتقول الحقيقة.

- أنا باقول الحقيقة، إنت اللي مش عايز تصدقها.

- طيب احكيلي تاني، حصل إيه اليوم ده بالظبط؟

- زي ما قلت لحضرتك، أنا اتمشيت للكوفي شوب، زي ما حضرتك عارف هو جنب العيادة والمسافة مش كبيرة.

- وإشمعنى اتمشيت؟

تردد كريم للحظة ثم قال بصدق واضح:

- ما كنتش عايز حد يشوفني.

- عشان كنت ناوي تقتله؟

- ما قتلتوش، ولا كنت ناوي ولا أي حاجة.

قالها كريم بغضب، وقد ارتفع صوته قليلًا، ثم تدارك نفسه وتنفس بعمق.
أشاح بوجهه عن علاء نحو الجهة الأخرى، الذي لسبب ما كان يشعر بأن كريم صادق، وأنه لم يقتل هيثم فعلًا.

- طيب كمل يا كريم، إيه اللي حصل بالظبط؟

- زي ما قلت لحضرتك اتمشيت للكوفي شوب، ودخلت من ورا من ناحية العمارة المهجورة، وكلمت هيثم يطلعلي، وفعلًا طلع ووقفنا مع بعض في الممر اللي في الصورة ده.

- وإنت إيه اللي عرفك بالممر ده أصلًا؟

- أنا ساعات كتير بنزل أجري في المنطقة دي قبل ما أروح العيادة وشُفته مرة بالصدفة، وعارف إن هيثم عارفه.

- وهيثم شافه بالصدفة برضو؟

- لأ هيثم قابل سهام هناك مرة.

- مش غريبة إنه يقضيها مع واحدة في الطَّل كده؟!

- ولا غريبة ولا حاجة، هي سهام اللي بتختار أماكن فيها أدرينالين، أماكن عامة، عربية، ممر مهجور كده.

- وإنت عرفت منين موضوع سهام ده؟

- هيثم كان بيحكيلي.

- بالتفصيل كده؟

- آه كنا قريبين أوي من بعض.

قال كريم عبارته الأخيرة وانسابت الدموع فجأة من عينيه، وهو يتذكر هيثم ووجهه الذي لا يفارقه منذ يوم مقتله؛ كان يحبه حقًّا فقد تربى معه، وعلى الرغم من أن هيثم يعرفه معظم الناس بأنه زير نساء، ولا يهتم بالقيم والأخلاق، فإن كريم كان يعرف حقيقته، إذ كان يخفي قلبًا حنونًا طالما رآه كريم طوال سنوات حياته معه في بيته. أعطى علاء بعض المناديل لكريم وهو يتبادل نظرات ذات مغزى مع إبراهيم.

- طيب اهدا شوية يا دكتور واشرب شوية ميه، لو تحب نوقف هنا شوية.

مسح كريم دموعه وارتشف قليلًا من المياه، ثم قال بصوت ملأه الإجهاد: - أنا ما قتلتوش صدقني بس بس... أنا شُفته وهو...

- وهو إيه يا دكتور كريم؟ أرجوك خليك صريح.

- شُفته ميت! أنا سيبته وخدت الموبايل.

أجهش كريم بالبكاء، فقد كان وجه هيثم وهو ميت يطارده، كيف فعل هذا؟! كيف ترك صديق عمره وأخاه، وعيناه جاحظتان وقد فقدتا بريق الحياة، لينحني ويلتقط الهاتف ويتركه ويذهب، لكنه كان يعلم أنه قد مات فعلًا. أراد أن يحتضنه، أن يقبله ويودعه إلا أنه لم يستطع، فحبه لأبيه كان أكبر من حبه لهيثم.

هيثم وشريط نورهان

قبل القتل بعدة أشهر

استعد هيثم للقائه المعتاد مع سهام، وكان قد أعد المكان لاستقبالها كذلك. يريدها أن تكون سهرة من نوع خاص، لكن بعض الأوراق والأشياء التي لا قيمة لها تناثرت حول طاولة غرفة المعيشة، وأراد أن يضع بعض الشموع في هذا المكان، فاليوم هو عيد العشاق وعلى الرغم من أنه وسهام ليسا عاشقين بالمعنى الحقيقي، فإنه اليوم سيعاملها بلطف على غير العادة. ربما لأنه هو أيضًا يتمنى أن يُعامل بنفس اللطف، يريد أن يشعر هو الآخر بأن هناك من يهتم بأمره. تنهد رغمًا عنه وقد التقط أفكاره التي بدأ يخشاها مع سهام بالذات. أزال الأشياء عن الطاولة استعدادًا لأن يضع الشموع، فسقط شريطٍ فيديو قديم الشكل على الأرض، تذكر على الفور أنه الشريط الذي كان مخبأً في غرفة مكتب أبيه، وكان قد نسيه تمامًا. ألقى نظرة على ساعته. كان أمام سهام تقريبًا نصف ساعة قبل أن تصل. لا يدري ما مدة هذا الشريط ولا يعلم ما الذي يحويه، لكن الفضول قد دعاه إلى أن يجد إحدى آلات التصوير القديمة، ويوصلها بحاسوبه الشخصي لتظهر على شاشته شقة تبدو للوهلة الأولى فارغة، إلا أنه عندما دقق النظر وجد امرأة ما تبدو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ملقاة على أرض الغرفة، وفجأة دخل إلى إطار الصورة عبد الرحمن والد كريم، ومن خلفه سالم أبوه. اعتدل هيثم وهو يدقق في شاشة الحاسوب ليفهم ما هذا الذي يراه بالضبط، لكن الصوت لم يكن واضحًا. انحنى عبد الرحمن إلى جسد المرأة وبدا أنه يتفحصه ثم قام فأمسك بثياب سالم كأنه سيضربه، ثم وقف الاثنان كأنهما يفكران فيما يتعين عليهما فعله. كان هناك هاتف انطلق إليه عبد الرحمن غير أن سالم على ما يبدو كان يمنعه عن هذا، وبعد بضع دقائق تشاجر فيها الصديقان على ما يبدو انحنى كلاهما لحمل الجسد الملقى على الأرض، ثم تركه سالم ليحمله عبد الرحمن منفردًا، وانطلق سالم يلتقط بعض الأشياء التي تبدو أنها متعلقاتها، وجاء بغطاء ما وغطى الجسد، وعاد مرة أخرى ليلتقط بعض الأشياء، حتى خرج بها عبد الرحمن من الباب واختفى كلاهما من إطار التصوير. ما هذا بالضبط؟! ظلت دقات قلب هيثم تعلو وتعلو. هل ما شاهده حقيقي فعلًا؟ هل قتل والده ووالد كريم امرأة ما وأخفياها؟! أخرج الشريط وهو ينظر إلى ساعته بعصبية، فدقائق وستأتي سهام وهو قد فقد مزاجه بشكل حقيقي الآن. أسرع إلى

الخزانة في مكتبه، ووضع الشريط بها وأغلقها، وهو يسمع صوت طرقات سهام المميزة على الباب. تعثر من شدة توتره في طرف السجادة، ثم اعتدل وفتح الباب لسهام التي كانت قد بدأت في التململ.

- إيه فينك؟

- ولا حاجة معلش كان معايا تلفون.

دلفت إلى غرفة المعيشة، حيث تعلم أن معركتهما شبه اليومية ستكون فيها، ولم يخفَ عليها الجو المختلف الذي صنعه هيثم لها اليوم، وإحضاره بعض الشراب والطعام على الطاولة، فالتفتت إليه لتضع قبلة حانية مختلفة على وجنته.

- إيه، غيرت رأيك؟

زفر في عصبية شديدة وأزاح يدها التي احتضنته وقال بحزم شديد: - إحنا مش خلصنا من الموضوع ده يا سهام، ما كانوش يعني شوية مزات على الترابيزة!

ظهر على وجهها لثوانٍ بعض الألم، ثم قامت ووضعت بعض الشراب له في كأس، وقالت بإغراء شديد وقد وضعت هذه المرة يدها في مكان آخر غير صدره: - طيب اشرب يا حبيبي، ويلّا بقى عشان أنا ورايا ميعاد تاني.

على الرغم من أن مزاجه لم يكن رائقًا، فإن يديها وأنفاسها الحارة وأزرار فستانها التي تركتها مفتوحة عمدًا، ذهبت بعقله قبل أن يضع الخمر في فمه ونسي ما قد رآه منذ بضع دقائق، ليلتحم مع سهام في لحظات لا تُنسى!

ظرف للشرطة

لم يستطع علاء وإبراهيم أن يستكملا التحقيق مع كريم الذي دخل في نوبة بكاء شديدة، وظل جسده يرتعد بشدة، مما جعل علاء يتركه يجلس وحيدًا في إحدى غرف القسم، وطلب منهم تقديم عصير الليمون له لعله يهدأ قليلًا، ويستطيع أن يستكمل التحقيق معه، لعله يصل إلى شيء من دون أن يُضطر إلى إرساله إلى النيابة للتحقيق من دون اكتمال الصورة في عقله أولًا. طلب علاء قهوة لنفسه وشايًا لإبراهيم، وظل كلاهما صامتًا يفكر فيما قاله كريم، وقبل أن يأمر علاء بأن تأتي ياسمين من الحجز قال إبراهيم ببعض التردد: - أنا حاسس سعادتك إنه مش بيكدب.

- ما هي دي المصيبة وأنا كمان شايف كده، وبيني وبينك الورق كان خلاص ممضي من سالم، يعني لو كان مضاه كان الموضوع خلص، ما كانش محتاج يقتل هيثم فعلًا.

- موضوع الموبايل ده سعادتك برضو أكيد ليه علاقة بموت الست بتاعة إنجلترا.

- أنا كمان حاسس بكده.

- باقولك إيه تعالَ نشوف ياسمين دي والفستان، يمكن حاجة تنور في القضية الزفت دي.

قبل أن ينادي على العسكري الذي يقف أمام باب غرفته، طُرق الباب فأذن علاء للطارق بالدخول. كان العسكري نفسه وفي يده ما يبدو ظرفًا به دعوة فرح! تبادل علاء وإبراهيم النظرات سريعًا.

- سعادتك الظرف ده جه لحضرتك.

- مين اللي جابه؟ هو لسه هنا؟

قالها إبراهيم الذي همَّ بالخروج لعله يلحق بمن أحضر الظرف، إلا أن العسكري قال: - لأ سعادتك، ده عبده اللي واقف على باب القسم اللي جابه، قال جه مع البوسطة بتاعة محمد بيه، ولقى اسم حضرتك عليه فجابه هنا.

- طيب، روح إنت دلوقتِ.

فتح علاء الظرف ليجد فيه قصاصة من جريدة قديمة كانت تتحدث عن حدث سياسي ما، فلم يفهم علاء لماذا أُرسلت إليه، لكنه قلَّب القصاصة ليجد ذلك الخبر أمامه.

«ذلك وقد انتقل المحافظ إلى مكان الحادث، وأمر بإغلاق المدرسة حتى إشعار آخر، وأمر بأن تحظى الطالبة منى عبد العظيم الطيب بكل الرعاية التي تُعينها على تخطي الأحداث، وأن تُمنح نجاحًا استثنائيًّا لهذا العام».

لم تكن هناك تفاصيل عن الحادث غير أن هذه المدرسة في محافظة الإسكندرية. «منى عبد العظيم الطيب»، لماذا يبدو هذا الاسم مألوفًا؟ دارت

عينا علاء على مكتبه حتى وقعتا على ملف نور الذي أعطاه إياه عادل. نور التي هددت بقتل هيثم ولم يُستدل عليها حتى هذه اللحظة. فتح الملف وقرأ «نور عبد العظيم الطيب»! تبدو كأنها أخت نور والحادث قديم في الإسكندرية! ما أعقد هذه القضية التي لا يبدو أنه سينتهي منها أبدًا! تنهد وهو يشعل سيجارة أخرى وهو ينظر إلى إبراهيم الذي فهم معنى النظرة من دون أن يتحدث علاء وقال: - حاضر سعادتك، أنا هاسافر إسكندرية على طول.

هز علاء رأسه وهو ينادي العسكري ويأمره:

- روح يا ابني هاتلي اللي اسمها ياسمين دي من الحجز، خلينا نشوف القضية اللي ملهاش نهاية دي.

خرج العسكري ليلبي أمر علاء، في حين قام إبراهيم وقد التقط قصاصة الورق لتكون بداية خيط له لبحثه في الإسكندرية، في محاولة لتتبع طرف الخيط المُهدى إليهم.

منى ونور

الإسكندرية منذ سنوات بعيدة

أصاب عبد العظيم توتر شديد وهو ينظر إلى ساعته، فقد اقترب بشدة موعد خروج منى من المدرسة وهو قد تعطل في اجتماع مهم لم يستطع الخروج منه. لم يكن عصر الهواتف المحمولة قد حان ليبلغ أحدًا برسالة، وكان يعلم أن سلوى مريضة جدًّا، وأن والدَي نور سافرا خارج البلاد في زيارة، تاركين ابنتهما مع منى التي كانت في منتهى السعادة وهي تنام بجوار صديقتها المقربة. أراد أن يتصل بالمدرسة، لكن هذا أيضًا لم يكن متاحًا. دعا بشدة أن ينتهي هذا الاجتماع في الدقائق المقبلة، فالقلق يعتصر قلبه على وحيدته منى. كانت منى في هذه اللحظة تلعب مع نور غير مكترثة بأن وقت ذهابها إلى المنزل قد اقترب وأبوها لم يظهر بعد، وكانت المشرفة تتململ بشدة، فهي أيضًا لديها زوج وأبناء وتريد بشدة أن تذهب إليهم، فقالت لمنى: - هو بابا ما جاش ليه يا منى؟ ولَّا ماما هي اللي جاية؟

- مش عارفة هو قال جاي ياخدنا، عشان ماما عيانة.

- طيب اقفي هنا إنتِ ونور لغاية ما أدخل الحمام وأرجع.

ما إن دخلت المشرفة حتى اقتربت نور من منى، وقد أخفضت صوتها وهي تتحدث معها: - تعالي بقى نجيب العروسة قبل ما المس ترجع.

- هي العروسة فين؟

- أنا خبيتها هناك.

وأشارت نور إلى المبنى الذي يجري ترميمه في المدرسة، وقالت لمنى: - يلَّا بسرعة قبل ما المس ترجع أو أونكل ييجي.

انطلقت الفتاتان بسرعة إلى حيث المكان الذي خبأت فيه نور الدمية، وما إن ذهبتا حتى عادت المشرفة التي لم تجد الفتاتين، فتنفست الصعداء وهي تنطلق إلى الباب مسرعة لتذهب إلى بيتها وقد ظنت أن والد منى قد حضر وأخذهما.

- بتدوري على إيه يا كتكوتة؟

قالها أحد العمال مخاطبًا نور التي ظلت تبحث عن الدمية ولم تجدها، ومنى تدور حولها محاوِلةً مساعدتها على الرغم من أنها خائفة.

- بـ... بادور على العروسة.

- آه اللي كنتِ حاطاها تحت الرملة دي؟

- أيوه.

- طيب تعالي أنا هاديهالك، أنا عارف مكانها.

لا شك أن كلتا الفتاتين قد توترتا، فالدمية مهمة جدًّا، لكن الذهاب إلى أي مكان مع شخص غريب شيء محرم كذلك. ضغطت منى على يد نور ألا تذهبي، إلا أن نور تركت يد صديقتها وقررت الذهاب معه، فهي التي أخذت الدمية، فالأمر بلا شك مسؤوليتها. لم تذهب منى، فقط وقفت تنتظر صديقتها التي توارت عن أنظارها.

إبراهيم والإسكندرية

اليوم

استنشق إبراهيم رائحة اليود المحببة إلى نفسه، فهو يعشق الإسكندرية في الشتاء، فهي ذات طابع خاص حيث تختلط رائحة المطر برائحة البحر المميزة. أخذ إبراهيم نفسًا عميقًا ليملأ صدره بهذا الهواء العليل، وابتسم وهو يحمد الله أنه أتى بسبب هذه القضية إلى مدينته المفضلة، فهو على الرغم من إرهاقه بسبب القضية فإنه على الأقل سيتاح له ارتشاف كوب من الشاي بالنعناع على البحر ووجبة سمك شهية. كان قد أجرى عدة مكالمات للقسم التابع له الحادث حتى يكون أحد الزملاء في انتظاره. كان إبراهيم سمحًا في معاملاته ومحبوبًا بين زملاء دفعته، فكان صديق الجميع في كل مكان تقريبًا، فاستقبله زميله منير بالأحضان، وطلب له كوبًا من الشاي وبعض الشطائر.

- أهلًا يا هيما، والله ليك وحشة جامدة، إيه ما نشوفكش غير في قضية كده؟

- والله يا منير إنت شغال زينا، وعارف أنا ما خطتش إسكندرية بقالي ييجي سنتين.

- هي فعلًا شغلتنا بنت ستين في سبعين، المهم إيه الموضوع بقى يا سيدي؟

قصَّ إبراهيم عليه في عُجالة الخطوط العريضة لقضية مقتل هيثم وقصة الظرف والقصاصة التي تحتوي على خبر الحادث التابع لهذا القسم. الحادث الذي وقع منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، وعلى ما يبدو أن أخت إحدى المشتبه فيهم التي لم يُستدل عليها إلى الآن أصيبت في هذا الحادث.

- طيب إنت لما كلمتني قلت أشوف القضايا اللي من زمان دي قرارها فين، بس اللطيف بقى إن إحنا بقينا في عصر التكنولوجيا والقضايا اتأرشفت على الكمبيوتر.

- خبر حلو ده، أنا قلت هنقعد نتردم في الأرشيف تحت.

- لا يا باشا، ده عصر الديجيتال ترانسفورميشن.

قالها منير ساخرًا وهو يتحرك مع إبراهيم إلى حيث أجهزة الكمبيوتر التي وُضعت عليها كل الملفات القديمة. وضع منير يده على كتف الموظف الذي يجلس أمام شاشة الكمبيوتر، وقال له بلهجة فيها تبسُّط لمعرفته به: - إبراهيم باشا جاي من مصر مخصوص، عايز معلومات عن قضية قديمة، عايزك تتوصى بيه يا أبو حميد.

- حاضر سعادتك، حضرتك تؤمر. اتفضل يا إبراهيم باشا.

أشار الموظف إلى إبراهيم بالجلوس بجواره، واستأذن منير ليذهب لإنهاء بعض مهام قضاياه هو شخصيًّا. جلس إبراهيم بجوار الموظف، ثم أملى عليه

اسم اللواء الذي كان يتولى التحقيق في هذه القضية وقد ظهر في القصاصة المرسلة إليهم، وأملى عليه أيضًا اسم منى عبد العظيم الطيب. لم تمضِ سوى بضع دقائق وظهرت المعلومات على الشاشة. قرأ إبراهيم سريعًا ما اتضح أنها قضية اغتصاب ومقتل طفلة في إحدى مدارس الحي التابع لهذا القسم. كانت الطفلة نور أحمد عبد الواحد وصديقتها منى عبد العظيم الطيب قد تخلفتا في المدرسة بالخطأ، وكانت المدرسة تحت الترميم، وأحد العمال الذي يعمل في المدرسة قد أعماه المخدر، فالتقط الطفلة نور بعد أن أغراها بالذهاب لتأخذ دميتها واغتصبها ثم قتلها، وشاهدت الحادث صديقتها منى التي تمكنت من الهرب. أشاح إبراهيم بنظره عن الشاشة رغمًا عنه من بشاعة صور الطفلة المقتولة. هز رأسه بأسى حقيقي وهو يعتذر من داخله إلى هذه الطفلة، ويتخيل قدر الهول الذي تعرضت له الطفلة الأخرى. خطَّ على ورقة بعض المعلومات، ومن أهمها عنوان الفتاة الأخرى الذي هو في الغالب عنوان المدعوة «نور». لم يحتَج إبراهيم إلى تخمين ليدرك أنها في الحقيقة منى. شكر إبراهيم الموظف ومن بعده منير في طريقه إلى الخروج من القسم.

شعر بحاجة حقيقية إلى استنشاق الهواء المعبَّق برائحة البحر مرة أخرى، لطرد صور مقتل الطفلة من عقله. كان منزل منى على بعد ربع ساعة تقريبًا من القسم، فاختار إبراهيم أن يذهب سيرًا على قدميه، لعله يستفيد من الهواء البارد، ويفكر في كل هذه الأمور التي لا تبدو ذات صلة إلى الآن. قتل أو انتحار امرأة في إنجلترا، وقتل واغتصاب طفلة في الإسكندرية، وقتل هيثم سالم في القاهرة؟! وصل إبراهيم إلى حيث كانت تسكن منى ونور ومر بجوار المقهى الذي يتوسط الشارع، ثم فكر أنه لو وجد أحد السكان القدامى في هذا المقهى فلا بد أنه يعرف المزيد عن الحادث. دخل المقهى بالفعل ووجد واحدًا من روَّاده يبدو كبيرًا في السن، فتأكد من عامل المقهى بعد أن عرَّفه بنفسه أنه أحد سكان المنطقة ومن روَّاد المقهى منذ سنوات.

- مساء الخير. النقيب إبراهيم مباحث.

- أهلًا بحضرتك، اؤمرني.

- حضرتك ساكن هنا من زمان؟

- آه، طول عمري، أنا مولود هنا كمان.

- تفتكر بنت صغيرة اسمها نور أحمد عبد الواحد وواحدة تانية اسمها منى عبد العظيم الطيب؟

- ياااه، اللهم احفظنا! إيه اللي جاب سيرتهم تاني دول؟

- يعني حضرتك فاكر.

- يا ابني ودي حاجة تتنسي، ده وقتها الشارع ضلم، والأهالي كلهم كانوا هيقتلوا المشرفة ولَّا العامل بقى، ده كان هيتقطع.

- طيب إيه اللي حصل لمنى؟

- يا عيني البنت كانت مصدومة شافت بعينها صاحبتها غرقانة في دمها جنب العروسة وطلعت تجري، ستر ربنا الأستاذ عبد العظيم كان وصل وهو اللي لحقها، بس العيلتين عزِّلوا محدش فيهم قدر يبص في عين التاني أبدًا، وأعتقد سابوا إسكندرية كلها.

- طيب ما تعرفش عيلة منى عزِّلت فين بالظبط؟

- مش عارف، بس كنت سمعت إن الأستاذ عبد العظيم ما طولش ومات بعد الحادثة بكام شهر من كتر ما كان حاسس بالذنب.

- طيب وهو ماله؟

- أصله اتأخر في الشغل وساب البنتين لوحدهم، فحصل اللي حصل. أبو نور كان برضو هيموته لولا الجيران حاشوه.

- طيب ومنى ومامتها؟

- معنديش فكرة والله سعادتك.

- فين شقة منى؟

- هي اللي في النص دي.

أشار الرجل إلى إحدى شرفات البناية، فرفع إبراهيم بصره إلى حيث أشار، فاصطدمت عيناه بعينين عسليتين كانتا تتطلعان من فرجة صغيرة من وراء الستار، وما إن رأت صاحبتهما إبراهيم حتى توارت في لحظتها. شكر إبراهيم الرجل في عجالة، وانطلق إلى حيث كانت تسكن منى، فارتطم بفتاة ذات شعر كستنائي وعينين عسليتين وهو يصعد الدرج. لم يفكر فأمسكها من كتفها بحزم رفيق: - إنتِ منى مش كده؟

- أنا نور!

ياسمين والظرف

قبل القتل بعدة أشهر

دلفت ياسمين إلى مكتبها، ووجهها بلا لون تقريبًا منذ أن وصلت إليها الصور وهي ليست على ما يرام، والفستان الذي سلمته إلى شخص لا تعرفه ولا تعلم أين ذهب، ومكالمة مديرها مدحت الذي أخبرها بأن هناك ظرفًا لها في المكتب. كل هذا جعل من يراها يشعر بأنها مريضة جدًّا، وتساءلوا بصدق وقلق لماذا تركت فراشها لتأتي إلى المكتب الآن؟ كانت محبوبة في عملها. الكل يحب أن يتحدث معها وهي تساعد وتجامل الجميع أيضًا، كانت نقية الروح بشهادتهم جميعًا، وكانت تسأل نفسها دائمًا كيف انتهت بها الحال في أحضان رجل غير زوجها وهي التي يغلف الحياء والنقاء قلبها؟ لكن سنوات من الحرمان مع آسر في مقابل حنان علي جعلت المقاومة عسيرة حقًّا، وكانت تبدو كأنها في معركة تكافح للفوز بها، لكنها انتهت بخسارة رهيبة. طرقت باب مديرها مدحت ودخلت حين أذِن لها بذلك.

- ياسمين! إيه اللي جابك يا بنتي؟ شكلك تعبان جدًّا لسه.

- لا، ولا تعبانة ولا حاجة، أنا محتاجة أنزل، باقولك هو فين الظرف اللي جالي؟

قالتها بسرعة محاولةً أن تخفي توترها الرهيب، متمنية ألا يكون أحد قد فتح الظرف، فهي لا تعلم ما الذي يوجد بداخله حتى الآن. أهي مجموعة صور جديدة لها مع علي في هذا اليوم المشؤوم، أم تعليمات جديدة من صاحب الرسائل والأظرف المجهولة؟ أعطاها مدحت الظرف فتنفست الصعداء رغمًا عنها حين وجدته مغلقًا تمامًا. شكرته وانطلقت إلى مكتبها وأغلقته بالمفتاح حتى تنعم ببعض الخصوصية مع الظرف المجهول. ارتعدت يدها وهي تفتحه، لكن صورة آسر زوجها أطلت من داخل الظرف، كان يجلس متأنقًا في أحد المطاعم وبجواره باقة كبيرة من الورد، وعلى وجهه نظرة انتظار تعرفها جيدًا، نظرة توقف عن إعطائها إياها منذ زمن. آسر ينتظر امرأة أخرى، استطاعت أن تجعل في نظرته لهفة وشوقًا كما كان في نظراته القديمة لها. آسر على علاقة بامرأة أخرى هو الآخر! بحثت في الظرف لعلها تجد شيئًا آخر، لكنها لم تجد غير هذه الصورة، وقد خُطَّ على ظهرها: «كما تدين تُدان».

علاء وياسمين في القسم

اليوم

جلست ياسمين أمام علاء في القسم، وقد أحنت رأسها متفادية النظر إلى علاء بشكل مباشر. كان قضاء بضع ساعات في القسم جعلها تشعر بمزيج غريب من الخوف والشعور بالعار. يلاحقها الشعور بالعار منذ لقائها مصادفةً مع علي وتسارع الأحداث بينهما بهذا الشكل الذي جعلها عرضة للابتزاز من شخص لا تعرف مَن هو إلى الآن.

- مدام ياسمين، من غير لف ولا دوران فستانك كان عليه دم هيثم، مش محتاج أقولك ده معناه إيه، تعالي معايا دوغري يمكن أقدر أساعدك.

- بس الفستان ما كانش عندي أساسًا.

- يعني إيه؟ فهميني أكتر.

تنهدت ياسمين وبدأت في سرد القصة بلا مواربة، أخبرت علاء بكل شيء عن علي وعن المقابلة الساخنة بالفستان الأصفر التي لم يكن يعلم أحد عنها أي شيء سوى هيثم نفسه، وأنها اضطرت إلى أن تنصاع لأوامر صاحب الظرف الذهبي، حتى لا تختتم حياتها مع آسر بفضيحة لا قِبل لها بها، على الرغم من أنه هو الآخر يحيا قصة حب جديدة. لعن علاء تلك القضية في سِره، فهو رغمًا عنه يشعر بأنها هي الأخرى صادقة، وأن كمية الدماء على الفستان لا تجعل مرتديه قاتل هيثم في الغالب، وأن الأوقع أن الفستان قد وُضع فيما بعد لتوريط ياسمين، لكن مَن؟ ولماذا يريد أحدهم إيهام الشرطة أن ياسمين قتلت هيثم أو على الأقل ساعدت وكانت موجودة حين قُتل؟

- إنتِ كلمتِ هيثم من تلفون حسام الصبح ليه؟ مع إنك كلمتيه كذا ساعة ليلتها بالليل؟

- بالليل كلمته عشان أحاول أفكر معاه مين وليه يكون بيعمل كده، خصوصًا إن الوحيد اللي كان يعرف مكان المقابلة دي هو هيثم، فكنت متخيلة إن ممكن حد من العيادة يكون هو اللي عمل كده.

- طيب وهيثم كان رأيه إيه؟

- هيثم كان قلقان برضو، وقالي إن هو كمان وصله ظرف بيهدده، وإن أكيد اللي بيعمل كده حد قريب، وقالي... قالي...

- قالك إيه؟

- قالي إنه هيروح يقابله بكرة بعد ما يخلص قهوته.

صمت علاء وهو يتخيل ظرفًا آخر يأتي لهيثم غير الذي يحوي أوراق التنازل عن المستشفى، ما الذي يحويه هذا الظرف ليدفع هيثم إلى مقابلة شخص مجهول في مكان مثل البناية التي قُتل فيها؟

- طيب والصبح كلمتيه ليه؟ وإشمعنى من تلفون حسام؟

- كان تلفوني فاصل شحن، وجالي ظرف مكتوب فيه إني لازم أكلمه.

- الظرف كان مكتوب فيه إنك تكلميه بس؟!

- لأ، كان مكتوب فيه إني أكلمه وأتفق معاه إني أقابله في الكوفي شوب على الساعة عشرة، نتكلم ونشوف بعد ما يقابل الشخص ده إيه الحكاية.

- طيب ليه رُحتِ بدري كده؟

- كان عندي اجتماع، فقلت أشرب قهوتي وأكلمه، وأروح الشغل وأرجع، وده فعلًا اللي حصل.

- رجعتِ الساعة كام؟ ولما رجعتِ إيه اللي حصل؟

- رجعت متأخرة شوية على حداشر ونص مثلًا، ولقيت عربيته واقفة بس هو لأ، فضلت شوية ومشيت، حاولت أكلمه تلفونه كان غير متاح، والصبح عرفت إنه اتقتل.

مرة أخرى شعر علاء بأن قصتها صادقة، وأنها تتوافق أكثر مع فكرة أن شخصًا ما أرادها أن تتورط في القضية، فأراد ضمان وجودها بالقرب من مسرح الجريمة، وأراد لفستانها أن يتلطخ بدماء القتيل. غير أنه لا دافع واضح لها في قتل هيثم، إلا أن يكون هو نفسه مَن يهددها بالصور وهو شيء مستبعد إلى حدٍّ كبير. تنهد علاء وهز رأسه، ثم سأل ياسمين إذا كان بإمكانها تأكيد حجة غيابها، خصوصًا أنها لم تكن موجودة بالفعل وقت القتل، فاجتماعها أنقذها من خطة الشخص الذي يبتزها.

- فيه حد في المكتب يقدر يأكد إنك كنتِ هناك من الساعة عشرة لغاية ما رجعتِ؟

- آه طبعًا، كل زمايلي.

نفث علاء دخان سيجارته وهو يعلم أن التأكد من هذا الأمر لن يكون صعبًا، وفي الغالب ستكون صادقة. أمر بإعادتها إلى الحجز حتى يتأكد من قصتها ويراجع وقت تنفيذ الجريمة مرة أخرى، إلا أنه كان يعلم أن هذا الخيط ليس حقيقيًّا، وأنه مجرد تضليل قام به منفذ الجريمة الحقيقي، الذي أراد بلا شك توريط ياسمين في الجريمة.

نورهان

إنجلترا منذ ثلاثين عامًا

وقف عادل أمام باب المنزل ليلتقط البريد. كانت نسائم الخريف قد بدأت تهل والجو لطيف إلى حدٍّ كبير. ابتسم وهو يلمح بعض الطيور بجانب الشجر الذي يحيط بالمنطقة كلها، وفكر في أنه سيفتقد هذا المكان حين تنتهي فترة المنحة والإقامة، لكنه يفتقد رائحة مصر أيضًا وشمسها، التي نادرًا ما تظهر في إنجلترا. قلَّب البريد بين يديه ووقف عند ظرف مختلف أتى باسم «سالم». كان سالم قد انتقل ولم يعد رفيق السكن، فقد استأجر مكانًا آخر له واصطحب معه نورهان التي وضعت طفلًا جميلًا منذ عدة أشهر. لم يتزوجها سالم على الرغم من إلحاح عادل وعبد الرحمن عليه، فهو يحبها وهي كذلك، وقد ولدت طفلًا وإن لم يكن ابنه فهو بلا شك سيربيه. لكن سالم تملص من الأمر ولم يتمم الزواج بأي شكل، ولم تكن نورهان في مركز قوة فهي بلا أهل وبلا عمل، وكانت تحمل في أحشائها جنينًا نبذه العالم كله إلا هي التي أرادته بشدة، وفوق كل هذا كانت تعشق سالم فلم تعنِها ورقة تحمل بها اسمه فقط، وجوده معها يكفي، والغريب أن سالم ظل بجوارها فعلًا. فقط كان بين الحين والآخر يقضي سهرة مستترة مع إحدى صديقاته، لكنه كان يعود إلى نورهان في نهاية المطاف، حتى وهي في أواخر حملها كان يساعدها. كان عادل يراهن نفسه على أن سالم سيتركها في منتصف الطريق، لكن هذا لم يحدث، بل ظل معها حتى بعد ولادة طفلها. دخل عادل بالأظرف ووضع الظرف الخاص بسالم جانبًا وهو يفكر لماذا أتى هذا الظرف بالذات هنا، وقد غيَّر سالم عنوان مراسلاته كلها تقريبًا؟! ألقى عادل نظرة قلقة على الظرف وهو يخمن ما يحتويه ويتمنى أن يكون مخطئًا.

في المساء أتى سالم يلتمس صحبة صديقيه اللذين استقبلاه بحفاوة وقليل من السخرية، فقد أصبح رب الأسرة الذي لم يعد يسهر مع أصدقائه إلا قليلًا. تعالت ضحكات الأصدقاء الثلاثة إلى أن قام عبد الرحمن ليحضر بعض الفاكهة. وضع عادل يده على كتف سالم وقال له: - جالك جواب على هنا يا سالم.

- بجد؟ فين هو؟

قالها سالم بلهفة مَن يعرف ما الذي يحويه الخطاب وينتظره كذلك، فقال

له عادل بحزم: - ونورهان وابنها ناوي تعمل معاهم إيه؟

أشاح سالم بعينيه عن عينَي صديقه الذي يعرفه جيدًا، ونظر حوله عله يعرف أين الظرف، فوقعت عيناه عليه بجوار كومة أخرى من البريد، فأسرع بفتحه وظهرت على وجهه علامات الفرح، في حين ظهر القلق جليًّا على وجه عادل الذي أحكم قبضته على ذراع سالم وكرر: - ونورهان وابنها يا سالم هتعمل إيه معاهم؟

- إنت عارف يا عادل مش هاقدر آخدهم معايا.

- هتسيبها هنا لوحدها ومعاها طفل ابن شهور!

- وأنا مالي، هو كان ابني!

قالها سالم ببعض الغضب. لماذا يتحمل خطأ نورهان مع رجل آخر؟ وقد أحسن إليها طوال هذه الفترة، والآن عليه أن يهتم بمستقبله، فهذه الفرصة لن تتكرر. العمل في إحدى الجامعات الأمريكية المرموقة التي طالما حلم بها، فهي ستمهد له الطريق للصعود في هذا المجال، وكان يُحدث عادل وعبد الرحمن عن هذا الحلم لسنوات. الآن وقد حصل على ما يريد، يخبره صديقه بأن يتركه من أجل امرأة وطفل ليس حتى من صلبه! كان يعرف أن الأمر سيكون قاسيًا على نورهان فليس لها الآن سواه، ووجود طفل لم يتعدَّ عمره الأشهر العشرة لن يؤهلها للعمل، وكلٌّ من عادل وعبد الرحمن ستنتهي منحتهما قريبًا فأين ستذهب؟ ومَن الذي سيهتم بها عندما يتركها سالم؟ غير ما تكنه له من مشاعر حقيقية، لكن ما المطلوب منه إذن؟ أن يترك هذه الفرصة الذهبية ويبقى معها؟!

- عايزني أعمل إيه يعني؟

- اتجوزها وخدها معاك.

- أتجوزها؟! إنت اتجننت؟! أنا أتجوز دي!

- دي؟! بقالك أكتر من سنة عايش معاها، شايلاك وبتحبك وواخدة بالها من كل طلباتك وإنت كمان بتحبها، دلوقتِ بقت دي؟!

- عادل! أرجوك دي حياتي وأنا حر فيها!

- أنا حذرتك من الأول ما تدخلش في علاقة معاها بدل ما تئذيها وتئذي نفسك.

كان صوتاهما قد بدآ في الارتفاع وعبد الرحمن واقف في المنتصف بينهما يحمل سلة الفاكهة المتنوعة غير مدرك سبب الخلاف بين الصديقين.

- فيه إيه بس استهدوا بالله كده. حصل إيه يا سالم؟ يا عادل بس رد عليَّ.

- صاحبك يا سيدي هيسافر أمريكا، جاتله الشغلانة إياها.

- طيب مبروك، ما هو كان بيحلم بالموضوع، فيها إيه بقى؟!

- قوله يا عبد الرحمن، قال إيه عايزني أرفضها.

- أنا ما قلتش كده، بس اتجوز البنت وخدها هي وابنها معاك.

- هو إنت ناوي تسيب نورهان أصلًا؟

- إنت هتعوم على عومه يا عبد الرحمن، عايزني أتجوزها برضو؟

- آه طبعًا، أومال هتستندل مع البنية اللي عايش معاها بقالك سنة وزيادة؟

- يووه، الولد مش ابني حتى.

- البنت هتتدمر يا سالم، فكر شوية.

- دي بنت شمال أصلًا، إنتو اتجننتوا ولَّا إيه؟

نزلت قبضة عادل على وجه سالم بشكل فاجأه هو وعبد الرحمن الذي لم يصدق أن عادل وجه ضربة إلى صديقه، إلا أن عادل كان قد تربى مع نورهان ويعرف الكثير عنها وعما مرت به وشعر بغضب حقيقي تجاه سالم، الذي يحيا كل ليلة قصة مختلفة ثم يصدر حكمه على طفلة لم تتجاوز العشرين بعد. تركها أحد الأنذال وحيدة بعد أن حملت بطفله.

- إنت بتضربني يا عادل!

كاد سالم يرد إليه الضربة لكن عبد الرحمن وقف حائلًا بينهما، وقال لعادل وسالم معًا: - ما يصحش كده يا عادل، روَّح يا سالم دلوقتِ، وربنا يهديك، فكر في البنية اللي علقتها هي وابنها بيك دي، يلَّا يلَّا روَّح.

خرج سالم من الشقة وقد تصارع كمٌّ من المشاعر الرهيبة في نفسه. غضب من عادل، وتأنيب ضمير وخزي مما سيواجهه مع نورهان. ظل يجوب الشوارع حول بيته عله يهدأ ويفكر جيدًا، وانتهت به الحال إلى منزله مع نورهان التي ما إن دلف حتى استقبلته كعادتها بشوق وحنان حقيقيين.

- أومال دودي فين؟

- نايم، مالك يا سالم وشك متغير، فيه حاجة؟

- نورهان... أنا... أنا هاسافر أمريكا.

إبراهيم ونور

اليوم

جلس إبراهيم في أحد المقاهي التي تطل على البحر بجوار العنوان الذي قابل فيه نور أو منى، وتأمل وجهها الأبيض الذي لا شك أنه جميل جمالًا هادئًا مريحًا. كانت خصلات شعرها الكستنائي تتناثر بفعل هواء الكورنيش. شعر إبراهيم رغمًا عنه بغصة في صدره وهو يتذكر صورة صديقتها المقتولة، وبعض الصور التي التُقطت لها وهي صغيرة. شعر بأسى حقيقي لما عانته هذه الفتاة، فقط ليقوم طبيب نفسي من المفترض أن يكون مؤتمنًا عليها بمعاشرتها رغمًا عنها أو حتى برضاها، لكنه حتمًا استغل مرضها وما حدث لها وهي صغيرة ليحقق هدفه. لم يستطع أن يبدأ حديثه معها على الفور، بل جلس أمامها صامتًا، وتركها هي الأخرى تشرد في أمواج البحر العالية، وترتشف من كوب الليمون بالنعناع الذي طلبه لها، لكنها هي التي قطعت الصمت وهي تنظر إلى عينيه، وتمتمت بصوت خفيض: - أنا ما قتلتوش، بس فرحت أوي إنه اتقتل.

- طيب إيه اللي خلاكِ تسيبي القاهرة وتهربي هنا؟

- أنا ما هربتش، ده بيتي الأصلي، أنا كنت محتاجة آجي هنا أوي.

- كنتِ فين يوم ما هيثم اتقتل يا نو... ولَّا أقولك يا منى؟

- قلتلك أنا نور.

قالتها بانفعال وقد ارتعشت يداها، وارتسم الألم على وجهها.

- طيب كنتِ فين اليوم ده يا نور؟

ظلت تنظر إلى عينَي إبراهيم وشعرها يتطاير من شدة الهواء، ثم نظرت إلى الأسفل وقد ضمت يديها على جسدها كأنها تحتضن طفلًا صغيرًا، وأغمضت عينيها لثوانٍ، ثم تنفست بعمق ونظرت مرة أخرى إلى عينيه: - كنت هناك في العمارة إياها اللي اتقتل فيها.

اعتدل إبراهيم، وترك كوب الشاي الذي كان يحمله في يده، وهو يحاول أن يستشف ما وراء هدوء ملامحها، وهي تقول بنفسها إنها كانت إلى جوار هيثم لحظة موته، لكنه لم يتحدث وتركها تكمل، فقد بدت أنها تريد أن تُخرج ما في صدرها.

- وقفت جنبه وشُفته ميت. شُفت عينيه وهو باصص للسما زي عينيها بالظبط يوم ما ماتت، هو كمان كان لازم يموت، بس هو كان لازم يموت كذا مرة مش مرة واحدة.

انتبهت حواس إبراهيم كلها، فهل هو في حضرة اعتراف بقتل هيثم؟ هل أخيرًا انتهت القضية التي أطارت النوم من عينيه وعينَي علاء لأسابيع؟ ظل صامتًا تاركًا لها المجال لتتحدث فقد بدت كأنها تُحدث نفسها.

- كان لازم يموت على كل سنة هي ماتت فيها... أربعة وتلاتين مرة. كل سنة كانت هتبقى عايشة فيها، كل سنة كانت هتضحك وتتجوز وتشتغل، بس هو واللي زيه حرموها من ده.

صمتت وهي ترتشف الليمون مرة أخرى، وتشرد في أمواج البحر التي ازدادت ارتفاعًا، فقال لها إبراهيم بصوت خفيض به بعض التعاطف: - قتلتيه بإيه؟ وإزاي بالظبط؟

نظرت إلى عينيه بنفس الشرود كأنها لا تراه، وظلت ترتشف الليمون فبدا لإبراهيم أنها ليست في حالة طبيعية، إلا أنه أراد أن يفهم كيف قتلت هيثم وكيف طرحته أرضًا وطعنته؟

- ضربتيه الأول على دماغه فوقع، بعدها قتلتيه؟

- أنا ما قتلتوش. كان مات، مات خلاص.

توني وسهام في الجنينة

قبل القتل بعدة أشهر

وقفت سهام وسط حديقة منزلها تنظر إلى حوض الزرع الذي امتلأ بالزهور المختلفة التي تحبها. تشبثت يداها بكوب من العصير تحمله وهي تتذكر اليوم الذي وُضع فيه هذا الحوض بالذات في منتصف الحديقة. كان مختلفًا عن كل ما حوله، مميزًا باختلاف ألوان الزهور التي امتلأ بها، وقد توسط الحديقة بالضبط تقريبًا. هبطت دمعة صامتة من عينيها وهي تتحسس السلسال الذي يزين رقبتها منذ سنوات، ثم انحنت لالتقاط إحدى الزهور من الحوض كانت تبدو كأنها على وشك أن تذبل ما إن لمستها حتى تطايرت من يدها. تابعتها بعينيها الحزينتين ولم تنتبه لتوني الذي انحنى بجوارها واحتضنها بذراعيه القويتين. جفلت لثوانٍ ثم تركت رأسها يسقط على كتفه، فطبع قبلة حانية على وجنتها، ثم سندها ليساعدها على الوقوف وما زالت بين ذراعيه.

- جيت يعني، كنت فاكراك عندك شغل النهارده.

- كان عندي شغل ولغيته، عارف اليوم هيبقى صعب عليكِ.

ابتسمت بامتنان وهي تواجهه بجسدها وتحتضنه في عناق طويل، وهو يشرد بعينيه في حوض الزرع أمامه، ويحكم ذراعيه حولها وقد ارتطمت أنفاسها الحارة ودموعها الساخنة بصدره العاري، وقد ترك بعض أزرار قميصه مفتوحة كعادته. زفر وقد اختلطت مشاعره وهو يبعدها عن صدره برفق وينظر إلى عينيها: - سهام. سيبك من هيثم ده أرجوكِ، مش هييجي من وراه غير بلاوي صدقيني.

تراجعت إلى الخلف، تتخلص من عناقه كليًّا، وهي ما زالت تمعن النظر فيه: - إزاي بتقول كده يا توني دلوقتِ؟

- سو اسمعيني، تعالي نسافر، أنا بيتي في إنجلترا لسه موجود، تعالي نعيش هناك ونسيب كل ده ورانا.

صمتت وهي تبتعد عنه أكثر فأكثر حتى جلست على أحد المقاعد المتناثرة في الحديقة، وهو ما زال ينظر إليها، وقد زفر بضيق وحنق وغضب. لم يستطع أن يتمالك مشاعره وهو يراها مصرة على أن تسير في نفس الطريق مرة أخرى، فارتفع صوته رغمًا عنه وهو يقول لها: - إوعي تفتكري إني هاسيبك يا سهام تدمري حياتك.

- توني إنت عندي بالدنيا، لكن دي حياتي وأنا حرة فيها!

- لأ يا سهام مش حرة. مش حرة. إحنا زرعنا الجنينة دي مع بعض ما ينفعش تقولي دلوقتِ دي بتاعتي لوحدي.

كان صوته قد ارتفع واحمر وجهه من شدة الانفعال، فاقتربت منه سهام واحتضنته مرة أخرى وهي تهمس في أذنه بصوت جمعت فيه بين الدلال والحب غير المفتعل: - حاضر يا توني، سيبني أقفل بس القصة على هوايا وبعدين نسافر.

ضمها بعنف حتى كادت عظامها تؤلمها، وهو يقول هامسًا بصوته الرخيم: - بجد يا سو، بجد؟

- أيوه يا توني صدقني. يلَّا هات الخرطوم واسقِ معايا الزرع بقى!

عادل وعلاء في القسم

اليوم

احتسى عادل الشاي باللبن الذي أحضره له العسكري في مكتب علاء بعد أن استُدعي ليدلي بأقواله في القسم. كان متعجبًا لذلك فهو لا يملك أي جديد ولم تصل إليه مكالمة جديدة من القاتل، ولم يكن هناك أي معلومة إضافية لديه ليخبر علاء بها. آخر لقاء بينهما في منزل عادل قد أخبره بأمر الكتاب والكلمات المدوَّنة عليه. لم يكن علاء في الغرفة بعد، خمَّن أنه ربما ذهب إلى الحمام وأرسل مَن يحضر له الشاي باللبن الذي يُفضله. لم تمضِ سوى بضع دقائق حتى دخل علاء ومن خلفه إبراهيم. ألقيا التحية عليه واتخذ كلٌّ منهما مقعده، لكن علاء ترك مكانه وجلس على الأريكة المواجهة للمكتب، وقد أراد أن يريح ظهره المتعب، فاليوم كان شاقًّا طويلًا، وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساءً.

- معلش يا دكتور، تعبناك معانا.

- لا أبدًا، يا ريت أقدر أساعد، بس أنا تقريبًا قلت كل حاجة.

- دكتور عادل. هو إيه موضوع قتل نورهان ده؟

قالها علاء بحزم لعادل الذي تراجع إلى الخلف قليلًا، وأعاد كوب الشاي إلى المكتب، ثم تنهد وقد ظهر على ملامحه الأسى، كأنه يتذكر طيف ابتسامة نورهان التي كانت لا تفارقها.

- نورهان ما اتقتلتش. نورهان انتحرت.

- أومال إيه اللي حصل لعبد الرحمن أبو كريم؟

صمت عادل وظل ينظر إلى علاء وإبراهيم، ثم قال بعد بضع ثوانٍ: - سالم هو السبب، أنا قلتله يسيبها في حالها بس هو ما سمعش كلامي أبدًا، بوظ حياته وحياتها وحياة عبد الرحمن كمان.

ظل علاء وإبراهيم صامتين منتظرين شرح عادل الذي بدا رغمًا عنه متأثرًا وهو يسرد عليهما الحكاية.

- نورهان كانت أصغر مننا تقريبًا بعشر سنين، يعني كانت عَيلة صغيرة عندها حوالي تسعتاشر سنة وحامل، سالم دخل عليها والمسكينة صدقته هو كمان، وافتكرت إنه بيحبها بجد وولدت ابنها، وأول ما جاله عرض شغل مغري في أمريكا قرر يسيبها هي وابنها من غير أي حاجة. حاولت بكل الطرق أغير رأيه وأنا وعبد الرحمن قلناله برضو ياخدها معاه والولد كمان كان متعلق بيه أوي، لكن ما رضيش.

صمت عادل ليلتقط أنفاسه ويحاول أن يستجمع قواه ليكمل ما حدث،

والتقط من فوق المكتب كوب المياه الذي أتى مع الشاي، ارتشف منه، وكلّ من إبراهيم وعلاء ينظر إليه بقلة صبر.

- لغاية يوم أغبر كده قبل سفر سالم بيوم تقريبًا أنا ما كنتش موجود كنت في القاهرة بالصدفة عشان أبويا الله يرحمه كان تعبان، بس عبد الرحمن... عبد الرحمن هو اللي ساعد سالم.

مرت الأيام على نورهان وسالم في صمت تقريبًا، فهي لم تحاول أن تثنيه عن قراره، فقد علمت أنه لا فائدة في هذا الأمر. تعجَّب سالم من هذا وتخيل أنها تحاول أن تقضي ما تبقى لها من وقت معه في سلام، إلا أنها في عقلها قد أظلمت الدنيا وهي تعلم أنها ستكون وحيدة بلا مورد رزق ولا مأوى ومعها طفل رضيع، وأنها للمرة الثانية سيتخلى عنها حبيبها، فأعدت العدة ليلة سفر سالم وأخبرته بأنها تريد أن تتناول معه عشاءً أخيرًا، وتودعه بكوب من القهوة ليكون آخر كوب لهما معًا. أعدت الطعام وقد نمَّقته وجمَّلته ووضعت على الطاولة المجاورة باقة كبيرة جدًّا من الورد، وبدلال كبير همست في أذن سالم أن يُطعمها بنفسه، ففعل وهو يفكر رغمًا عنه في قضاء الساعات المقبلة في أحضانها، فقد كانت مشرقة باهرة في هذا اليوم بشدة. ذهب إلى الحمام لثوانٍ استعدادًا لاستقبالها بين ذراعيه، وحين عاد وجدها ملقاة على الأرض، فانحنى بجزع ليتفقدها، لكن ورقة في يدها المغلقة جعلته يدرك ما الذي حدث. فتح يدها بعجالة ليقرأ ما كتبت: «سالم حبيبي. أنا كنت عايزة آخر ساعات لينا مع بعض تكون مميزة، وكنت عايزاك إنت اللي تأكلني بإيدك عشان تفضل فاكر إنك أنت اللي قتلتني. مش عشان اللي حطيته في الأكل لأ، عشان اتخليت عني أنا وأحمد. أحمد اللي فاكرك أبوه. أنا حبيتك يا سالم من كل قلبي، بس اللي زيك ما يعرفش يحب».

دارت كل الأفكار في عقل سالم، فطائرته ستغادر بعد بضع ساعات، وفي الغالب ما وضعته في الطعام كان المنوم الذي جاء إليها به من المستشفى من دون ورق رسمي. سيظل في إنجلترا وقتًا طويلًا إن جاءت الشرطة لتحقق في هذه الحادثة، وستتلاشى فرصة عمله الذي ينتظره في أمريكا. لا يدري لماذا فكر في البحيرة التي تبعد عن الشقة بضعة كيلومترات، فسيبدو أنها سقطت من فوق الكوبري الصغير وهي مخدرة وماتت غرقًا، وحين تُكتشف جثتها لن يكون هو في إنجلترا أصلًا. التقط هاتف الشقة واتصل بعبد الرحمن وطلب منه أن يأتي سريعًا. وبالفعل جاء عبد الرحمن ليجد سالم يطلب منه حمل نورهان إلى البحيرة. لم يصدق عبد الرحمن، لم يُرِد أن يساعده إلا أن سالم ترجاه وأخبره بأن مستقبله سينتهي تمامًا إذا عُرف موضوع الدواء المخدر الذي انتحرت به، وأن لا ضرر من إلقائها في البحيرة

وقد ماتت بالفعل. لم يكن الأمر سهلًا على عبد الرحمن إلا أنه تجاسر وساعد صديقه وانحنى ليحملها معه. والحق أن الأمر كان شاقًّا واحتاج إلى كثير من المواربة حتى لا يراهما أحد، إلا أن ما أطار عقل عبد الرحمن هو لحظة إلقائها في البحيرة، فمن دون سابق إنذار تشبثت بقميصه، وقالت بصوت واهن وعينين شبه مغمضتين: - انقِذني!

إلا أن سالم لم يتوقف وتركها تفلت من يده إلى البحيرة، في حين ظل عبد الرحمن يصرخ بصوت لا يكاد يسمعه أحد، وقد أمسك بقميص سالم: - دي كانت لسه عايشة. لسه عايشة يا سالم.

- عبد الرحمن اهدا، مش ممكن كنا هنلحقها، كنا هنورط نفسنا بس.

- عايشة يا سالم رميناها عايشة!

* * *

- لما رجعت من القاهرة كان سالم سافر، وعبد الرحمن كان بدأ يتعب ويشوف نورهان في كل مكان، وهي بتطلب منه يلحقها، وشوية بقى بيكلم نفسه في كل مكان على الرغم من إن التحقيق كان بعيد عنه هو وسالم، لكن عبد الرحمن كان حاسس بذنب فظيع وفضل كده لغاية لما اترفد من الجامعة، وبعتوا توصية إنه ما ينفعش يشتغل طبيب أصلًا، وفضل سنين يتعالج ورجع بلده وبعد كام سنة اتجوز بنت عمه وخلف منها كريم. سالم بقى كان رجع من أمريكا متجوز ومعاه فلوس كتير، واسمه كان اتعرف وفتح المستشفى بتاعته.

- طيب وإيه اللي خلى كريم يتربى بعد كده مع هيثم عند سالم؟

- سالم برضو كان حاسس بالذنب ناحية عبد الرحمن اللي حياته باظت خالص وعايش يا دوبك بإيراد أرض أبوه في البلد، فحب يعوضه وعرض ياخد كريم ويدخله المدرسة مع هيثم ويبقى يرجع في الأجازات، وده اللي حصل فعلًا.

- عشان كده سالم كتب المستشفى باسم كريم؟ عشان حاسس بالذنب ناحية عبد الرحمن؟

- هو سالم كتب المستشفى باسم كريم؟!

قالها عادل متعجبًا، وكان واضحًا أنها أول مرة يسمع فيها هذه المعلومة. نفث علاء بعضًا من دخان سيجارته، وقد خطر سؤال على باله فجأة، فقال لعادل وهو يمعن النظر فيه: - وابن نورهان. ابن نورهان حصله إيه؟

أمام عيادة عادل

قبل القتل بعدة أشهر

هبطت نور على الدرج وهي تحتضن الظرف الذي يحوي صورها مع هيثم، ودموعها لم تجف بعد. كانت تعلم أن عادل في الغالب لا يملك فعل شيء ما لها، وأن هيثم وإن كان بلا خلق فهو بمقام ابنه. تنازعت في نفسها كل المشاعر وهي تتذكر رغمًا عنها نور صديقتها التي أبت إلا حمل اسمها بعدما اغتُصبت، وقُتلت على مرأى منها. تمنت لو أنها هي من ماتت في هذا اليوم المشؤوم، فالدمية كانت لها. ظلت تشعر بذنب رهيب لأنها لم تذهب مع نور لجلب الدمية، وعلى الرغم من إدراكها أنها لم تكن لتنقذها، فإنها تمنت بداخلها لو تلقى نفس مصيرها على الأقل، بدلًا من أن تحيا وحيدة مع الشعور بالذنب وصور نور التي تلاحقها وهي ملقاة على الأرض، وعيناها شاخصتان إلى السماء والدمية بين يديها وحذاء تلك الدمية ملقى جانبًا، لتواجهها الأرقام الخاصة بشكوى المدرسة التي خطَّها أبوها عليها. الشكوى التي أتت بالعمال، الشكوى التي أدت إلى موت نور. كانت قد انغمست تمامًا في ذكرياتها فلم تنتبه لخطواتها فارتطمت بشدة به فتناثرت صورها مع هيثم على الأرض، واحمر وجهها بعنف وهي لا تكاد ترفع بصرها نحو مَن اصطدمت به، وتساءلت ماذا رأى بالضبط من هذه الصور المخزية؟ انحنى معها ووضع الصور في ثوانٍ في الظرف ومد يده لها لمساندتها لتقف مرة أخرى وهو يسلمها الظرف. نظرت إلى عينيه رغمًا عنها، فأسرها اللون الأزرق الصافي، وذكرها ببحر الإسكندرية حيث نشأت. مد يده إليها وقال بصوت رخيم: - أحمد. أحمد التوردوماني!

- نور. نور الطيب.

* * *

- أحمد اتبنته عيلة أجنبية من آسيا وأخد اسمهم. أنا فضلت أزوره كل أسبوع طول ما كنت في إنجلترا. ورُحت لجدة نورهان بعد موتها عشان أترجاها تاخده، لكن هي رفضت لغاية قبل ما تموت بسنتين تلاتة خدته تقريبًا كان عنده خمستاشر سنة، وبعد ما خلص جامعة رجع مصر واستقر فيها بعد ما جدة نورهان كتبتله كل ثروتها بيع وشرا، خصوصًا ما كانش حد تاني فاضل من عيلتها. أنا فضلت على صلة بيه كل السنين دي، ولما جه مصر بقى يجيلي العيادة.

أكمل عادل قصة أحمد ابن نورهان بصوت متماسك قدر الإمكان.

- اسمه أحمد إيه؟

- أحمد التوردوماني.

* * *

- سعادتك ده الباشمهندس أحمد اللي ساكن في الشارع اللي ورانا، كان مع الست سهام في الكلية، ودايمًا رايحين جايين مع بعض، كان عايش في بلاد بره طول عمره، لغاية ما جه هنا من ييجي عشرة أو خمستاشر سنة كده.

- تعرف اسمه أحمد إيه؟

- مش عارف سعادتك والله، بس هو اسمه حاجة غريبة كده، توراني... توحناري. حاجة كده، عشان كده سعادتك بيقولوله توني.

* * *

تذكر علاء محادثته مع حارس العقار المواجه لمنزل سهام منذ عدة أسابيع، وقد اتضحت بعض الأمور له.

- إبراهيم، خد، ده عنوان توني اللي بعتته إدارة المرور، ما يتوهش، هو ساكن جنب سهام دي بالظبط، وخد معاك عسكري، هاته على هنا على طول.

- ونور وكريم سعادتك؟

- أنا هاكمل تحقيق معاهم لغاية ما تيجي.

- دكتور عادل أرجوك استنى، أعتقد محتاجك وأنا باحقق مع كريم ونور.

بعد إلقاء نورهان في البحيرة

ألقى عبد الرحمن جسده على أقرب مقعد، وانخرط في نحيب علا صوته فيه، أما سالم فنظر إليه بقلق وهو يهرع رغمًا عنه ليطمئن على أحمد صغيرها الذي فقد لتوه أمه، وكان صوت عبد الرحمن قد أيقظه فالتقطه سالم واحتضنه وهمس في أذنه:

- أنا آسف. أنا آسف سامحني.

- بابيب.

اقشعر بدن سالم وهو ينظر إلى أحمد الذي لفظ لأول مرة كلمة «بابا»، وسالت الدموع من عينيه بغزارة. كيف فعل ذلك؟ كيف تركها تموت وقد كان يعشق عينيها وهمساتها ورائحتها المميزة؟ كيف سيترك أحمد الذي بلا أدنى شك يشعر بأنه ابنه رغم كل شيء؟ لكن ساعة يده أخبرته بأن موعد الطائرة قد اقترب، ولا بد له أن يتحرك ليترك وراءه نورهان التي ترقد الآن في قاع تلك البحيرة الباردة وأحمد الذي استكان بين ذراعيه غير مدرك ماذا فعل بأمه. خرج من الغرفة إلى حيث عبد الرحمن الذي ما زال يبكي وأعطاه أحمد وقال له:

- عبد الرحمن أنا خلاص لازم أسافر، امسك نفسك كده عشان محدش يشك في حاجة، وخد الولد معاك بيتك، ولو حد سأل قول إنها سابتهولك وقالت رايحة مشوار، زي ما كانت بتعمل على طول.

ارتجفت يدا عبد الرحمن وهو يلتقط أحمد الذي بدأ في البكاء حين تركه سالم، وشدد سالم على يد عبد الرحمن حتى لا يسقط أحمد. كاد يخرج وقد حمل حقائبه إلى الباب، لكن ضوءًا أحمر بدأ في الوميض خلف باقة من الزهور وضعتها نورهان، فذهب سالم ليتفقد هذا الوميض، فوجد آلة تصوير من الطراز الحديث في ذلك الوقت، وقد فقدت شحنها وتومض معلنة عن حاجتها إلى إعادة الشحن مرة أخرى. لم يكن لديه وقت كافٍ لشحنها، لكنه أراد الاحتفاظ بها، فلا بد أنها سجلت حمل نورهان وأوقاتها مع أحمد. وضعها في إحدى حقائبه على عجالة، ونظر إلى أحمد الذي ما زال يبكي، وإلى عينَي عبد الرحمن اللتين أصبحتا خاويتين بلا تعبير. شعر بغصة في صدره، لكن ذلك لم يمنعه من الذهاب وإغلاق الباب خلفه.

يوم مقتل هيثم

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً، وقد أصاب علاء الإرهاق من هذا اليوم الطويل، وقد تراصت أكواب القهوة وأعقاب السجائر في كل مكان، إلا أن ملامح القضية بدأت تتضح أخيرًا. كان قد طلب إحضار بعض الشطائر له وللدكتور عادل الذي ما زال يجلس في مكتبه، وقد أتى بكريم أولًا الذي ما إن رأى عادل حتى ارتمى في أحضانه باكيًا كطفل صغير، وظل يتمتم بكلام كثير غير مفهوم من خلال دموعه، فربت عادل على ظهره بحنان أبوي صادق، فهو يعلم تمامًا كيف تتناقض مشاعر كريم نحو هيثم ونحو عائلته، فكلٌّ من هيثم وكريم في منزلة أولاده هو أيضًا. هدأ كريم قليلًا، وطلب علاء له كوبًا من العصير وبعض الطعام هو الآخر، فقد كان يبدو واهنًا ضعيفًا من شدة الجوع والانفعال معًا.

- اقعد يا دكتور كريم، وبالراحة كده قولي تاني اللي حصل بالظبط يوم قتل هيثم؟

ظلت عينا كريم معلقتين على وجه عادل كأنه يحاول أن يبرر له ما حدث، وقد بدأ صوته الخفيض في الارتفاع قليلًا: - أنا قابلت هيثم وكنت عايز آخد الموبايل.

- أنا مش فاهم إشمعنى عايز الموبايل! ليه يا كريم؟

- قبل موته بكام يوم جالي هيثم في العيادة واتخانق معايا لما شاف ورق بيع المستشفى مع إني ما كنتش مضيت أصلًا، بس هو اتجنن وهددني... هددني بفيديو ممكن يودي أبويا السجن، وقالي إنه هيعمل كده حتى لو أبوه هو كمان اتسجن! أنا طبعًا اتجننت وقلتله لو قربت من أبويا هاقتلك.

- عشان كده قتلته؟

- والله ما قتلته كان مات كان... صدقني يا أونكل عادل قوله... قوله إني مش ممكن أقتل هيثم، هيثم ده أخويا، أخويا.

ارتعد جسد كريم بالكامل وهو يبكي مرة أخرى، فنظر عادل إلى علاء نظرة ذات معنى أن انتظر ودعني أحدثه، واقترب من كريم ووضع كفيه على ساقيه اللتين ترتعشان: - أنا مصدقك يا كريم يا ابني، بس بالراحة كده، رُحت تقابله ليه؟

- بعد الخناقة بكام يوم جالي على البيت ظرف ذهبي غريب كده، وكان فيه ميموري كارد، لما شغلته لقيت فيديو فيه أونكل سالم وبابا بيشيلوا واحدة ست كده، ففهمت على طول إن ده الفيديو إياه. كنت هاتجنن لو حد شاف الفيديو ده هيحصل إيه. في الظرف كان فيه ورقة مكتوب فيها «الأصل على موبايل هيثم».

- مين قالك إن هيثم في المكان ده؟

- أنا عارف إن هيثم بيروح الصبح الكوفي شوب فقابلته في الممر، وطلبت منه يديني الفيديو والموبايل، فضل يقولي إن الفيديو مش معاه أصلًا وإنه بس كان بيقولي كده، بس طبعًا أنا ما صدقتوش وحاولت آخد الموبايل بالعافية، لدرجة إن هيثم وقع واتخبط في رأسه، بس ما قدرتش آخد الموبايل منه بالعافية حتى بعد ما اتخبط كان أقوى مني.

- طيب إزاي خدت الموبايل بعد كده؟

- أنا كنت باغلي من الغضب وفضلت أدور حوالين نفسي، وقررت أجيب حاجة أضربه بيها وآخد الموبايل غصب عنه، بس جيت أعدي لقيت ياسمين بتحط حاجة في صندوق الزبالة.

اعتدل علاء وهو يستمع إلى قوله الأخير:

- ياسمين هي اللي كانت بتحط حاجة في الزبالة؟ إنت متأكد؟

- أنا ما شُفتهاش من وشها، بس أنا عارف شعرها وشكل لبسها.

- طيب عملت إيه؟

- ولا حاجة، فضلت واقف مكاني لغاية ما مشيت.

- جبت حاجة عشان تضربه بيها؟

- لأ، كنت هديت وكنت ناوي أمشي خلاص، وقلت إن هيثم مش هيعمل كده أصلًا، عشان أبوه هو كمان في الفيديو. حاولت أقنع نفسي بكده، وكنت هامشي بس سمعت صوت موتوسيكل.

- وإيه يعني؟

- أنا قلت إن ده أكيد موتوسيكل سهام وإنهم خلصوا غراميات، واستنيت هيثم ينزل لكن ما نزلش، مش عارف إيه اللي خلاني أقرر أطلع أشوفه ليه ما نزلش وشُفته... شُفته وعينيه للسما وموبايله ومحفظته جنبه على الأرض، خدت الموبايل من غير ما أفكر وجريت وطلعت على العيادة وسيبته، سيبته...

موجة أخرى من البكاء من كريم جعلت علاء يطلب من عادل أن يجلس معه في غرفة أخرى حتى يلتقط هو أنفاسه، ويرتب أفكاره بعد كل ما سمعه في هذا اليوم. كريم إذن هو مَن تسبب في الجرح الذي يتوسط جبهة هيثم وهو مَن أخذ الهاتف، وياسمين هي مَن وضعت الفستان في صندوق القمامة، وإن بدا هذا غريبًا جدًّا ويُدينها وهو ما لم تخبرهم به، أما نور فقد اعترفت لإبراهيم أنها مَن طعنته الأربع والثلاثين طعنة بعدما وجدته ميتًا هي الأخرى. تجاهل هاتفه المحمول الذي لم يتوقف عن الرنين، وكان يدرك أن نهال ستُجن لأنه لم يظهر طوال اليوم، فاليوم ذكرى زواجهما، لكنه لم يكن ليترك القضية التي أوشكت أخيرًا على الانتهاء. زفر وهو ينظر إلى ساعته لماذا تأخر إبراهيم كل هذا الوقت ليحضر توني إلى القسم؟!

توني وأمه

وصل إبراهيم إلى منزل توني بسهولة كما توقع علاء، فهو يقع على بعد بضع دقائق من منزل سهام، لكن الظلام كان دامسًا. لم تكن هناك أي إضاءة من أي مصدر حوله. توجس إبراهيم قليلًا وأخرج سلاحه من جيبه، وأمر العسكري أن ينتظر خارج عتبة المنزل التي وطأها بحذر وهو يتلمس طريقه على ضوء القمر الخافت. تسلق الدرجات القليلة التي تفصله عن باب المنزل الذي وجده مواربًا وقد سمع من خلفه صوت امرأة تتحدث: - تعالَ تعالَ يا سالم، بص شوف أحمودي بيعمل إيه.

اقترب إبراهيم أكثر وهو يسمع بوضوح صوت طفل صغير يصدر بعض الأصوات المضحكة. أزاح الباب وخطا نحو الداخل الذي ما زال مظلمًا إلا من شاشة التلفزيون، وقد ظهرت عليه صورة امرأة، بدت كأنها سهام بشعرها الأحمر الناري، تحمل طفلًا صغيرًا ذا ملامح أوروبية، وسالم يقف بجوارها مبتسمًا بوضوح. يبدو أنه كان أصغر من هيثم ببضع سنوات في هذا المقطع. ظلت الشاشة تعرض بعض اللقطات التي تخالطها البهجة. أدار إبراهيم عينيه بحثًا عن الإضاءة حتى يتبين أين هو توني. كانت يده ما زالت محكمة على مسدسه، وعلى الرغم من تأهبه فإنه جفل رغمًا عنه حينما أشعل توني الضوء فجأة، وظهر جليًّا بجسده الضخم وفي يده زجاجة خمر فارغة تقريبًا.

- كانت حلوة أوي، صح؟

قالها توني مشيرًا إلى نورهان بعد أن أوقف المقطع على وجهها وهي تحمله وتبتسم. لم يحتَج إبراهيم إلى أي شيء ليدرك أن توني في حالة سُكْر تام وهو يكمل: - والأندال كلهم سابوها.

كان توني يتحدث إلى إبراهيم كأنه يعرفه من قبل، وكان ينظر إلى مسدسه الذي ما زال يحكم عليه قبضته بعينين خاويتين غير عابئ به نهائيًّا: - تعرف... تعرف إنها كانت لسه عايشة، كانت عايشة لما رموها في البحيرة.

- قتلت هيثم عشان تنتقم لأمك من سالم؟

- قتلت هيثم عشان كان يستاهل يموت.

قالها توني وهو يلوح بزجاجة الخمر ويتحرك بجوار طاولة تراصت عليها صور سهام على مدى السنوات، وهو يظهر بجوارها واضعًا يده عليها كأنه يحاوطها بجسده ويحميها في كل الصور. شعرها الأحمر الناري وملامحها

الجميلة الطفولية وقد اختفت كل تلك المساحيق التي تضعها على وجهها وهي تقف بجواره تبتسم وتنظر إليه بطرف عينها، كأنها تقول له أحتاج إلى حمايتك. أرخى إبراهيم قبضته على المسدس، وقد حصل على اعتراف من غير جهد من توني، وانتهت القضية التي أثارت حيرته هو وعلاء كل هذا الوقت. أخرج هاتفه المحمول من جيبه ليتصل بالقسم ليطلب بعض الدعم، فجسد توني الضخم وهو في حالة السُّكْر هذه ستجعل من الصعب التحكم به لاقتياده إلى القسم.

- إنت فاكر إنك هتاخدني؟ فاكر إنك هتحبسني؟ ليه عشان كلب غدار... أنا غلطان إني سيبته، أنا كان المفروض أزرعه هو كمان بس بصل المرة دي.

كان توني يترنح من تأثير الخمر، ولم يكن كلامه ذا معنى خصوصًا لإبراهيم، الذي طلب الدعم وظل في انتظاره وهو ما زال ممسكًا بمسدسه، وفي حركة مفاجئة تأهب لها إبراهيم كسر توني الزجاجة التي يحملها وبدا أنه سيهاجم إبراهيم الذي رفع مسدسه وقال له بحزم: - مفيش داعي إنك تعمل كده، أنا معايا مسدس زي ما إنت شايف.

ضحك توني عاليًا وهو ينظر إلى عينَي إبراهيم الذي أدرك متأخرًا ما كان توني ينوي فعله حقًّا.

جلست نهال على الرمال في سعادة، وقد حظيت أخيرًا ببضعة أيام في الغردقة مع علاء الذي تطلع هو الآخر إلى هذه الإجازة، بعد أن انتهت قضية مقتل هيثم سالم التي أطارت النوم من عينيه كثيرًا، وجعلت الفجوة بينه وبين نهال تزداد اتساعًا. كان يجلس مستندًا بظهره إلى مقعده أمام البحر بجوار نهال، وقد تطلع كلاهما إلى الأمواج التي ترتفع أمامهما. كانت القضية قد أُغلقت بانتحار توني الذي جز رقبته أمام إبراهيم الذي لم يستطع إنقاذه، ووُجد في بيته الهاتف الذي صدرت منه المكالمات لعادل بل ووُجد ببيته أيضًا السكين التي قُتل بها هيثم. الكل تم الإفراج عنه، ولم توجه أي تهمة لنور أو ياسمين أو كريم، وحتى قضية نورهان لم يُحقق فيها، فقد مر عليها أكثر من ثلاثين عامًا ولم تكن في مصر من الأساس. الكل بدا سعيدًا وأشاد اللواء مصطفى مدير إدارة البحث الجنائي بجهود علاء وإبراهيم في القضية، لكن علاء لم يكن راضيًا قَطُّ عن هذه النتيجة، وظل يُلح على اللواء مصطفى لاستكمال التحقيق في بعض الأمور التي لا تزال غامضة، لكنه رفض ونهاه عن ذلك، بل وأمر له بإجازة رغمًا عنه، فقبِلها مرغمًا وانطلق مع نهال إلى الغردقة، غير أن علاء كان شاردًا دائمًا حتى علا صوت الموج على صوت أفكاره التي لم يستطع حلها.

نور كانت آخر مَن طعن هيثم بحسب روايتها، وقد تطابقت مع تقرير الطب الشرعي، فكيف انتهى سلاح الجريمة عند توني؟ الظرف الذهبي، إن كان توني مَن أرسله، فلماذا؟ وما علاقة كل هذا بالفستان الأصفر؟ وكيف أتت دماء هيثم عليه؟ وكريم الذي زعم أنه رأى ياسمين ترمي شيئًا في صندوق القمامة، وياسمين التي نفت ذلك؟ والخلخال الذي اشتبك بسلسلة المفاتيح لمَن هو؟ ما الذي أتى به إلى هذا المكان؟ لم يستسِغ قَطُّ نهاية القضية على الرغم من أن إبراهيم أكد اعتراف توني، وأن سلاح الجريمة حمل بصماته وبصمات نور التي لم يعد يستغرب وجودها.

- مش هتنزل معايا البحر شوية يا علاء؟

- هاحصلك، بس هاشرب كوباية قهوة من الكوفي شوب اللي هناك ده الأول.

- طيب ماشي، بس ما تتأخرش.

مشى علاء نحو المقهى الموجود داخل الفندق، وهو ينفث بعضًا من دخان

سيجارته، وما زال يصارع أفكاره عن القضية التي أغلقها الجميع إلا هو.

«تحسست السلسال الذي يتوسط صدرها وهي تميل نحوه.. علاقة سطحية.. بانام معاه...».

كاد كوب القهوة يسقط من يده حين تذكر يد سهام وهي تعبث بسلسالها الذهبي، كيف لم يلحظ كل هذا الوقت؟! أخرج هاتفه المحمول من جيبه وراح يُقلِّب في الصور، حتى توقف عند صورة أحد الأظرف الذهبية وكبَّر الصورة حتى ينظر جيدًا إلى العلامة التي يحملها، وقد مرت في عقله كالبرق صورة سلسال سهام الذي يحمل نفس العلامة! سهام هي مَن كانت ترسل الأظرف! ضغط بسرعة على أزرار هاتفه المحمول ليتصل بإبراهيم: - إبراهيم، روح هاتلي سهام بسرعة عقبال ما أجيلك.

- تجيلي منين؟! من الغردقة؟

- أيوه، يلَّا اتحرك باقولك، لسه القصة ما خلصتش!

بداية الحكاية

وقفت سهام تنظر إلى نفسها في مرآة الحمام، وقد انحنت إلى الأمام تتأمل وجهها الجميل وشعرها الأحمر، وقد هبطت من عينيها دموع صامتة وهي تحمل في يدها اختبار الحمل المنزلي الذي يشير إلى نتيجة إيجابية. كانت مشاعرها مختلطة، جنين آخر كالذي تمنته من قبل ولم يأذن لها القدر به، جنين ترغب هي فيه وتتمناه سرًّا، لكنها تعرف أن المجتمع والدنيا لن يقبلا به حتى أبوه لن يتقبله، ما الذي ستفعله بهذا الطفل الذي ينمو سريعًا في أحشائها؟ لم تقرر بعد لكنها تعرف أنها تريده ولن تتخلى عنه بسهولة. غسلت وجهها بماء فاتر وقد اختفت آثار المواد التجميلية الثقيلة من وجهها فقط لتظهر أكثر جمالًا ورقة. خرجت من الحمام وهي تنظر إلى ساعتها فهي اليوم على موعد مع هيثم. ارتدت ثوبًا أسود قصيرًا، ووضعت لمسات بسيطة من المواد التجميلية، فلم تكن ترغب هذه الليلة في مظهر الفتاة اللعوب الذي تقوم به ببراعة، بل أرادت أن تكون مختلفة ومميزة.

كانت أمام عيادة هيثم قبل الموعد فقد كانت متشوقة إلى رؤيته، لكنها لم تنتظر كثيرًا، فهيثم نفسه كان قد وصل أيضًا مبكرًا فقد كان هو الآخر متشوقًا إلى رؤيتها، فهو لا ينكر أن لها مذاقًا مختلفًا عن كل مَن عرفهن، فهي متجددة وجريئة وجميلة جمالًا أخاذًا ويُكتب في جسدها مجلدات من الشعر من روعته. تقابلا في العيادة، وما إن أُغلق الباب حتى تلاحمت شفاههما من دون حتى أن ينطقا بالتحية. كانت بين ذراعيه في لحظات، لكنها توقفت في المنتصف لتلتقط أنفاسها فتركها قليلًا وتراجع إلى الخلف في دهشة.

- مالك؟

مالت إلى الأمام وقد التقت عيناها بعينيه المليئتين بالأسئلة. أشاحت بوجهها بعد أن طال الصمت بينهما، وقد اعتدلت جالسة بعد أن كانت قد استلقت على ظهرها استقبالًا له: - أنا حامل.

- نعم!

- حامل. إيه ما سمعتش؟!

كان قد اعتدل هو الآخر والتقط علبة سجائره وهو يعدل من ثيابه. أشعل سيجارة وسحب منها نفسًا طويلًا وهو ينظر إلى عينيها بعمق. كان يعرف قصتها ويعرف رغبتها في هذا الطفل، لكنه لن يتقبله. كيف له حتى أن يتأكد

أن هذا الطفل له وهي تدور بين أيدي الرجال كل ليلة.

- وبعدين إيه المطلوب؟!

- نتجوز.

- نعم يا روح أمك!

كان الغضب قد بدأ يسري في عروقه. هو حقًّا لا يريد خسارتها، لكنها قد جاءته بما لا يريد ولا يتمنى، فهو لن يتزوج من الأساس، وإن تزوج فهو بالتأكيد لن يتزوجها هي.

- إنت عارف إن الولد ده ابنك.

- باقولك إيه ابني ولَّا مش ابني أنا لا بتاع جواز ولا بتاع عيال، وإنتِ عارفة كده من الأول.

- وحصل بالغلط إني بقيت حامل. إيه العمل دلوقتِ؟

- والله دي مش مشكلتي براحتك تنزليه تربيه تشربيه. أنا مليش في الكلام ده خالص، روقي كده وخلينا حبايب.

كانت في قرارة نفسها تعرف أن هذه ستكون ردة فعله، لكن جزءًا بسيطًا منها تمنى أن تكون مخطئة، تمنت أن يكون قد أحبها بصدق ولو للحظات. اعتلت وجهها لثوانٍ ملامح الأسى التي سرعان ما تبدلت لتحل محلها ملامح أكثر إغراءً وشراسة، وتحتل عينيها تلك النظرة الزجاجية التي امتلكتها منذ أن فقدت جنينها الأول. التقطت السيجارة من يده لتضعها بين شفتيها وهي تجذبه نحوها معلنة نهاية هذا الحوار إلى الأبد بينهما. قضت معه ليلة أسطورية أذاقته فيها ما لم يذُقه من قبل من المتعة واللذة، وتركته وقد عزمت في نفسها أن تذيقه عذابًا كما لم يذُق من قبل أيضًا.

حازم وتوني

وقفت سهام خلف باب قاعة المحاضرات في انتظار حازم الذي كان الوصول إليه صعبًا هذه الأيام بشدة، كانت تريده وتحتاج إلى الحديث معه. أخبرها توني بأنه يتهرب منها، وأنه كما حذرها لم يحبها قَطُّ، لكنها أبت أن تصدق، فكلام حازم ولمساته قد أخفيا عن عقلها الحقائق التي ظهرت جليةً لجدها قبل موته ولتوني الذي تمنى لو أنها أنصتت له.

- حازم، حازم.

التفت حازم وقد ظهر على وجهه التأفف، قدم اعتذاره إلى إحدى الطالبات التي كانت تسير بجواره، وطلب منها أن تسبقه: - أيوه يا سهام، فيه حاجة؟

نظرت إلى عينيه نظرة حائرة، وقد علمت بداخلها أن توني كان على حق، لكنها أرادت أن تتمسك بالأمل إلى آخر لحظة: - أنا محتاجة أتكلم معاك.

- أنا مشغول شوية، خليها وقت تاني.

- لو ما جتش معايا يا حازم دلوقتِ على البيت، أنا هاعملك فضيحة في الجامعة كلها، أنا مجنونة صدقني هاعملها.

لأول مرة ظهر طيف من سهام الجديدة التي ستولد من هذا اليوم، وقد ظهرت على وجهها علامات الجدية، فانطلق معها إلى سيارتها ولم ينطق أيٌّ منهما بكلمة إلى أن دلفا إلى بيتها.

- أيوه يا سهام، إيه الدراما دي بقى؟

- دراما؟! إنت داخل على أسبوع بتتهرب مني من ساعة ما عرفت إني حامل.

- سو. حبيبتي إنتِ ما كملتيش تسعتاشر سنة، تفتكري فكرة وجود طفل دلوقتِ فكرة حلوة؟

- يعني إيه؟ عايزني أعمل إيه يعني؟

- يعني تنزليه طبعًا، ده مش وقته.

- إنت مش ناوي تتجوزني يا حازم؟

رأت في عينيه الجواب قبل أن ينطق. رأت كل ما كان يراه توني وجدها، واختارت هي ألا تراه قبل هذه اللحظة، لكن ما الذي غيَّر الوضع؟! ما زالت جميلة وغنية وهو ما زال طامعًا وفقيرًا! ثم استرجعت في عقلها يده التي لمست ظهر الطالبة الأمريكية الجديدة، إذن قد أتت مَن هي أغنى منها وربما أجمل كذلك، فلماذا يفي بعهده معها؟

- آه ده عشان جينا مش كده؟

- سو حبيبتي ما تظلمينيش، أنا بس شايف إن فرصة السفر والجنسية ما تتعوضش، وإحنا كده كده هنفضل مع بعض عادي.

لم تتمالك سهام نفسها، أهي هرمونات الحمل، أم ألم الغدر الذي لم تصدقه؟ السلسال الذي يتوسط رقبتها رمزًا للحب الذي لن ينتهي ومَن يتخلَّ عنه فله الموت. في لحظات كان مسجى على الأرض، تسيل دماؤه في كل مكان، بعد أن هوت بقوة على رأسه بأحد تماثيل جدها، لم يتفادَ الضربة التي لم يتوقعها وسقط، مما أدى إلى ارتطام رأسه المجروح بالأرض بعنف. ارتعشت يداها وألقت التمثال وركضت للاتصال بتوني الذي كان يقف عند جسد حازم بعد بضع دقائق.

- مات؟ مات يا توني؟

انحنى توني يتفقد نبض حازم الذي كان واهنًا، لكنه ما زال موجودًا، نظر إلى وجهها وملامح الفزع بادية عليها. خصلات شعرها الأحمر المتدلية على جبينها الأبيض، وقد وضعت يديها بشكل لاإرادي على بطنها كأنها تحمي طفلها المنتظر. كم بدت له في هذه اللحظة كأمه نورهان الذي يعرف كل شيء عنها مما كتبته وصوَّرته على أشرطة، أعطاها إياه أبواه بالتبني. شعر بمزيج من الغضب والحنان نحوها. التقط التمثال من الأرض وأنهى ما بدأته.

* * *

قضت بقية الليلة تفكر كيف تنتقم منه ومن كل الرجال. كانت تعرف أنها تريد له قبرًا مثل قبر حازم الذي يرقد تحت حوض الزرع منذ سنوات في حديقتها، حوض الزرع الذي بناه توني في هذا اليوم وظلت هي تسقيه لتظل تتذكر أنها دفنت في هذا المكان الحب والثقة وسهام الرقيقة المحبة. كانت قد فقدت جنينها الأول بعدها بعدة أيام. سالت دماؤها وهي وحيدة في بيتها لتتذوق مرارة فقد طفل تمنته ولو للحظات. هيثم كان لا بد له من قبر هو الآخر، لكن كيف؟ لم تختمر الخطة في عقلها بسهولة، لكنها أيقنت أن الأمر يبدأ بأن تعرف عنه أكثر فأكثر، أن تعرف كل ما يفعل وكل مَن يقابل، بداية من عاداته ومرضاه وحياته العادية التي يخفيها عنها، فهي لم ترَ منه غير لحظات الفراش التي تجمع بينهما. كيف تفعل ذلك من دون أن يلاحظ أو يشك؟ التقطت الحاسوب المحمول من فوق الطاولة، وجلست تبحث في محركات البحث عن طريقة مبتكرة لمراقبته. بعد بضع ساعات توصلت إلى برنامج تضعه على هاتفه المحمول يرسل إليها كل مكالماته ورسائله وصوره، ويخبرها عن طريق تطبيق تحديد المواقع عن أماكن وجوده لحظة بلحظة. لم

تفكر كثيرًا واشترت البرنامج على الفور، لكنها لم تفكر في كيفية وضعه على هاتفه.

مرت بضعة أيام وهي تفكر وتبحث عن طريقة مناسبة، حتى خدمها الحظ باقتراب يوم عيد ميلاده، فاشترت هاتفًا محمولًا جديدًا أنيقًا، وحمَّلت التطبيق عليه سابقًا، وذهبت إليه لتهديه إياه بقليل من الدلال. استخدمه على الفور. لحظات وكانت داخل عالمه تستمع إلى مكالماته، تعرف أين يذهب وتقرأ ما يرسله، بل وتفتح الكاميرا وتسجل له ما يحلو لها. كانت بهذا البرنامج قد توغلت في حياته، فهو مثل كل الناس في هذا العصر يقضي كل وقته مع هاتفه، بل يستخدمه أيضًا في تسجيل بيانات المرضى. وفي لمحة أخرى عن خطتها أخذت مفتاح العيادة منه ذات يوم مُدعية أنها ستسبقه لتحضير المكان لقضاء ليلة لن يقضي مثلها أبدًا، واعتلت أحد المقاعد بحذر وخبأت إحدى آلات التصوير في غرفة الفحص فقط لتكون لها عليه وعلى مرضاه اليد العليا.

رويدًا رويدًا اختارت من مريضاته ياسمين ونور لتكون كلٌّ منهما جزءًا من خطتها. نور التي فقدت صديقتها بعد اغتصابها وتخشى الرجال وتكرههم، والأدهى أنها تنسى في بعض الأحيان بعض الأحداث. لم يتركها هيثم فهي جميلة قضى معها ليلة قد التقطتها عدستها المثبتة في عيادته، لترسل الصور إلى نور لتثير حنقها وترسل إليها في نفس الظرف عنوان عيادة عادل الذي يذهب إليه توني باستمرار، فهو على صلة به منذ ولادته وموت أمه في لندن، ثم أتت ياسمين تلك الخائنة التي تركت شابًّا مسؤولًا ومحبًّا مثل آسر، وتلهث خلف سراب في أحضان علي. علمت من ملف ياسمين الموجود على هاتف هيثم مكان عمل آسر، لتجد فيه نِعم الأب لطفلها المنتظر، فألقت شباكها حوله مرتدية في مقابلاتها معه فستانها الأصفر. لكن توني؟ كيف سيتركها تتزوج وتحب وتحيا حياة طبيعية؟! فهي ليست صديقته فقط إنما هي أمه التي يقوم بدور المنقذ لها في كل محنة. هي في نظره أمه التي ألقاها سالم في البحيرة وهي ما زالت حية تتنفس، ولم يستطع أن ينقذها لأنه كان طفلًا، ومَن الذي سيقضي على هيثم وينتقم لجنينها القادم منه ومن أمثاله؟! أحكمت قبضتها على قطع الأحجية. ظلت تحرض توني في لحظات سُكره على هيثم وتردد الكلام عن خوفها منه، ورغبتها في دفنه جوار حازم. ظلت تذكره بأمه وسالم والذي فعله بها وبه، حتى رأت في عينيه تلك النظرة التي تمنتها منذ البداية، هيثم لا بد له أن يُقتل!

يوم الجريمة!

ليلة مقتله استلقت على فراشه بغرفة نومه شبه عارية، ثم انتظرت ذهابه إلى الحمام لتخرج من حقيبتها قطعة زجاجية وضعتها بجوار هاتفه المحمول، وكما توقعت وتمنت لم ينتبه لها في ضوء الغرفة الخافت، فانغرست قطعة الزجاج في يده، مما جعله ينزف بشدة وهو يتأوه.

- معلش أنا آسفة، دي كوباية اتكسرت مني، استنى ثواني أنضفلك الجرح وأربطه.

وبحزام فستانها الأصفر العريض ضغطت على الجرح فكانت بقعة الدماء التي أرادتها على فستان ياسمين الذي طلبته منها في إحدى رسائل التهديد، حتى تضمن وجود ياسمين على قائمة المشتبه فيهم، ويتسنى لها أن تفضحها عند آسر وتظفر به زوجًا خالصًا لها. حضَّرت لهيثم كأسًا من الخمر، ثم قالت له بشكل بدا طبيعيًّا جدًّا:

- باقولك إيه، ادِيني كده مفتاح عربيتك، شكل الحلق المدور بتاعي وقع فيها.

ارتدت ثيابها على عجالة وهي تحمل سلسلة المفاتيح لتضع في صندوق سيارته الفستان الأصفر والحزام الذي يحمل بقعة من دمائه، وفي داخل الحقيبة التي حملت الفستان وضعت شعرًا مستعارًا أسود اللون، وأغلقت الحقيبة وخبأتها بين أشياء هيثم المتناثرة. في نفس اللحظة كان توني قد أرسل إلى هيثم على هاتفه المحمول جزءًا من شريط ليلة مقتل نورهان، الشريط الذي يعرفه ويخبئه في خزانته، واستطاعت سهام فتحها بعد أن رأته عشرات المرات وهو يُدخل أرقامها السرية، وصوَّرته أيضًا لضمان نجاح خطتها. المقطع المصور أتت معه رسالة تهديد واضحة تخبره بضرورة اللقاء في البناية المهجورة المجاورة للمقهى الذي اعتاد الجلوس فيه في العاشرة والنصف صباحًا، وإلا سيكون هذا المقطع على كل صفحات التواصل الاجتماعي. لم ينَم هيثم هذه الليلة، فياسمين تُحدِّثه عمن يهددها أيضًا بأشياء موجودة فقط في عيادته، والشريط أيضًا أُخذ من خزانته في العيادة. ليلة صعبة مليئة بالتوتر والمشاحنات.

من حاسوبها المحمول ترسل إلى كريم نفس المقطع الذي أرسله توني إلى هيثم، لكنه يبدو كأنه أُرسل من هاتف هيثم المحمول، ورسالة إلى كريم لإخباره بأن هيثم سيكون في المقهى قبل موعده فقط لتضع اللمسات الأخيرة لمشهد النهاية. وفي أحضان توني هذه الليلة تبكي وتستميل عواطفه

لينتقم لها ولأمه، فيذهب في موعده منتظرًا هيثم الذي استقبلته سهام في موقف السيارات حين كان حسام مشغولًا بالتحدث إلى ياسمين، وطلبت منه مرة أخرى مفتاح سيارته، لأنها أضاعت بغبائها خاتمها الماسي هو الآخر. تأفف هيثم منها، لكنه أعطاها سلسلة المفاتيح وانطلق ليقابل توني، وإن تأخر دقائق لمقابلته لكريم وارتطام رأسه بالحجر.

حملت سهام الحقيبة التي تحتوي على الفستان، وأخذت الشعر المستعار الأسود وخرجت من السيارة، لكنها رأت ياسمين تخرج من بعيد، فانحنت تختبئ خلف السيارة، وقد سقطت سلسلة المفاتيح منها ليشتبك بها خلخالها الملون. لم تعبأ بسلسلة المفاتيح أو الخلخال ووضعت الشعر المستعار الأسود، ودارت حول المقهى لتضع الفستان الأصفر في صندوق القمامة، وقد بدت لكريم من مسافة كأنها ياسمين.

لم يستطع هيثم مقاومة توني فقد أصابه الدوار إثر ارتطام رأسه بسبب كريم. طعنه توني طعنة واحدة مباشرة في قلبه أودت بحياته على الفور. ولتكتمل المعزوفة السيمفونية بكل أجزائها جاءت نور بعدما أرسل إليها توني نفسه رسالة يخبرها بأنه سينتقم لها ولكل النساء من هذا القذر المدعو «هيثم»، وإن أرادت أن ترى بعينيها فلتأتِ وتقابله في البناية التي تجاور المقهى. فقط لترى توني وهو ينزل مسرعًا ويده غارقة بدماء هيثم. لم ينطق فقط فهمت من نظراته ما حدث، فقد التقت به وهي تترك عيادة عادل ورأى صورها مع هيثم، ورويدًا رويدًا أصبح صديقًا آمنًا لها هي الأخرى، كما توقعت وتمنت سهام، فتوني ضعيف حيال الفتيات الضعيفات اللاتي يذكرنه بأمه، وهي أيضًا تعاطفت مع قصته وعلمت من دون أي جهد أن جثة هيثم ستكون أعلى البناية المهجورة. تركته يغادر بالدراجة النارية وتسلقت الدرج لترى مشهدًا قد رأته سابقًا، عيناه تنظران إلى السماء وقد فقد حياته وهاتفه المحمول الذي أخذه كريم وانطلق راكضًا هو الآخر، لتضع في قلبه بقية الطعنات انتقامًا لنور من كل أنذال هذا العالم.

وقبل أن يخيم الظلام ويتساءل الجميع أين هو هيثم سالم، كانت سهام تحمل السكين التي قُتل بها هيثم لتضعها في بيت توني، مُمنية نفسها بحبل المشنقة له حتى تتخلص من حبه لها، فقد اختنقت بهذا الحب رغمًا عنها، وزرع الرعب في قلبها مراقبته المستمرة وتهديدها بشكل مباشر وغير مباشر بأمر جثة حازم التي ترقد في حديقة منزلها إلى الآن.

النهاية

بداية ثانية

جلس علاء على مكتبه وهو ينفث دخان سيجارته كعادته، وقد تناثرت عشرات الأوراق على مكتبه الذي يأمر ألا يُمس حتى للتنظيف، فهو يحتفظ بقصاصات من الأوراق دائمًا يضع عليها أفكاره. طُرق الباب. أحد المجندين يحمل له كوب القهوة التي ما زال يعشقها فأزاح بعض الأوراق حتى يضع الكوب، فوقعت عيناه على قصاصة ورق قديمة كُتب عليها: «هيثم سالم». فابتسم وقد جاء على عقله طيف سهام التي وقر في قلبه أنها وراء قتل هيثم بشكل أو آخر، وتذكر كيف بحث عنها في كل مكان فلم يعثر عليها بأي شكل. كانت فيلّتها فارغة تمامًا وقد بِيعت لسكان جدد، وآخر عهدها بمصر كان ختم خروج إلى أمريكا، وقد اختفى تمامًا كل أثر لها بعد ذلك، وطبعًا نهاه مديره عن البحث عنها عن طريق السفارة أو السعي إليها بأي شكل، فالقضية قد أُغلقت باعتراف وليس لديهم أي وقت للبحث وراء أفكار ضبابية جاءت من ظرف ذهبي لا قيمة له. قطع علاء الورقة واحتضن كوب القهوة وتناسى ملامح سهام التي ما زالت تلاحقه حتى بعد كل هذه السنوات...

وفي مكان آخر في بلد آخر...

- أحمودي، أحمودي تعالَ هنا لماما.

التفت أحمد الذي لم يتجاوز السنوات الثلاث إليها، وابتسم ابتسامة مليئة بالطاقة والحب تخبرها بأنه لن يذهب إليها بل سيكمل طريقه إلى حيث يريد. ضحكت بصوت عالٍ وهي تراه وهو يركض بعيدًا ليذهب بالضبط إلى حيث تنهاه، ليلتقطه أبوه من الناحية الأخرى في الوقت المناسب.

- مفيش فايدة فيك يا أحمد، إنت مش بتسمع كلام ماما أبدًا.

ضحك أحمد وقد دفن رأسه في صدر آسر الذي احتضن سهام بذراعه الأخرى، وهو ينظر إلى السماء التي تنذر بمطر قريب.

- مش فاهم إشمعنى إنجلترا يعني اللي اخترتِ نستقر فيها، مش كنا رُحنا حتة فيها شمس شوية؟!

- عشان هنا كانت البداية يا حبيبي.

- بداية إيه مش فاهم؟!

- بداية القصة...

المؤلفة

إنجي هديب مهندسة ورحالة وروائية مصرية، تخرجت في كلية الهندسة، وحصلت على ماجستير في الإدارة وآخر في علم النفس. صاحبة مدونة «حدوتة إنجي». صدرت لها روايتان: «آخر كوباية قهوة» و«مقتل مريم الحاوي».